

٥  
قصص وأبحاث جغرافية وأثرية عن جزيرة العرب

# رحلة إلى بلاد نجد

تأليف  
السيد أي أن بلنت  
ترجمة  
محمد أنعم غالب

مكتبات دارالبيانات للبحث والترجمة والنشر - الرياض - المملكة العربية السعودية

AL-OBEIKAN



1000641  
SR- 35.00

٠ نصوص ووثائق من الأقباط ومارونية في جزيرة العرب

# رحلة إلى بلاد نجد

تأليف

الليثي أن بلنت

ترجمة

محمد أنعم غالب

الطبعة الثانية

١٣٨٩ هـ - ١٩٧٨ م

# فهرس

## كلمة عن هذه الرحلة

كان الدكتور عمر حليق قد كتب مقالاً نشرته مجلة اليامة، بعنوان : ( مراجع أجنبية ، عن المملكة العربية السعودية ) في سنة ١٣٧٣ هـ في ص ٣٤٨ - ٣٥٣ من المجلد الثاني . ورد فيه وصف موجز لهذه الرحلة .

قلما زرت مدينة ( لندن ) في شهر أكتوبر سنة ١٩٦٠ م بحثت عن نسخة منها ، وكأنت طبعت في سنة ١٨٨١ م فأصبحت نسخها نادرة ، وهذا ما كلفني بضعة عشر جنيهاً امترليانياً ثناً للنسخة مستعملة ، لحرصي على جمع ما يتعلق ببلادنا من رحلات ، ومؤلفات تاريخية وجغرافية .

ثم دفعت الكتاب الى اخي وصديقي الاستاذ محمد انعم غالب ، ليعرّب الملائم من فصوله للنشر ، فكان أن عرّب جُل ما يتعلق بنجد من تلك الرحلة ، باستثناء ما ورد فيه عن ( الحيل ) ونشرت ذلك في ( اليامة ) الصحيفة - في

حلقات متتامة - العدد ٢٧٠ في ١/١١/١٣٨٠ - وما بعده -  
على أمل جمعها في كتاب يضم ترجمة كاملة لتلك الرحلة ،  
بنشرها .

وقد كتبت الى الاخ الاستاذ محمد انعم - المدرس في كلية  
بليس ، في عدن - أستعنه باكمال الترجمة ، وبإعادة النظر ،  
قبا ترجم ، فوعد بذلك ...

إلا أن عدم الاستقرار في تلك الناحية ، ومضي فترة  
غير قصيرة من الزمن - مما دفعني الى نشر الفصول التي ترجمت  
من الرحلة ، وهي خلاصة ما فيها عن بلاد نجد ، مما هم  
حجرة القراء .

### صاحبة الرحلة :

وصاحبة الرحلة هي الليدي آن بلنت ، نبيلة انجليزية ،  
حفيدة الشاعر الانجليزي الشهير «بيرون» وزوجة الشاعر  
السيامي الانجليزي «ويلفريد سكوير بلنت» (١٨١٠/١٩٢٢م)  
وزوجته بعد تركه العمل في السلك السيامي (الذي بلغ ١٥  
عاماً) (١٨٥٨/١٨٧٢م) في اليونان ، واسبانية ، وفرنسة ،  
والبرتغال ، وجنوب امريكا .

وكان زوجها على خلاف كبير مع حكومته ، لمعارضته  
لسياستها الاستعمارية ، ومناصرته للحركات التحررية ، وهو  
يشبه - الى حد كبير - الشيخ عبد الله فليبي . فقد قام

- مع زوجته صاحبة الرحلة - برحلات طويلة في شمال  
افريقية ، وفي البلاد العربية ، وفي الهند ، وأبدى تأييداً قوياً  
لحركة « عرابي باشا » في مصر .

وكان يرى ان المستقبل للإسلام ، وكانت له صلة قوية  
بالامام الشيخ محمد عبده .

وفي سنة ١٨٨٢ م اعتقلته حكومته في ( ايرلندا ) بينما  
كان يرأس اجتماعاً سياسياً ضدها ، وبقي في السجن شهرين .

وفي عام ١٨٧٢ - أمست الليدي آن مع زوجها مزرعة ،  
لتربية الخيول العربية ، أصبحت مشهورة في بريطانيا منذ  
ذلك الوقت الى اليوم .

والسيدة آن بلانت - كزوجها - مولمة بالاسفار ،  
ومحبة بالصفات العربية ، ويتضح هذا جلياً من رحلتها هذه .  
ومن مؤلفاتها :

١ - قبائل القرات - طبع سنة ١٨٧٩ م .

Bedouin Tribes of The Euphrates

٢ - الحج الى نجد - طبع سنة ١٨٨١ م .

Pilgrimage To Nejd (٢)

---

(٥) يرجع الفضل في هذه المعلومات للصديق الكريم سعادة الشيخ عبد الله  
الحبال .

والأخير هو الذي نقدم للقراء أهم فصوله ، مع مراعاة  
عدم التقيد بترتيب الكتابة لها أو ببعض ألفاظها لظروف خاصة .  
إلا أننا لم نزد شيئاً ، أو نغير تغييراً يحيل المعنى .

### أهمية هذه الرحلة :

تظهر أهمية هذه الرحلة — بالنسبة لما يتطلبه الباحث في  
دراسة احوال بلادنا — من ناحيتين :

أولاهما : قلة المؤلفات التي تتعلق بالفترة الزمنية إبان حكم  
آل رشيد ( من آخر القرن الثالث عشر الهجري الى الربع  
الاول من القرن الحالي ) .

ثانيتهما : عمق الملاحظات المدونة في هذه الرحلة ، ودقتها ،  
وصدق تصويرها .

وهي أمور ، سيؤخذ القارىء بروعتها ووضوح تصويرها .  
و « دار اليامة للبحث والترجمة والنشر » تسمى لنقدم  
للباحثين كل ما تستطيع تقديمه مما يضيف جديداً الى معلوماتهم  
عن هذه البلاد الكريمة ، وهذا ما دعا الى نشر هذه الرحلة .

محمد الجامسر

فصول من كتاب :

**Lady Anne Blunt.**

## **Pilgrimage To NEJD**

**The Cradle of the Arab Race,  
Second Edition 1881, John Murray,**

*London.*

## القسم الاول : قُرَيَاتِ الملح

[ هذا هو الفصل الخامس من رحلة اللاهي بلانت الى نجد . وفيه تقدم مشاهداتها وانطباعاتها أثناء سيرها من كلف - احدى قُرَيَاتِ الملح - الى الجوف ، مشاهد ربما بعضها ما زال قائما . لكن ثمانين عاما وان اُبقت على المكان كما هو . فقد نعبت بالسحر والحظر ودعوة للفاخرة ]



# بلدة «كاف» وسكانها:

٢٨ ديسمبر [سنة ١٨٧٩ - ١٢٩٧ هـ]

كاف قرية صغيرة لطيفة لها طابعها الخاص ، متميزة تماماً عن أي شيء يراه المرء في سورية ، وكل شيء نموذج مصغر ، الستة عشر بيتاً المربعة الصغيرة ، والأبراج الصغيرة ذات المشارف والأسوار بمشارفها بارقتها البانح ٧ أقدام - والسمون أو الثمانون نخلة في بستان 'يروي من آبار' وبعض أشجار حبيتها في البداية سرو ، ثم اتضح أنها نوع رقيق من الاثل (١) . ومع أنها محل صغير جداً ، فإن (كاف) ذات منظر فريد مزهر ، فكل شيء هناك أنيق ، وفي إصلاح حسن ، ولن تجد ترفقة واحدة مكسورة أو باباً خارجاً عن مفصلاته ، كما هي الحال بكل تأكيد في سورية . وهناك أيضاً عدد طيب من صفار النخيل غرست في وسط النخلات الأكبر سناً ، وشجرات تين حديثة ، وكروم ، أشياء قل أن تجدها في الشمال .

(١) الاثل ، شجرة تزرع في كل قرية من قرى بلاد العرب الوسطى ، ولكنها لا توجد هناك وحشية ، بقدر ما أعلم . (الاصل)  
المترجم : بل يوجد نوع من الاثل يسمى الطرافاء يثبت في الاودية بدون أن يزوح ، ولكن خشبه ضعيف .

والناس لطاف المنظر حسنو السلوك ، ولو انهم في البداية  
أفزعونا قليلا بطوافهم ، والسيوف في أيديهم . وهذه اما يحملونها  
منكسة على كلا الكتفين أو يقبضون غمدها بكلتا اليدين ، أشبه  
كثيراً بما يشاهد المرء في الاشكال المنقوشة على الصخر لشهداء  
المصور الوسطى ، أو في صور المجاهدين الصليبيين .

## في ضيافة شيخ البلدة :

استقبلنا عبد الله القاسم ، شيخ القرية ، والذي اليه حملنا  
رسالة من حسين ، بأدب عظيم ، ونظفت غرفة في بيته من  
أجل استئماننا . وككل الغرف الاخرى ، فتح بابها على الفناء ،  
الذي في وسطه ربط فُلُوءُ عمره ستتان ، وكانت غرفتنا مخزناً  
للقود ، كما كانت بدون أثاث من أي نوع ، ولكننا اغتبطنا  
أن نجد لها بدون سكان أيضاً ، والهندسة المعمارية هنا بسيطة  
جداً ، مجرد جدران من الطين بلا شبابيك أو فتحات من أي  
نوع باستثناء ثقب مربعة قليلة قريباً من السقف . وكان السقف  
من عمدان من الاثل بقواطع من التخل تملأ ما بينها فروع من  
النخل . وتسمى الغرفة الرئيسية « القهوة » أو غرفة القهوة ،  
وفيها يوجد موقد مربع في الجانب أو من الوسط لصنع  
القهوة . ولا توجد مدخنة ، ويخرج الدخان كما يستطيع ،  
ولكن هذا ليس غير مربع كما قد يتبادر الى الذهن ، لأن

احترقوا الخطب هنا له لمب لاعم جبل ، ويعطي أقصى حرارة بأدنى قدر من السخان . انه ( الروقة ) <sup>(١)</sup> أو ( الفصا ) ( نوع من الاثل ) ويجلس الناس حول لموقد ، بينما يجري صنع القهوة ، اجراءاً صامناً يستغرق نصف ساعة تقريباً .

وبمجرد وصولنا ، أحضرت قصعة من النمر من محصول العام الماضي ، وهو لزج ومهروس ، ولكنه طيب ، وفي المساء تناولنا عشاءاً معتاداً مكوناً من البرغل ولحم الدجاج المملوح . اننا مندهشون جداً من الأدب الذي عليه كل فرد . فمبدأه ، مصبفاً ، سألنا على الأقل عشرين مرة عن صحتنا قبل أن نتقل من شيء إلى آخر ، ولم يكن من السهل أن نجده ثناء مناسباً للرد . وكل شيء بالطبع بانس ووسيط ، ولكن المراء لا يملك إلا أن يحس انه بين قوم متحضرين وقد اکتروا من المحجب مع محمد الذي يعاملونه كشيوخ .

و ( تدمر ) معروفة الامم جيداً وتعتبر على هذه المسافة مدينة هامة . ووجود انسان في مركزه يقوم بعمل شبه حقير كالذي يقوم به محمد معنا ، يعتبر مفاجأة كبيرة ، لهذا وضع

(١) الروقة : من مراعي الابل المفضلة .

وبما ينتشر به على قبيلة الروقة ما يلعب ال اأدم . أنه عند ما سمع راعياً يظ . ويصف الجنة التي أعدما الله للمتقين يوم القيامة ، وانها حوت ما تشبه الأنفس وتلك الأعين ، سأل الرديلي الواعظ قائلاً : وهل فيها روقة ؟

موضع استجواب مذهب في المساء في ما يتصل بالبائع  
وراء رحلته .

لم يشاهد ( الفرنج ) قط في ( كاف ) من قبل ، هكذا  
يقول الناس ، وهم لا يفهمون الاحترام الذي يقابل به الأوروبيون  
في أماكن أخرى . وعلى أية حال ، فقد شرح لهم عمدة أخوته  
مع البيك ، ، واحتج أن رحلته هي رحلة شرقية ، لا رحلة  
من أجل الربح ، حتى نعامل بنفس القدر من البشاشة كما لو كنا  
غرباً بالولادة . وكان عواد الشمري ذا فائدة عظيمة لنا ، من  
حيث أنه معروف جيداً هنا ، فيقوم بدور التقديم .

## من تاريخ « كاف » :

و ( كاف ) متفلة تماماً عن السلطان ، ولو أن الماسكر  
الترك نهبها مرتين ، مرة بقيادة ابراهيم باشا ، ومرة ثانية منذ  
بضع سنين فقط ، عندما أرسلت حكومة دمشق حملة عسكرية  
إلى وادي السرحان . وشاهدنا خرائب قلعة ، قصر السعيد ،  
على تل فوق البلدة ، هدمها السابقون ( جنود ابراهيم باشا ) ،  
وسمعنا كثيراً من النواح حول أعمال الآخرين .

## كاف تابعة لحكم ابن رشيد :

وسكان ( كاف ) يترفون بأنفسهم وعسايا لابن رشيد ، رئيس جبل شمر ، وكان بعض قومه هنا منذ أيام قلبية فقط ، يأخذون الآثورة ، وهي مبلغ صغير جداً ، عشرون مجيدياً ( جنهيات اسرلينية ) ، وهم يدفمونها بابتهاج مقابل حاجته لهم . وهم متحصنون جداً ( للامير ) ، كما يسمونه ، وحقاً ليس هناك من سبب حتى يرغبون في الانضمام إلى سورية .

## تجارة كاف وأثري :

ان مدينة ( كاف ) للصغيرة وجاراتها ( آثري ) حيث نحن الآن ، تجارياً ، لها من الاتصال بالشمال أكثر من الجنوب ، لأن ثروتها الأساسية ، - كما هي الحال - تنبع من تجارة الملح مع ( بصرى ) . ويبدو أن عبد الله القاسم ميسور الحال ، لأنه يملك عدة عبيد ، ولديه أكثر من زوجة واحدة . إلا أن الفلوي الذي أشرت اليه هو كل ما يملك من ذوات الأربع ، كان سيأتي معنا ، كما قال ، لو كان له ذلول . ولاحظت بضع جمال وحمير وماعز حول القرية .

وكان مقبول الكريشة ، قد عاد ، ونحن نريد الآن أن نجد شرارياً لياخذنا إلى الجوف .

## بلدة أري :

لقد أتينا إلى ( أري ) ، الواحة التوأم ل ( كاف ) ، على بعد ساعتين ونصف إلى الشرق منها ، في وادي السرحان أيضا . وهذه ليست مثبتة على كثير من الخرائط الحديثة ولو أن ( شفي ) وضعها على خريطة بطريقة خاطئة . ولقد وجدنا على طريق ( البارومتر ) أنها يقمان على نفس المستوى وهكذا يبدو أن ظننا أن وادي السرحان ليس له منحدرات قد تأيد .

## وادي السرحان :

أن وادي السرحان منخفض فرضوي غريب ، من المحتمل أنه قاع لبحر قديم مثل البحر الميت ، وهو هنا ذو اثني عشر ميلا عرضا ، إذا كان لنا أن نحكم بالتلال التي فراها خلفه ، والتي هي بدون شك المرتفعات المقابلة للحوض .

وتوجد آبار عديدة هنا وفي ( كاف ) ، وهي عريضة وضحلة ، لأن الماء على عمق ٨ أقدام فقط من سطح الأرض . ومن هذه تسقى بساتين النخيل . وتوجد أيضا آبار في الخارج ، وكلها تقع على نفس المستوى ، والماء صالح للشرب ، وغير ممتاز بأية حال . عبرنا بحيرة مالحة واسعة ، وهي الآن جافة ، ومنها يجمع الملح للقوافل .

## محمد الدليل وعرافة هسبه :١١:

وفي طريقنا سلافا محمد بحكايات عن مولده وأملانه .

وقد سمع أهل ( كاف ) بـ ( ابن عروج ) .

وأخبروا عمداً أنه سجد أقرباء في أجزاء كثيرة من بلاد العرب علاوة على ( الجوف ) ويقولون أن هناك شخصاً ما في بريدة ، وأحد ( آل حميدي ) الذي سمع عنه محمد كأحد أبناء عمومته . وزوجة الشيخ هنا في ( أري ) من عائلة الجوف .  
وفي الواقع يبدو أن كل شيء يسير نغماً كما توقعنا .

## وصف بلدة أري ... وآثارها

و ( أري ) هي أيضاً محل أصغر من ( كاف ) إلا أنها تقع بالبنية القديمة ، القلعة الصغيرة في داخل الأسوار ، هيء ما على طراز بيوت ( هارون الرشيد ) . وهذه مبنية بحجارة سود ، حنة التريبع منتظمة الوضع ، بدلاً من الطين ، المادة العربية الشائعة في البناء .

وعلى حتبة المدخل توجد ، أو بالأحرى كان يوجد ،

كتابة بحروف قديمة ، ربما حميرية ، التي كنا سننقلها لو  
 أنها كانت واضحة ، ولكن الجو قد كاد يحوها (١)  
 وهنا ما نحن قد أضافنا ( جروان ) وهو شاب عديم  
 الترتيب بنصف ذكاه ، وله شعر طويل في جدائل ،  
 ووجه أشبه بكلب ( اسكونلندي ) ، وهو ابن مرزوقة ابنة  
 عم محمد ذاته . ومع أنه لا شيء فيه يدعو إلى التفخر به  
 كقريب ، فانا نجلده مضيفاً لطيفاً يقطاً . وأمه امرأة ذكية  
 وكريمة الأصل ، وانه ليبدو غريباً أن يكون لها ولد بهذه  
 الضعة وأبناؤها الثلاثة الآخرون ( جروان وهو أكبر اربعة )  
 لهم ذكاؤهم مثل سائر الناس ، ولكنهم موضوعون في الحلفية  
 وجمامت (مرزوقة) لتراخي الآن بطبق كبير من التمر في يدها ،  
 ونوقعت لتتحدث . ان وجهها ما زال جذاباً ، ولا بد أنها  
 كانت جميلة إلى حد كبير . وألاحظ أنها تلبس عدداً من الحواتم  
 الفضية كخواتم الزواج .

ونخبرنا (مرزوقة) اننا من بعد كثيرين من اقرباء ( ابن عروج )  
 في الجوف . وهي نفسها غادرتها صغيرة ، هي تتحدث عنها  
 كفردوس ارضي ، من حيث انتزعت لتعيش في هذه الواحة  
 الصغيرة النعيسة ، وحقاً أن ( أروي ) مكان بانس كل شيء  
 فيها ما عدا بستان جروان ، وبعد مشية في بستان التخييل ،

---

(١) أخبرنا أن هذه الكتابة ذات صلة بكثز مشور وهو رم شائع بين  
 العرب الذين لا يستطيعون القراءة (الأصل) .



منعني عمرَ جدي من الانضمام ، وحلستنا جميعاً إلى عشاء طيب  
 مكون من خروف وخبز لويدي - وللغسب مذاق كالنظام  
 المتأثر - قام بتقديمه لنا جروان بشخصه ، وهو واقف ، طعناً  
 للأسلوب العربي عندما يأكل الضيوف ، وتلاحظه أمه بعناية ،  
 وتخبره ما يجب أن يفعل ، ومن الواضح ، ولو أن لديه من  
 الحس ما يجعله قليل الكلام أنه ينظر إليه كمن ( لا وزن له )  
 في العائلة ، ويصف ( ولفرد ) المشية في البستان بأنها متمعة  
 نوعاً ما ، فعمد وعبد الله يلفيان خطباً طويلة ثناء على كل ما  
 رأيا ، وبحكيان لرئيس رجال جروان قصصاً خارقة عن أبيه  
 ( قدمر ) وقوتها .

وبستان جروان ، الوحيد في أثري ، يحتوي على ١٠٠  
 نخلة ، كثير منها مفروس حديثاً ، ولا يوجد فيها شجرة يزيد  
 عمرها عن ٢٥ سنة . وكان من بينها نخلة من صنف ( الخلوة ) ،  
 نمر الجوف الحلو ، استوردت من هناك ، واعتبرت هنا من النوع  
 العظيم النادرة . وفي هذه النقطة كان هناك لويدي حار بالاعجاب  
 ( كورس ) . وبأن اعجاب شديد بشجرات الانل أيضاً . وهي  
 نرسي من أجل الأخشاب ، وتنبثق من الارومة حين تقلم ،  
 وست سنوات من النمو يحطها على ارتفاع عشرين قدماً .

## بين القرى والجوف

وصل رجلان من ( الجوف ) بأخبار سارة ، وهي أن

كل شيء على ما يرام بين هذا المكان وبين الجوف ، أي أنه ليس هناك عرب بعد في وادي السرحان ، سارة لأنه لم يكن هنا لدينا مقدمات ، وأي لقاء ربما كان غير مقبول . لقد تأخر الموسم كثيراً والمرعى سيء جداً . بحيث أن الرادي قد هجر منذ الربيع الماضي . لن يكون هناك الآن طريق ، أو أثر من أي نوع ، وبما أن المسافة مائتا ميل على الأقل إلى الجوف ، فيجب أن يكون معنا دليل ليرينا الأبار . وشخص كهذا وجدناه في بسدوي صغير منظره مضحك شراري ، صادفناه هنا ، وهو سينهب معنا مقابل عشرة مجديات .

٢٩ ديسمبر ( ١٨٧٩ )

كانت هناك ربيع شرقية حادة تهب حيناً ابتداءً هذا الصباح ، ولاحظت زقزاقا كطائر بري في البحر ، بطير هنا وهناك تحت روضة من أشجار النخيل ، ينظر بلا أمل ، متعباً برحلته الطويلة . ياللكين !! سموت هنا ، لأنه لا شيء هناك يأكله الطائر في أي مكان مئات الأميال . من المؤكد أنه قد طرح به بعيداً عن منطقته ، ربما من الفرات !!

## على ضفة وادي السرحان

ان طريقنا اليوم يمتد على طول حافة الوادي ، نعبأ أحياء رؤوساً صخرية من السهل الأعلى ، وأحياء أخواراً من الوادي وكانت ارتفاعها دائماً نوعاً ما واحدة ( ٢٢٥٠ ) قدماً علواً

و ( ١٨٥٠ ) انخفاضاً - وهكذا يمكن أن تؤخذ هذه على انها  
الارتفاعات المقابلة ل ( الخناد ) ووادي السرحان . وبالإضافة  
إلى ذلك ، يوجد هنا وهناك تلال منخفضة ، بارتفاع يزيد بما  
يتراوح بين ثلثائة وأربعمائة قدم عن أي منها ، أرض صخرية  
صعبة منكسرة طول اليوم ، مكونة بصفة أساسية من رمال  
مع حصى ملحية منشورة عليها ، والنبات شحيح على الأرض  
المرتفعة ، ولكنه أوفر في التجمعات . وفي هذه متدرجة  
تقود إلى الوادي ، وجدها شجرات ( الغضا ) ، وغير ذلك  
لا شيء أكثر من أعشاب . وهناك أخيراً ( عواد ) انه 'تهب  
منذ سنتين' مجرد بتزو من حوران . فقد جمال وكل ما يملك .  
كان عدد الحورانيين ثمانية وجماعته ستة وسألت: كيف حدث  
أن قطاع الطرق ظفروا به ؟ قال: انه كان ( من الله ) . ويبدو  
ان وادي السرحان هو المكان المفضل لقطاع الطرق ،  
و(عواد) يعتبر الحادثة أمراً عادياً . وسألت : لماذا ترك قبيلتك ،  
شمر ، وجاء ليميش بعيداً في الشمال في ( صلخد ) ؟ قال: انه  
( نصيب ) شيء مقدر ، ان زوجته من ( صلخد ) ، وكانت  
لن تترك قومها . وسألت: كيف يكسب معيشته ؟ فضحك ،  
وقال : ( املك نصف مهر وذلولا ، واقوم بالتزو . ويوجد  
تسعة منا ، من شمر ، في حوران ، ونحن نخرج معاً نحو ( الزرقا )  
أو إلى ( اللجاة ) الغربية ونأخذ المواشي ليل ، أرانا بعض  
ندوب مفزعة بالجروح أصيب بها في هذه المناسبات ، وجمل

( ولنفرد ) ينحس رصاصة لا تزال مستقرة في جنبه . وهو مخلوق يحب للاستطلاع ولكننا نحبه ، وسواء كان قاطع طريق أم لم يكن ، فإن فيه روح الرجل الماجد (الجتلمان) . وفوق ذلك فهو صاحب ملائم ، ويحسن النساء ، وبروي الأقاصيص الشعرية ، وهو محبوب في كل مكان . فقي ( كاف ) و ( أرى ) استقبله الرجال ، شيبا وشبابا ، بالعناق والتقبل ورحبت به النساء في كل بيت .

## آبار قراقرز ..

كادت أجسادنا تتجمد طيلة الصباح ، فقد كانت الريح تنفذ من خلال جيبنا المصنوعة من الفراء . وفي الساعة الثانية عشر والنصف ( ظهراً ) بمد أربع ساعات من السير ، أتينا إلى بعض آبار تسمى ( قراقرز ) ، ست منها في تجويف عار ، وحولها آثار جمال تؤذي من جميع نواحي الدائرة نحوها . ومن الواضح أن الرازي يسكن في بعض أوقات السنة ، ويقول عواد: أن ( الرولة ) تسكنه في الشتاء ، غير أنه لا يوجد أحد هذه السنة . والماء ، شأنه شأن ماء ( كاف ) و ( الري ) ، ضارب إلى الملوحة بعض الشيء .

وبالقرب من ( قراقرز ) رأينا بعض الغزلان وطاردها دون جدوى . واسه لأمر مكدر ، لأنني لست أن أحضر لحماً ، وما لم نستطع أن نقبض أو يرمي نيشاً ما ، فلن يكون لدينا شيء حق نصل إلى ( الحوف ) .

كان ينبغي أن أفكر في الأمر ، لأننا ، وإن كانت المون  
ليست وافرة في ( الرى ) ، كنا ربما في استطاعتنا أن نشترى  
خروفاً ونسوقه معنا ، إن أَلَمَّ عرجي صرف ابتباهي - عن  
ميء ، ولكنه المذر الوحيد . وعندما أركب أعاني ألماً أقل  
من أي وقت آخر .

ها نحن الآن ، منذ الساعة الرابعة ( بعد الظهر ) ،  
نغمون على الرمل تحت أيكة من أشجار اللضا ، وقد توقفت  
الريح ويبدو أنها من هنا تهب دائماً عدا ساعة حوالى الغروب  
وأخرى عن الفجر . وسنتشى لحم بقرة مسلوفاً ، وبرغلا مع  
( صلصة ) كاري ، وحبيباً ، هو آخر مخزوننا من حوران .

٣٠ ديسمبر : ( ١٨٢٩ م )

طول الصباح على مستوى عال ، فوق أرض مثل ( الحرة )  
ذات صخور بركانية ، ربح جنوبية شرقية هوجاء في وجوهنا  
فلم نستطع الكلام ولم نكد نستطيع التفكير ، طريقنا يمتد  
نحو سلسلة من التلال منظرها ( غير كريم ) تسمى ( المسمة )  
( لعلها المرتفعة ) وعندما وصلنا هذه :

## صبر من « الجراد » والدرائب :

اتجهت ( طريقنا ) الى يمينها لأننا نسير في غير طريق ،

رأينا رجلاً من الجراد الأحمر يطير حول المكان ، عندما أدفأت  
 الشمس الأرض ، وطاردها الرجال وصادوا بعضهم منها ما  
 يكفي لصنع طبق العشاء . هذه الحشرات ، عندما تطير ،  
 تبدو شديدة الشبه بذياب مايو الكبير ، من حيث أن لها  
 نفس الطيران القليل الحيلة ، تجرفها الرياح . وقل أن تكون  
 لها قوة كافية للتحكم في الاتجاه حتى تغلب على السمويات .  
 فأحياناً تطير في اتجاه معاكس للجهال ، وأحياناً تسقط بقوة  
 على الشجر حيث يسهل القبض عليها . وحين تستقر على الأرض  
 بصعب ، على أية حال ، أن تراها ، وتظل بقطة وتنتظ ثم  
 تنساب مبتعدة مرة أخرى حين تقترب منها . ويبدو أن لها  
 إحساساً أكثر مما لها من قوة على الحركة .

وفي الساعة الثانية أتينا إلى آبار أخرى ( المشوية )<sup>(١)</sup>  
 ومعظمها تخففها الرمال ، غير أن واحدة تحتوي  
 على كميات كافية من المياه الضاربة الى الملوحة . وتقع هذه الآبار  
 وسط أدغال من الاثل ، من حيث أفزعنا عدداً من الأرانب  
 البرية التي لم نستطع كلابنا اللوقية أن تقبض عليها ، لأنها  
 كانت دائماً تتملص بحيلة لثختي . وانتظروا - ( ولترد ) وأنا -  
 لهذا القنص غير المثمر الذي كان عشاؤنا يعتمد عليه . ولم ننضم  
 الى بقية الجماعة مسافة أكثر من ميل . وقبل أن نلتحق بهم

(١) فيها الى صفة ( التوجة والمسة ) الأخ سيف بن زيدان الشكري  
 لله الشكر . ( المترجم )

صادقنا ( حنا ) يجلس على هدومه ( لحاف وعباءة ) وإبراهيم يقف بجانبه ، وكلاهما يصيح : « واه ، واه ، واه ، واه » ولم نستطع أن ندرك ما حدث ، كما لم نقدر أن نحصل أية معلومات منها ، سوى انها كانا سيقيبان حيث كانا . هذان الرجلان من أهل المدينة يجلسان على فرشهما وحيدين في وادي السرحان ، كانا يمثلان مشهداً للعبث بشكل لم نتمالك ، في تلك اللحظة ، من التقلب على الضحك ، إلا ان المسألة لم تكن مسألة ضحك ، وكان من المستحيل ، بالطبع ، أن نتركها هناك ، فأصررنا على أن نحصل على ايضاح . لقد كان هناك خصام بين ( حنا ) و ( عبد الله ) لأن الأخير ساق ذلول ( حنا ) بسرعة مع الجمال الأخرى ، ورفض أن يتركها تنسخ ثم تنهض من جديد وكان عواد وعبدالله في عجلة جديدة ليبعدا عن ( المؤنثة ) قدر الامكان ، لأن ( حمدان الشراري ) يقول انها بقعة خطيرة ولكن ( حنا ) كان غاضباً ، وفي غضبه رمى عباؤه ، وقفز عليها ، وسحب فراشه على أثره ، وجلس على الأرض ، وهناك تركه الآخرون ، معمولاً هائجاً . وعلى هذه الحالة وجدناه . واقترح ان يترك هو و ( إبراهيم ) هناك ليأكلها الضبع ، الذي قد شاهدنا آثار أقدامه . وعلى أي ، فإبراهيم ، الذي بقي معه فقط لمصاحبتة ، كان مستعداً تماماً لمواصلة السير ، وعند رؤية ذلك لم يتوان ( حنا ) عن النهوض ، وتبعنا ذركا أخاه يحمل عنه فراشه . ولم يكن من الصالح أن نستفسر عن كان الخطيء ومن المصيب ، وأوقفنا الجمال ، وأعدنا الذلول ملحين

على ( حنا ) أن يركب ، وهو ما فعله بعد مقاومة . وانتهت  
 الحادثة . وكلف محمد بهمة الاصرار على السلم مع العرب ونظن  
 أننا حملنا حنا على الاقتناع بالآلا يحمل ضفينة . انه من المستحيل على  
 الاطلاق على أي واحد أن يعود الآن بدون أن يفقد حياته ،  
 واني لوائقة انهم جميعاً سيكونون معقولين . انه من غير المقبول  
 أن نفكر ان خلافاً حدث في جماعتنا الصغيرة ، وهي على  
 حالتها هذه منفصلة عن بقية العالم الآن . نحن الآن غيمون في  
 واد جانبي حيث كلأ الجمال طيب . رأينا المكان من مسافة  
 كبيرة ، لأننا الآن اصبحنا ماهرين في إمكان تخمين البقاع  
 فعين ترى أرضاً صحرية في خطوط يتكك أن تتأكد من  
 وجود كلأ . لم نر مؤخرأ أية أماراة للعمران في البلاد منذ أن  
 تركنا ( أفرى ) ، ولا آثار خف جبل ، ولا قدم انسان .

ان الجراد المشوية صالح للاكل !!

## في بطن وادي السرحان :

٣١ ديسمبر ( ١٨٧٩ م ) :

يوم طويل آخر من السير ، وها نحن في نهاية العام في مكان  
 من اكثر اماكن العالم إقفاراً . كان البرد شديداً جداً ليلة أمس  
 للدرجة أن جميع الجراد ميت انه طربيع في كل مكان .  
 ذاكه طيور الصحراء والقبرات والابالق . المحدثنا مرة أخرى



الى القرار الرئيسى لوادي السرحان ، وهو لا يزال على نفس  
 المستوى كما كان من قبل ، وهو هنا منطوح تقريباً ، ومنطوى  
 بأعذاق من اليهق وأعشاب أخرى ، وكلها مألوفة المذاق ،  
 والتربة سهلة التفتت وغير مكينة ، وبياض في أماكن بفعل  
 ملح البارود ( نترات البوتاس ) وبصرح عواد والشراري انه  
 توجد رمال متحركة نكرة ( تحضوَضى ، حرفياً ، هاوية ) ، في  
 مكان ما مجاور ، حيث يسوخ أي شيء يمر عليها ويختفي دون  
 أن يترك أثراً : رجال ، جمال ، وغزلان ، غير أننا لم نر شيئاً  
 من هذا .

## سير مع خروف وهذر :

ولما سرنا مخاضين حافة الوادي ، قابلنا فجأة بعض الغزلان  
 التي قادتنا الى أرض أعلى ، حيث وجدنا قفراً صخرياً من نمط  
 ( الحرة ) ، وبين الصخور رأينا ضباً يسمى الهوبنا . ولم  
 نحصل على شيء على أية حال ، لا عليه ولا على الغزلان ، وما  
 نحن لا نزال من غير لحم . ولم تحدث مصادفة أخرى حتى أتينا  
 الى نخلة تكف وحيدة في مكان مكشوف . مكان يسمى  
 وُسَيْط ( ؟ ) ، وبالقرب منها يوجد نبع ساحر صغير ، بين  
 جذور أيكة كثيفة من النخيل ( مكان يدعى قدير ؟ )  
 واتسع الفتحة حوالي ثلاثة أقدام ، وعمقها قدمان ، وعمق

الماء فيها حوالي قدم واحد . ويرتفع الماء من جديد بمجرد أن يؤخذ ، ولكنه لا يفيض قط . وتوجد آثار أقدام ضباع وغزلان حول المكان ، وهذا ، فيها افترض ، هو المكان الذي إليه تأتي حيوانات الصحراء للشرب ، لأنه الماء الوحيد على السطح الذي رأيناه حتى الآن. ويسمى هذا النبع «مبصر ؟» بقعة سارة حيث كنا نحب لو خيمنا ، ولكنه من الخطر دائما أن نقف بالقرب من ماء ، خوفاً من يأتي ثامس .

ويقول عواد : أن هناك رواية عن مدينة أو قرية وجدت هنا في السالف ولكن ليس من خرائب ترى . والماء عذب وطيب ، كما يمكن أن يدرك من الحشرات التي تسبح فيه . إن العرب يميزون طيبة الماء بهذه الطريقة. لا شيء في الصحراء أكثر رغبة من الماء الكامل الصفاء ، خال من الحياة الحيوانية

## في هروء الليل ♦♦

وعلى أنغام من من قبيلة الشرارات ١١

نحن الآن نخيمون تحت حرف منخفض يحوف في شكل كهوف كما لو كان بفعل الماء ، مقاربات رئيسية للضباع. وهناك مشهد جبل يشرف الى الحلف على نلال ( مزمة ؟ )

( لعلها مرتفعة ) الليل هاديء وبارد ، ولكننا لا نحب أن نصوم كثيراً من النيران خوفاً من الأعداء . وحمدان ، دليلنا الشراري ، وهو مخلوق فظ ، متوحش ، تنتظر إليه ، كان ينشد أقصوصة شعرية حمية جداً ، ويخبرنا أنه هو نفسه ناظمها . وهي في أدوار كل منها مكونة من أربعة سطور ، مع تماقب في القوافي ، وتتملق بمحادثة حدثت في عائلته ، وعندما كان ينشدها كان بقية العرب يرجعون ، مرددين دائماً الكلمة الأخيرة في البيت بقطع التنقية ، وكان لها تأثير طيب . كانت القصة بسيطة ، وتقص كيف أن أم حمدان وأخيه لمخاضتها ، وكيف أنها رفعتا هومها أمام عبيد بن رشيد في حائل ، وكيف أن الشيخ المجور سوى القضية بأن لف حلا حول عنق الابنة أمراً الأم أن تمسك به ، وأن تفعل ذلك بقية أيامها . وحين قبلت الابنة أمها صرفها عبيد بهدايا ، دول ، وعبادة لكل واحدة منها ، ومائة صاع من البر ، هدية استمر في تقديمها لها كل عام إلى أن مات ، ولا يزال يقدمها الآن ابن أخيه محمد ، حاكم جبل سمر الحاضر . وقدم لنا حمدان أيضاً تقريراً مثيراً للانباه عن سياسة حائل ، ويكاد يتفق مع ما تذكره من تقرير (بلجريف) <sup>(١)</sup> ، مواصلاً ذلك إلى تاريخ

---

(١) هو : وليم جيلرد بلجريف . قام في سنة ١٨٦٢ برحلة إلى بلاد العرب . بدأها من «معان» في شهر حزيران . ماراً بوادي السرحاب ، فالجوف ، فنجنة ، لمدينة حائل حيث وصلها في شهر غوز ابن حكم طلال بن —

متأخر . وابن رشيد الحاضر ليس بأية حال تلك الشخصية  
 المحبوبة بنفس درجة أخيه طلال ، وتقرير حمدان عن حرقه  
 مفزع نوعاً ما ، ويظهر أنه قد أذاق الموت نحواً من ١٢ شخصاً  
 ( درزن ) من أقربائه ، وهو مخوف في ضمير أكثر منه محبوا ،  
 وهذا مزعج جداً ، لأنه قد يكون سبباً لأن لا نذهب الى نجد  
 بعد كل شيء . ولكننا سنسمع أكثر عندما نصل الى الجوف .  
 وإنشاد حمدان كان ، بالقدر الذي استطعت كتابة الجزء  
 الموسيقي منه مثل هذا :

( صورة النوبة الموسيقية على صفحة ٩٩ من المجلد الأول من  
 الأصل الانجليزي ) .

## طعام قليل ولحم صيد ..

اول يناير ١٨٨٠ :

صقيع أسود ، ولكنه هادئ . لقد غيّرنا طريقنا ، وكان  
 اتجاهنا طول اليوم في اتجاه الجنوب تقريباً - ٢٥ ميلاً بقدر

---

عبدالله بن رشيد الحاكم الثاني في الأسرة الرشيدية (من سنة ١٢٦٣ الى سنة  
 ١٢٨٥ ) واجتمع به وبعض عبيد الرشيد .

وقد أورد في رحلته معلومات مهمة عن مشاهداته في مدينة حائل ؛  
 ثم مار حتى بلغ مدينة الرياض وبعد اقامته فيها مدة . هرب خلسة ، ثم  
 سار الى الاحساء فالقطيف ، ومنها أبحر الى سواحل الخليج .  
 ورحلته مطبوعة .

ما نستطيع حاسب ذلك بالقرب - وفي وسط وادي  
 المرحان ، سهل مستوي من الرمل والحصى ، مع رواب من  
 الرمل الابيض النقي هنا وهناك مغطاة بالفضا . خطتنا أن  
 ننهض ونطلع خيامنا في أول ومضة للفجر ، ونشرب فنجان  
 قهوة ، ونأكل بسكويتنا أو بلساطا ( كملك ) ثم نمشي حتى  
 الثالثة أو الرابعة بعد الظهر بدون توقف حتى ولا لحظة ، ونأكل  
 ست تمرات ، وشيئا من البقساط ولحم نسير . ثم بمجرد وقوفنا  
 وقبل أن نضرب الخيام نوقد ناراً ونضع قهوة ، نصبرنا حتى  
 يكون العشاء معداً حوالى مضيئ الشمس . انه لمدمش كيف  
 أن طعاماً قليلاً يمكن للمرء أن يعتمد عليه وهو مسافر . لم  
 نتناول لحماً مدة الاربعة الالام الماضية الى اليوم . فقط مرق  
 لحم بقري ، وبرغل . وتمر ، مع بصل مشوي أحيانا ، أو  
 دقيق مخلوط بمسحوق ( السكر ) والزبدة . يخز في هيئة  
 كملك ( كليجا ) وهذا الأخير طيب جداً ومهل الصنع . وعلى  
 أية حال ، فإننا اليوم في رخاء حيث ان الكلاب طاردت أربابنا  
 برئاً ، فصطدناه . والأرنب الصحراوي أكبر قليلاً من الأرنب  
 الكبير ، وهو كثير جداً لواحد : ولا يكفي لاثنتين ، غير أن  
 محمداً يتنازل بشهامة عن نصيبه ، ويقول انه يستطيع أن  
 يتنقثر

## من هجيات « محمد » الدليل ..

ان محمداً يعمل على تخفيف نزاع شب هذا المساء على اختيار مكان الخيم ، بأن يحكي لنا بعض قصص منامراته في الصحراء ، ونحن نلحكي له قصصنا . كان له اخ أصغر ، وكانت امه شديدة الكلف به ، طفل عادي من المدينة ذو « وجه ابيض كفناء » عرف القراءة ، والكتابة ، ولم يعرف شيئاً عن الصحراء ( محمد نفسه ، .... ، كان دائماً جمالا ) . والآن في تدمر يتور الثقال والخسومات بينهم باستمرار من اجل الشياخة ، وفي مناسبة من هذه المناسبات ارسل ابواه اخاه إلى السفينة ، اتقوية المجاورة ، على بعد حوالي ٣٠ ميلاً من تدمر ، وهناك اقام بعض الوقت مع قريب . واخيراً ، مل ، على اية حال ، من البقاء بعيداً عن وطنه ، واراد ان يرى امه . فخرج مع غلام اخر ( من ١٠ إلى خمسة عشر سنة ) ليسيرا عائدين إلى تدمر . وكان ذلك في منتصف الصيف ، وضلا طريقهما وهاما بعيداً حق حماد حيث مائة من العطش . وخرج محمد يبحث عنها ، فوجدهما مينين متلاصقين .

وفي مناسبة اخرى كان لمحمد نفسه لقاء مع الموت تقريباً فقد سار وحيداً إلى القرنتين ، ووقع في غزو لقطاع الطرق من التلال . وجرده هؤلاء من كل شيء باستثناء قميصه

وطربوشه . إما بندقينه فقد دبر ان يخفيها في حرج ، ولكنهم لم يتركوا له أي شيء آخر ، لا طعام ولا ماء ، وكان ذلك في منتصف الصيف . وكانت القريتين ، اقرب مكان ، على بعد حوالي ٤٠ ميلا . وكان مصابا بالعرج من ضربة تلقاها . وعلى أية حال ، اتجه بعد ذهاب النصوص ، في ذلك الاتجاه وتحامل على مواصلة السير حتى الليل واليوم التالي إلى ان وصل إلى خرابة تسمى قصر الاخضر ، سقط فاقد الاحساس في الظل ، وتعدد ٢٤ ساعة غير قادر على الحركة ، يعاني سكرات الموت من العطش . واخيراً ، حينما قال لنفسه : « الآن سيكون على ان أموت » مرت جماعة من الجمالين ووجدوه طربوشا هناك . وفي البداية ظنوه عبدا ، لأن الشمس قد حولته إلى اسود ، وكان لسانه جافا فلم يستطيع الكلام . ولحسن الحظ ، عرفه واحد من الجماعة ، وعندئذ اعطوه ماء . وكان ما زال غير قادر على ان يتنفس عن نفسه ، ولكنهم وضعوه على حمار واحضروه معهم إلى قنصر .

وكانت قصتنا هي خصامنا مع ( أبو نجاد ) واندفاعنا من العقبة الى غزة ، حينما كدنا نهلك من العطش .

## برد شديداً يسبب مرضاً

كان العام سيئاً بداية رتاء ، لولا البرد الشديد الذي أصيب به ( ولغرد ) . لقد فقد صوته .

٢ يناير : (١٨٨٠م).

صقيع شديد - الماء متجمد في الدلو . وصلنا (أبار شيبا؟) في الثامنة والنصف ، وسبقنا الجمال - ملوحة الماء شديدة - المستوى طبقا للبارومتر الجاف ٩٥٠ العمق حتى سطح الماء ١٢ قدماً . أتينا إلى ما يشبه الدرب ، جزءاً من الباخ ، إلا أن من الواضح غير مضرووق كثيراً .

في الساعة الواحدة ( بعد الظهيرة ) شيبا إلى بئر آحر ، بالقرب من صخرة غريبة ، حسبناها في البداية قلعة

## «النك» أبو قصر، وبئر (الجراري)

لقد عبرنا الآن الوادي وما نحن على ضفته الغربية . مررنا ببית خرب ، ليس ذا قيمة أثرية كبيرة ، يسمى (النك أبو قصر) بئر أخرى بالقرب منه ، وفي الساعة الرابعة والنصف خيمنا تحت تلال رملية ، تتوجها الفضا . بقعة مهجدة ليست بعيدة عن بئر رابعة تسمى بئر الجراري - المستوى طبقاً للبارومتر ١٨٤٠ . استعاد (ولمرد) صوته لكنه ما زال يعاني برداً خبيثاً . وأنا ما زلت عرجاء كما كنت ، ولو أن الألم قد قل . وأني لا أظن أحياناً أنني لن استعيد قدرتي على المشي .



# هجوم على الكاتبة .. وعلى زوجها

الجمعة ٣ يناير : (١٨٨٠م).

لقد قنا ، بفامرة ، أخيراً ومغامرة غير موفقة ، درس قاس يتعلق بخطر إقامة نجم قرب الأمار ، ابتدأنا مسكرين ، ولكننا عوقنا ساعة كاملة في الجراوي نأخذ ماء ولم نفاذر الأبار حتى الساعة الثامنة تقريباً ثم درنا متجهين نحو الشرق تقريباً نحو الوادي . التربة رمل صافي البياض وكان يصعب السير فيه ، فسرنا متسجلين ، عابرين تموجات بدون أية علامة أخرى غير التلال التي تركناها خلفنا . وهنا وهناك برزت رواوي يكسوها الغضا الى واحدة من هذه هرعنا ، (ولفرد) وأنا، تاركين الجمال خلفنا، نرجلنا وربطنا مهرينا الى الأشجار، حتى يمكننا أن نتمتع ببعض دقائق من الراحة، ونأكل بصيصنا من لقيات منتصف النهار—بيننا لعبت كلابنا السلوقية وطارت بعضها بعضاً في الرمال استهينا نتحدث عن لست أعلم ماذا، حينما مريت بنا الجمال كانت على بعد لا يكاد يبلغ مائتي ياردة أمامنا حينما سمعنا قجأة ، وقعاً ، ينزدد وقعاً على الرمال ، صوتاً يحدثه عدو ، ووثب ( ولفرد ) واقفاً على قدميه ، ونظر حواليه ثم نادى : « اركبي على مهرك هذا غزو ، وعندما زحقت بين الأشجار الى مهري رأيت كوكبة من الفرس مندفعين بأقصى سرعتهن مشرعين رماحهم ، على بعد

لا يبلغ مائتي ياردة . كان ( ولفرد ) راكباً حين تكلم وكان يجب أن أكون كذلك ، لولا ركبتي المروضـة والرمل العميق ، وكل منهما انتهى حينما كنت انهض . وسقطت ، لم يكن هناك وقت للتفكير ، وما كدت أقف يـجهد على قدمي ، حتى كان المدو يقف علينا ، وحتى صرعت بضربة من حرية . ثم احدثوا جميعاً ( ولفرد ) ، الذي انتظرتني وثب بعضهم على الأرض يمسك بعنان مهره . وكانت بندقيتي معه ، وكنت ناوتها له قبيل قليل ، ولكنها غير معمرة ، وكانت بندقيته وسيفه على ذلوله . ولحسن الحظ كانت يرتدي ثياباً ثخينة ( كثيفة ) ، عباـتين أحدهما فوق الأخرى ، ومن تحتهما ثياب انكليزية ، ولذلك لم تؤذ الرماح . وأخيراً تمكن مهاجموه من أخذ البندقية منه وكسرها على رأسه ، مسددين له ثلاث ضربات ، محطمين كرمي البندقية . وبدأت لي المقاومة لا فائدة منها ، فصحت بأقرب فارس : ( انا ذنبك .. انا تحت حمايتك ) ، الشكل المعتاد للتسليم . وعندما سمع ولفرد هذا وظن انه قد لقي ما يكفي من هذه المـارزة غير المتكافئة ، واحد ضد اثني عشر ، رمى بنفسه من فوق المهر .

ونوقف الحيلة ( الفرسان ) ، وقد قبضوا على كلا المهرين ، وما ان جمعوا انفسهم ، حتى بدأوا يسألوننا : من كنا ؟ ومن أين جئنا ؟ اجبنا : انكليز وقادمون من دمشق ، وجمالنا قريبة من هنا . تعالوا معنا وستمعون عنا ، بينما كان هذا يجري ،

واستمر فقط ه دقائق ، شكلت قافلتنا مريما ، وكانت الجمال  
مناخه ، كما استطعنا ان نرى هذا ببساطة من حيث كنا .  
وما كدت اتوقع ان يفعل الفرسان ما طلبنا ، ولكن الرجل  
الذي ظهر انه عقيدهم تركنا في الحال نسير ( وهو عمل يسبب  
لي الماحدا ) ، وثبنا مع الآخرين إلى الثغافة . رجدا محمدا  
وبقية جماعتنا ، متحصنين خلف الجمال ومصوبين بنادقهم ،  
وخرج محمد متقدما إلى الامام . وكان أول سؤال : « من  
انتم ؟ » . « رولة .. ابن ضباع » . « والله ؟ تحلفون بالله ؟ »  
« والله الحلف » . « وانت ؟ » « محمد بن عروج من تدمر » .  
« والله ؟ » « والله ! » وهذان الفرنجيان المسافرين معكم ؟  
« والله افرنج ، اصدقاء ابن شعلان » .

## سورة . . بسبب حماية ابن شعلان

وكان كل شيء على ما يرام لقد وقعنا في ايدي اصدقاء .  
كان ابن شعلان ، مضيفنا في العام الماضي ، ملتزما بمجابهتنا ،  
حتى على البعد من الصحراء . ولم يكن أحد من قومه ليجرو  
على التدخل في شؤوننا ، وهو يعلم هذا . وفوق ذلك . فمحمد  
كان تدمريا ، ولذلك لا يقدر ( الرولة ) أن يسيئوا اليه ، لأن  
تدمر تدفع إتاوة لابن شعلان ، وللتدمريين حتى في حمايته ..  
وهكذا ، فبمجرد ما أصبحت الملابس جليية ، صدرت  
الأوامر من رئيس الجماعة إلى أتباعه أن يعيدوا مهرنا ،

والبندقية ، وكل شيء وقع في الهرج . حتى كيس دخان (ولفرد)  
كل شيء استعيد . ونجهم وجه الزميلين الشابين اللذين كانا أخذنا  
المُهرَبَيْن بندقية منارة الحظ السيء في أيهم وجدونا أصدقاء .  
قال : آه يا للمهرين الجلبين والبندقية الجيدة ! ولكن العرب  
ذوو مزاج حسن ، مها كانت أخطاؤهم الأخرى ، وكنا حالياً  
على خير وفاق ، نجلس في حلقة على الرمال ، نأكل نمرأ ،  
وندير أنبوبة السلم لقد كانوا الآن ضيوفنا .

## منا علي حسن معامدة أولئك الاعداء

كان ما جذب اهتمامنا كثير غريب في كل هذا ، هو  
حسن الظن الذي به صدقوا كل كلمة قلناها . لقد تكلمنا  
بالصدق ، ولكن ماذا وثقوا بنا ؟ انهم لم يعرفونا نحن ولا معامدا ،  
ومع ذلك ، فقد أخذوا كلمتنا على أننا أصدقاء ، في حين كان  
يمكنهم بسهولة الاغارة علينا وعلى ممتلكاتنا بدون سؤال . لا  
أحد مطلقاً كان سيسمع عن الأمر ، أو يعرف من كانوا .

وبدوا ان ابن ( الضبعة ) (١) ، الشيخ ، وأصدقاء كانوا  
جماعة صغيرة في طبيعة الجماعة الرئيسية ( للزولة ) . لقد جاءوا  
يستسلمون أماكن الكلاً الممكن توافرها في الوادي ، ورأوا

(١) تقدم ذكره باسم ( ابن ضباع ) ، معروف انه يسر ابن ضيمان  
فيلة الشرارات لا من قبيلة الزولة ، ويدل على هذا ان البلاد كانت تحملها  
ذلك قبيلة الشرارات .

أثراً على الرمال ، فتقبعوا ، راكبين في سرعة حامية ، يلحقوا بنا . كانت مجرد صدفة ، أن وجدونا منفصلين عن بقية القافلة ، وهادوا بمجرد أن رأوة . كل شيء يعتمد على السرعة في هذه المهاجمات ، وقد كان هذا ناجحاً تماماً . أقل تردد من جانبهم ، وكنا نجوئنا بحالنا . وهناك لم يكونوا يستطيعوا أن يمشوا بسوء ، ذلك مع أنهم ١٢ بالنسبة لثانية منا ، لم يكن لديهم إلا حراب ، بينما كان معنا أسلحة نارية . لقد أحببنا منظر هؤلاء ( الرولة ) الفتيان . فبالرغم من سلوكهم الخش ، استطعنا أن نرى فيهم روحاً نبلاء . لقد شعروا بالضرر لاستعمالهم لحراهم ضدي ، والمضاضوا في تقديم الاعتذارات ، لقد شهدوا شخصاً يرتدي عباءة ، ولم يشكوا مطلقاً في أن لا يلبس العباءة رجل . وحققنا أن خطائهم ليس مسألة ناجمة عن المفاجأة ، فانفسهم كانت منقطعة وكان العذر قد أثارهم لدرجة أنهم لم يكونوا ليروا شيئاً سوى موضوع يتعلق برغبتهم - المهرين . وفقد هذين - على أية حال - أخشى ، كاب بالنسبة لهم سبباً لحزن أكبر من تصرفهم الخشن الذي عاملوه به ، حيثما ركبوا مولين ، بعد أن أعطيت التوضيحات وتبذلت الاعتذارات . كان محمد قلقاً ألا يؤخرهم ، معتبراً بفطنة أن نألفنا معهم قد سار بما فيه الكفاية ، وكان من الواضح أن ( عواداً ) كان في قمل مريع . واتوم ان عليه ديوناً كثيرة من الدم مستحقة الاداء ، وانه الى حد ما يخجل من الغرباء . وكان الآخرون أيضاً خاضعين نوعاً ما وصمتين ، وهكذا

ودعنا ابن ضبعة وعر كناه بلهب .

كانت الامهار التنمية لهذا الفوز صغيرة ( مدموكة )  
ونشيطة ، ذات أكتاف طيبة على الخصوص ، ورؤوس رفيعة ،  
ولكنها كانت من النمط البوني ( السيي ) أكثر من أمهارنا  
المنزلة . وكان معظمها كُتِبَت . ورأيت أحدهما مراكوباً  
في اللجام .

## من آثار السهجوم

ولما ذهب ( الرولة ) قارئة ملاحظاتي . فحسنت اولاً جروح  
( ولغرد ) . ولكنها ليست إلا رضوضاً . تلقى الثوب السميك  
الذي يلبسه حول رأسه كل الضربات ، ومع ان كعب البندقية  
عظم تماماً بصلبه وخلافه ، فما زال رأسه سليماً . ولم تستطع  
الرماح ان تخترق ملابسه . أما فيما يتعلق بي ، فارت للضرر  
الوحيد الذي أصبت به هو تجديد اللاتواء الذي كنت مصابة  
به . غير اني لم أستطع تقريباً ان أنسى آلامه في غضبي عليه ،  
باعتباره سبب الغاء القبض علينا . ولولا هذا لربما أمكننا ان  
نعدو مستعدين الى جملتنا ، وان نستقبل العدو بأسلوب آخر  
تماماً . وصلت فيما اذا كنت قد خفت ، ولكن الواقع انه في  
البداية لم يكن هناك وقت ، وبعد ذلك ابتلع الغضب كل  
احساس آخر . ويقول ولغرد غير اني لا أصدق - : انه احس  
بالخوف ، وكان على وشك ان يهرب ويتركني ، ولكنه بقي

بعد التفكير . وتبدو المسألة الآن ، وهي متينة ، أكثر  
ارعباً ، وقد يكون أمراً طبيعياً .

أما بالنسبة للآخرين ، فحمد مطاطية الرأس بشكل  
مربع ، بسبب عدم قيامه بمصيب بطولي في العملية . وكانت  
الموقف الدفاعي المحض للقافلة حصيناً بدون شك ، غير أنه  
بدا لا يتناسب تماماً مع المثل الأعلى للفروسية التي يعترف بها  
حمد دائماً . ويستمر في تأليب نفسه ، ولكتنا نخبره أنه فعل  
عين الصواب . كان ، بكل تأكيد ، خطأنا أننا فوجئنا بهذه  
الطريقة . ولو أن عدو ، كما كان محتملاً أن يكون ، كنوا  
حقاً قطاع طريق وخارجين على القانون ، فإن سلامتنا كانت  
تعتمد على احتفاظنا بالقافلة سليمة كقلعة لنعود إليها بعد أن  
نكون قد نهينا . فلو أنهم هرعوا في فوضى لمساعدتنا كانت  
سيعرض القافلة للهزيمة ، التي كنت لن نعنى في منطقة مقفرة  
ك هذه ، شيئاً أقل من الموت برداً ومسخة .

حقاً قد يكون مموبين أن الأمور لم تكن أسوأ . لن  
أزجّل أبداً ما دمت عرجاء ، ولن أربط حصاني إلى شجرة  
ما حييت .

ويبدو أن بذوراً كثيرة من الأغنام بذرت من قبل المشاهدين  
أثناء الواقعة ، وهكذا ستكون عندنا وليعة في الجوف - إذا  
وصلنا هناك .

كل شيء هادئ الآن ، وحمدان الترابي يغني غراميات

شاب وعذراء فرق بينهما المفسدون ، ودبروا فيها بعد استمرار  
وصالهما بربط اشارتها الاصطلاحية (من الحرق والورق والعظام) .  
في الماعز حين تخرج هذه الى المراعي .

## في الحماد : بين وادي السرحان والجوف

٤ يناير ، ( ١٨٨٠ م ) .

لم يكن هناك تلوذ هذا الصباح ، فكل واحد قد أصبح  
جاداً ، وانطلقنا في الساعة ، وواصل السير ثلاثين ميلاً بدون  
توقف ، بسرعة ثلاثة أميال ونصف في الساعة . لقد تركنا  
وادي السرحان نهائياً ، وها نحن نسير ( الحماد ) إلى الجوف .  
لا ماء يوجد في هذه الطريق ، ولكنه أقل عرضة للعزوف .  
وكانت التربة حصبة خفيفة ، قل أن يوجد فيها نبات أو عدم  
استواء يعمق خطوط الجبال . وأتينا في الساعة الواحدة ( ظهراً )  
في بعض تلال من لصغور الرملية ( يفضيها الحديد ) ، وهي  
بداية الأرض المتكسرة ، التي تقوم فيها الجوف ، كما يقولون .  
لقد كنا سير صعداً بالتدريج طول اليوم ، وحين وصلنا ذلك  
أعلى نقطة على طريقنا ، سجل ( البارومتر ) ٢٦٦٠ قدماً .  
وجدنا هنا عدداً من الحفر ، تستعمل ، كما أوضح حمدان ، لجمع  
وتنقية السمك<sup>(١)</sup> ، وهو حب صغير أحمر يسمى وحشياً ( شيطاني )

( ١ ) السمك : نوع من السمك بؤك . ويسميه بعضهم ( البيسة ) .



في هذا الجزء من الصحراء ، ويستعمل أهل الجوف كطعام .

وبعد قليل أبصرنا رجدين على ذلول ، أول من رأينا من الناس عدا لغزو ، منذ أن تركنا ( كوف ) وعدا ( ولغرد ) ومحمد لبريا هذا يكونان ، وأطلق محمد عدة أعيرة بارية ليكفر عن جوده ، كما افترض ، في المناسبة الأخيرة ، ويصح في أفترعها وإطارة صوابها . كانا رجلين في غابة القفر ، يرتديان قمصان دالية ، وكان معها قربة من التمر في أحد جانبي الخيل وقربة من الماء في الجانب الآخر . قالوا إنها خرجا بحثاً عن رجل ظن في وادي السرحان أحد الرجال الذين أرسلهم ابن رشد إلى كوف من أجل الأثارة . لقد أخذ مريضاً ، وقد فزع حلف رفاقه ، ولم يره أحد منذ ذلك الحين . وقد أرسلها حاكم الجوف لبيعها عنه . وقالوا : إنا كنا على بعد بضعة ساعات من المدينة فقط .

وفي نفس الوقت ، بقيا مع جمالتا نسمع إلى ملاحظات عواد وحمدان ، يقتلها حب الاستطلاع عن ( الزنوج ) من الخوف . وأخيراً لم يعد في مقدرة عواد أن ينتظر ، ورجد حمدان أن يذهب معه . وقفز الاثنان من فوق جملتيهما وانطلقا يجران بأقصى ما يستطيعان لبقايا الخوفيين ، اللذين كانا في هذا الوقت قد قدما في طريقهما ، بينما كان ( ولغرد ) ومحمد عاندين . ومد ولغرد عند عودته إلى حفنة من أحسن التمر

الذي ذقته في حياتي<sup>(١)</sup>، كان الرجلان قد أعطياه إياه. وعاد عواد والشراري الآن بلا تمر، بل بقدر كبير من القيل والقال عن الجوف.

نحن نعيمون هذا المساء بالقرب من بعض التلال المعجبية من الصخور الرملية، الحمراء، والصفراء، والارجوانية، تكوين مشابه تماماً لأجزاء من شبه جزيرة سيناء. وهناك منظر فخم إلى الجنوب، ونستطيع أن نرى في البعد خطاً أزرق من التلال (جبال الطويل)، وهي كما يخبرون خلف الجوف في طرف النفود.

## الدليل الشراري يتحدث عن قبيلته

لقد ظللنا نأل حمدان عن قبيلته، الشرارات، وقدم ما يأتي باعتباره البطون الرئيسية<sup>(٢)</sup>:

المهيرة... الشيخ الحاوي.

الحلية... الشيخ ابن حديجة.

الجبالي... الشيخ زيد الورددي.

---

(١) هو النوع المعروف بالمهيرة (حالة الجوف وبلغاء).

(٢) التحريف واضح في هذه المعلومات وقد تعود ال لصحيحها بمعرفة القراء الكرام.

الشمات ... الشيخ فتح الله الدندة

وليس للشرارات خبول، ولكثهم يربون أرفع أنواع الهجن  
في بلاد العرب . وأحسن قصيدة تسمى ( بنات عدهان )<sup>(١)</sup>  
وبلت عدهان ، كما يقال ، لو ابتدأت من حيث نحن الآن عند  
المغرب ، لكنت في الفد . عند الشروق في ( كاف ) ، مسافة  
تقدر بمائة وعشرين ميلاً .

منذ مدة ليست بالطويلة سرق لص ذلولاً شرارية في  
( المزاويب ) ، وركبها إلى حائل في سبعة أيام بلياليهن .

## الوصول الى الجوف

٥ يناير : ( ١٨٨٠ م ) .

ركوب طويل متعب مسافة ميلين ، متوقفين دائماً أت  
نرى الجوف ، ودائماً نصاب بالحيرة . والسطح مكسر الى  
تلال وسلاسل رائعة ، ولكن على مستوى ارتفاع أدنى من  
الأمس ، في الحقيقة ظللنا في المنحدر طول اليوم ، وبين اونة  
وأخرى كنا نلمح وادي السرحان في البعيد إلى اليمين ، مع  
تلال زرق خلفه ، ولكن بدا أمامنا متوالية لامتناهية من

(١) عدهان عمل مشهور عند قنارات ، وهم يلبسون الابل قنحية اليه  
فيولون ( مر ساس عدهان نسل هيمية ) .

السلاسل الصخرية وفي النهاية من قمة واحدة من هذه ، أصبح  
خط أسود ممكن الرؤية ، ينتصب بسواده ، مواجهاً القنوبش  
الاصفر تكونه تلال من الصخور الرملية ووديان حديدية ، عرفنا  
انها يجب أن تكون قلعة مارد . ولقد بدت ، حقاً ، حصناً  
برحي بالجلال والهيبة ولو أنها موحشة بشكن كاف في  
وسط هذا القفر . ونحو هذا اندفعنا رغبة في منظر أقرب ثم  
جئنا الى طريق طبيعي مرتفع من صخور بيضاء ، أكد كل  
من عواد وحمدان انها استمرار للطريق الرومان الى (صلخد) .  
كنا حريين أن نصدق هذا ، غير أنه كان واضحاً جداً أن  
الطريق صنعتها الطبيعة وعلى طول هذه ، سافرنا بمضاً أميال  
حتى اختفت

وفجأة أنبأنا الى ما يشبه طرف حرم ، وهناك بالقرب  
ما الى لاسفل ، امتدت واحة واسعة من النخيل محاطة بسور  
ذي أبراج على مسافات بينها ، ومدينة صغيرة ملتفة حول  
القلعة السوداء .

لقد كنا في الجوف .

## القسم الثاني :

بلاد الجوف [ دومة الجندل ، وسكاكة ]<sup>(١)</sup>

( في هذا الفصل - وهو الجزء السادس من الكتاب - ندم المؤلف وصفاً  
شيفاً لمدينة الجوف ، وسكاكة ، ولغات من الأحرار السياسية في ذلك العهد .  
ورسم - في الفصل السابع ، المضاف الى هذا القسم - صورة واضحة  
لمجتمع السائي في الجوف . حيث اختلطت بكثيرات من النساء ، قائمة بدو  
اخاطبة لئيلها التسمري من محمد آل عروج مرأسرة آل هروج في الجوف ا).

---

(١) سنها الكلبة (سكاكة) وهو تحريف .

ليست الجوف مطلقاً كما توقعنا . كان ظننا أننا سنجد  
 منطقة واسعة عامرة ، ويتحول ذلك لتكون مجرد مدينة  
 صغيرة ، لا شيء هناك على الإطلاق خارج الأسوار سوى بضع  
 بقع مربعة ، كل منها نحو نصف فدان ، محصورة بالحنطة الفتية  
 وتسمى هذه ، من آبار ، وتروى تماماً مثل البساتين داخل  
 الأسوار ، بجاري صغيرة رسمت بعناية في أشكال ، مثل  
 كعك الربى .

## حوض الجوف كان بهراً :

وكل حوض الجوف يحق يكاد يبلغ ثلاثة أميال عرضاً في  
 أوسع نقطة منه ، ويبدو ، وهو كذلك بدون شك ، الحوض  
 الحائلي لبحر داخلي ، أما كيف ، أو متى ، أو لماذا حفر  
 في الأصل ، فأمر فوق طاقتي لأخبر : يستطيع المرء فقط أن  
 يقول مع محمد ، انه ، من الله ، لكن راهين أهل البحري  
 واصحة في كل مكان . ويسر أوطاً من بقية وادي السرحان ،  
 الذي من المحتمل انه يتصل به ، وفي البداية ظننا انه ربما كان  
 آخر التجويف المائي ، عندما كان ، البحر ، حينها حياً .  
 ولكن القضية ليست كذلك في الواقع ، من حيث أن أرضاً  
 جزء منه ، الضيق على مستوى واحد مع جميع تجويفات  
 الوادي .

## آبار الجوف وبساتينها

واباره بين ارتفاع ١٨٠٠ و ١٩٠٠ قدم فوق سطح البحر ، وهي ضحلة ، بضعة أقدام فقط من سطح الأرض ، وينزح الماء بواسطة جمال حجر حبل طويلا ذي دلو ، يفرغ نفسه عندما يصل إلى السطح في ما يشبه الحوض .

## بنيان البلدة ، وسوقها : -

والمدينة ، مع بساتينها ، محاطة بمرور من اللبن ، ارتفاعه عشرة أقدام ، وطولها نحو ميلين من الشمال إلى الجنوب ، ونصف ميل عرضا . وبقيّة السهل تقريبا مسطح موات من الرمل ، مع بقعة هنا وأخرى هناك من الأرض الصلبة ، وصلصال رملي حيث تتجمع المياه عندما ينزل المطر ، ويبقى الملح عندما تجف .

وأبنا 'حفيرت' يشرّ الخلد بستان صغير ، مسيج بجائط ، ومزروع بنخل .

ويوجد حوالي اثني عشر من هذه الحقول القاصية يحتل كل واحد منها حوالي قدانين أو ثلاثة .

وفي مكان واحد يوجد أربعة أو خمسة بيوت بساتينها معها وعا منظر قرية . والحوض بكامله ، باستثناء هذه الواحات ، أبيض يخطف البصر ، وتظهر احراج النخيل كبقع سوداء على سطحه .

والجوف نفسها لا تحتوي على أكثر من ستائة بيت ، وهي كصناديق مربعة من اللبن ، ملتمة ، معظمها ، حول خربة ( مارد ) ، لكن ليس جميعها ، إذ يوجد حوالي مئة منها منفصلة تلتصق في أجزاء مختلفة من الحرج ، وكثير من هذه البيوت لها بوع من الابراج ، أو طابق علوي ، وهناك أبراج صنيعة على مسافات غير منتظمة حول السور الخارجي . انت احدى القسبات الرئيسية للمدينة ، بالإضافة إلى مارد ، هي قلعة جديدة خارج صحن الحصن قاما ، يعيش فيها نائب ابن رشيد وتقع على أرض مرتفعة ، وهي مبنى مؤثر في النفس ، مربع الشكل ، وله أسوار ذات شرفات ، وذات ارتفاع قدره ١٠ قدما ، تتاحها أبراج دائرية ومربعة تستند أطرافها مرتفعة ١٠ قدما على القبة ، وليس لها نوافذ ، بل ثقب للرمي منها ، ولكل برج زوائد تشبه القلوة لنفس الغرض .

وليس في الجوف ما يمكن انت يعتبر سوقا ، ولا حتى شوارع ، كما يفهم المرء عموما من هذه الكلمة ، مجرد عدد من الخطوط المتحرجة ، ذات جدران من اللبن على اجانب

## السكان ، وبعض اهل قهرم

وعندما دخلنا المدينة راكبين وجدنا هذه الخطوط مردحة برجال مسلمين ، جميعهم يحملون سيوفا بالطريقة التي رأيناها في كاف ، مسودي الوجوه ، وغير مسرورين من رؤيتنا ، كما



ظننا . وردوا على تحيئنا ( السلام عليكم ) ببساطة ، وبدون حركة ، وتركوا نمر دون بادرة مميّنة للكرم . ان تفترض أنهم غير مكترئين كان على أبة حال خطأ ، كان برودم البادي مجرد رمميات عربية ، فعندما بدأ محمد يستفهم عن بيت اقربائه ، أشاروا إلى الطريق بكل مدنية ، وجاء معنا واحد أو اثنان منهم وأخذنا باتجاه عدد من المسالك الضيقة ، ومن خلال بساتين النخيل إلى الجانب الآخر من المدينة ، ثم خارج المدينة من خلال بوابة أخرى إلى الحلف إلى أحد الحقول المنعزلة التي رأيناها من المرتفع . وكان قريبا ، على بعد لا يبلغ المبل ، وفي بضع دقائق أخرى رجلنا ، وعمولنا بكرم بالسج في ( قهوة ) حوبسين الايقنة .

## في ضيافة أحمد أقرباء الدليل

أما عن ما هي بالضبط علاقة حوبسين بمحمد ، فلم أستطع بعد اكتشافه - ومحمد نفسه لا يكاد يعرف - غير أنه من الواضح هنا ان أية قرابة عصب مها كانت خفيفة ، تعتبر ذات أهمية عالية .

لم نكد نجلس الى دار حوبسين لواقب تجميع ابن ، حتى وصل قريب آخر ، جذبه نبأ وصولنا ، ثم آخر ، وكلاهما بضجان بالمعاقبة لكوننا قبلنا ضيافة حوبسين لا ضيافتها .

وقبل محمد ، وعونيق ، وكل ما استطاع أن يفعله

لتهدئة هذين القريبين المحروحين هو أن يعد بأن يقيم أسبوعاً عند كل منها بمجرد ما تنتهي زيارتنا لحويسين . حقاً ان الدم هنا قوامه أثقل من قوام الماء . ان الظهور المفاجيء لان العم العشرين يكفي لأن يولد الخصام عند كل أحد .

ذبح خروب ، واستمتع كل واحد منا بغرف الحمام في خيمتنا . ونغير ثام لللباس . ان الحية منصوبة في سنان صغير للنخل خلف المنزل ، ونحن هادئان في سلام ، وفي قدرتنا أن نعيد التفكير في كل ما حدث ، ونضع مشاريعنا من اجل المستقبل .

## دعوة من الحاكم الرشيدي

٦ يناير : (١٨٨٠) .

البارحة ، بينما كنا جالسين نناول القهوة للمرة الثامنة أو العاشرة منذ وصولنا دخل الى القهوة شابان وجلسا . كانا في ملابس زاهية ، تجيب حريرية وقمصان مطرزة تحت عباءتها الصوفية السجابية اللون . وكل منها وضع على رأسه كوفية ( عترة ) حمراء من القطن ، وعقالاً أبيض ، وكانت سيفاهما بقبضين من الفضة وقف كل واحد في ( القهوة ) عند دخولها وظن كلاهما انها ابني الشيخ ، أو من شخصيات الجوف البارزة . ومس ( ول فرد ) سؤال عنها الى حويسين ، الذي ضحك وقال : انها لم يكونا من أبناء الشايخ ولكن زلمات

ابن رشيد ، - ربحال ابن رشيد ، من جنوده ، في الواقع . كانت الكوفية ( الفترة ) الحمراء والسيوف ذو المقبض الفضي ، نوعاً من الزي الرسمي . لقد جاء ، كما اتضح الآن ، من عند دوامس الحاكم بالنيابة في الجوف ، ليدعونا الى القلعة ، ومع اننا كنا آمليين أن نترك بستان حوبين الهادي . وكرمهم اللطيف ، فقد ظننا أن من الحكمة أن نستجيب .

## في قصر الحاكم الرشدي

وبدا انه لا حوبين ولا أي شخص آخر يفكر أنه من الممكن أن نستطيع أن نرفض ، لأن حكومة ابن رشيد مطلقة في الجوف ، ورغبات نائبه بنظر اليها كأوامر ، ولا يبدو أن هناك أي شعور سيء بين الحامية والمدينة .

ويظهر ان الجنود الذين رأينا على وفاتنا مع كل انسان وهم حقاً ذو أرواح مريحة بحيث أنه سوف يكون من الصعب أن تتخاصم معهم . ولكن الجوف محل مقهور ، وفي حالة حصار دائم ، والنظام المحافظ عليه صارم جداً . وعلى ذلك فقد انتقلنا بكل مخيمنا الى أرباض القصر الرسمي ، وها نحن نقيمون تحت أسواره .

ان القصر ، وهو - كما قلت - خارج المدينة قام ببنائه منذ حوالي اثني عشر عاماً ، متعب ابن رشيد ، أخو الأمير

طلال ( صديق المستر بلجريف ) ، ورغم أنه حديث جداً في تشييده ، فله مظهر المصور الوسطى الكامل ، لأن الهندسة المعمارية لا تتغير قط في بلاد العرب .

وهو مبنى بهيج بأبراجه الأربعة في الأركان ، تنخله الثقوب ولكن بدون نوافذ . ويوجد باب واحد فقط ، وذلك صغير في زاوية من زوايا السور ، ويبقى دائماً موصداً . وفي داخله يدور المدخل ويتمرج ، وبعد ذلك يوجد فناء صغير تحيط به أسوار عالية ، و ( قهوة ) ، بالإضافة الى بضعة غرف صغيرة وكلها مظلمة وكثيرة كالجلب .

ها يعيش نائب الحاكم مع ستة جنود شبن من حائل ، الذين يحكمون ويقومون بأعمال الحامية وأعمال الشرطة في الجوف . والحاكم نفسه غائب الآن فقط في ( سكاكا ) المدينة الصغيرة الأخرى في نطاق منطقة الجوف ، وهي على بعد ٢٠ ميلاً من هنا . وهو عبد رنجبي ، كما أخبرنا ، ولكنه شخص على درجة كبيرة من الأهمية ، وصديق شخصي للأمير .

## من تاريخ الجوف الحديث :

والجوف ، بقدر ما استطعنا أن نعلم من محمد ، أننا لا نحب أن نسأل أسئلة كثيرة ، كانت في السابق انقطاعية لآل شعلان مشايخ ( الروكة ) ، ولا تزال تدفع المائة ( لسطام ) ، ولكن منب بن رشيد فتحها منذ حوالي ٢٠ سنة ، وعوملت

منذ ذلك الحين كجزء من نجد . وقد حدث تمرد مرة أخرى مرتين ، غير أنه أخذ بعنف ، ونجاف الجوف الآن من أن تحرك أصبعا ضد الأمير . وبمناسبة واحدة من هذه التمردات قطع متنب عدداً كبيراً من أشجار النخيل ، وترك المدينة في حالة نصف خراب ، وهكذا أجبروا على الاستطبار والانتفاع بها . وفي الحقيقة قل أن تستطيع الحكومة أن تكون شديدة الحور فهؤلاء الستة الجنود بأقوى ارادة في العالم لا يستطيعون أن يستبدوا كثيراً في مدينة ذات أربعة أو خمسة آلاف من السكان . انهم جميعاً شبان أشداء ، نشيطون ، لطاف الروح ، يخدمون هنا سنة دفعة واحدة ، ثم يمفون . انهم متطوعون ، ولا يحصلون على رواتب ، ولكن لهم ، كما افترض ، بعض ميزات حينما يكونون قد أدوا خدمتهم . ويبدو عليهم الاخلاص للأمير .

## محاولة تركية لاستيلاء على الجوف

يخبروننا أن حاكم دمشق التركي ، منذ أربع سنوات ، أرسل حملة عسكرية ضد الجوف ( نفس الحملة التي سمعنا عنها في كاف ) ، ولكن ابن رشيد شكاً من هذا إلى السلطان ، وهدد بطردهم وبعدم استمراره بدفع الاثارة لشريف المدينة إذا لم تسحب القوات ، وهكذا كان عليهم أن يذهبوا من حيث أنوا .

## ابن رشيد كان يدفع الأتوة للترك

وهذه الأتوة يدفعها الأمير بسبب أملاكه النائية مثل ( كاف ، مو ، تبا ) و ( الجوف ) التي حاول الترك في مناسبات متعددة أن يتعرشوا بها . وهو ، على أية حال ، مستقل تماماً عن السلطان ، ولا يعترف بالسيادة لأي مكان .

ان عظمة ابن سعود والوهابيين الآن شيء يتعلق بالماضي ، ومحمد بن رشيد أقوى حاكم في جزيرة العرب .

## استقرار الامن في نجد

اننا نسمع تقريراً ساحراً عن نجد ، على الأقل عن الجزء الشمالي منه ، يمكنك أن تسافر في أي مكان ، كما يقولون ، من الجوف إلى القصيم بدون حراسة . ان الطرق آمنة في كل مكان . ان قطع الطريق لم يعرف في مسالك بلاد الأمير سبي كثيرة ، والناس الذين يوجدون يتكاثرون قرب الطرق تقطع رؤوسهم . ولا يسمع ابن رشيد بغزو يشن على المسافرين ، وعدم يقوم بحرب فهي ضد أعدائه . وبن هذا وان معجل صديقان له ، ولكنه ليس على وفاق مع صطام وشيوخ السفة . ويوجد في القلعة مدفعان زنة ١٢ رطلاً ، المجليزي الصنع .

وعما قطعان فديتان لا قيمة لهما ، ولكنها استعمالا كما يبدو ؛  
في حصار الجوف بواسطة متنب .

## سكان بلاد الجوف

ان الجوفيتين من عنصر مختلف عن شمر لمجد ، فهم خليط في  
أصلهم تقريبا مثل التدمريين أو القرويين في الفرات .

يحدثنا حوسين الكلب ، مفضلنا الأول ، انه يلتقي (الطى) ،  
وان آخرين من جيرانه من السرحان أو ( بنى لام ) وهو ليس  
في الحقيقة ابن عم لحمد ولكن ابن عم لابن عم ، فأبناء العم  
الحقيقيون يعيشون في ( سكاكا ) .

## الحاكم وجهنده

ومع أننا كنا مراقبين جداً معه ، فلنا هنا أقل ارتياحاً ،  
وانه لأمر أكثر امتاعاً أن نكون في القصر . ودواس ، نائب  
الحاكم ، امرؤ ينتزع الحب ، وجميع جنوده لطفاء وفضلاء  
للغاية . انهم مجموعة من الناس تشير البهجة ، وانهم لينكفون  
معنا بصراحة ، في السياسة وفي كل شيء . انهم يؤكدون لنا  
أن ابن رشيد سوف يسر لرؤيتنا ، ولكن ينبغي علينا أن  
نرى ( جوهر ) ، الحاكم الأسود ، أولاً . هناك عدد من الأرقاء

الحقيليين في الحصن ، غير أنه لا نساء . ان الجنود يتركون زوجاتهم خلفهم في حائل حينما يذهبون في الخدمة العسكرية .

## الحيوانات في البلدة

لا توجد خيل في الجوف ، باستثناء فلو عمره سنتان يملكه ( الطويمى ٢ ) أحد الجنود ، الذي يبدي إعجاباً شديداً بشترائنا ( مهرة الكتبة الشقراء ) بقوله : انه ليس هناك في نجد شيء في جمالها . كما لا يوجد أي نوع من حيوانات الحمل ، حق الخمر . والجمال التلية الموجودة في المدينة يحتفظ بها لتتح المياء من الآبار ، وكل ما رأيت من المخلوقات ذات الأربعة أطراف هي فقط عدد قليل من الماعز ، وثلاث بقرات في القصر يمانين المسقية .

ولا توجد ذرة من الحنصرة في نطاق أميال من الجوف ، وعلى الجمال وهذه البقرات أن تأكل قشاً مقطماً ولا تقبل أن تأكل للتمر .

## مائدة غير شرعية • بعد لها سهرة

تألف غذاؤنا اليوم من حل وثلاثة أطباق أخرى - أحدها



نوع من المعجون يشبه العجينة المستعملة في لصق الورق ،  
 وآخر مجرد زبدة زخفة مع بصل مفروم ( 'مهذئ' ) ، والثالث  
 خبز مفتوت في الماء - وكلها قدرة ما عدا الحمل . وعلى أية  
 حال ، فقد كان هناك دور اضافي احضر لنا كمفاجأة ، لحم  
 ( فليتو ) بقر وحشي من النفود ، مشوي في الرماد ، وكان من  
 احسن اللحوم التي ذقتها .

وفي المساء رتب لليلتنا رقص وغناء ، واشترك فيه  
 دواس والجنود . لعبوا نوعاً من رقصة السيف ، وكان احد  
 اللاعبين يدق على طبل صنع من خشب النخل وجلد الحصان  
 بينما رفع الباقون سيوفهم على اكثافهم وغنوا غناً مهيباً ،  
 ورقصوا بمهابة وجلال . ومن وقت لآخر كانت السيوف ترفع  
 ويلوح بها ، ثم تنطلق صرخة تشبه الى حد كبير ما قد يسمع  
 في حلبات الصيد في بلادنا . ومرة او مرتين كانت هناك  
 « هو - هوب » مميزة ، ومضبوطة في المفتاح الموسيقي الملائم ،  
 وبالتفخيم المناسب . كانت اكثر الألحان أخاذة ، على طريقة  
 الموسيقى العربية . وجرى احدهما على النحو التالي :

( صورة النوتة الموسيقية على صفحة ١٢٢ من المجلد الأول  
 من الكتاب ) .

انتهى الرقص ، وفي طامة ضخمة مزج النيس وعصير  
 الارج ، وضربت كميات هائلة من هذا السائل المهدي . نحن  
 الآن هادئان خارج القلعة ، التي نوصد طيلة الليل ، وفي حريتنا

لنكتب او نضع رسوماً تخطيطية على ضوء القمر ، أشياء لا  
تجوز على فعلها أوقات النهار .

## دعوة لزيارة ( سكاكا ) :

٧ يناير : ( ١٨٨٠م ) .

حمدان ، دليلنا الشراري الذي كان قد اختفى ، عاد هذا  
الصباح خفية من أجل الحساب المستحق له . يقول : انه خائف  
من القوم الذين في القلعة ، ولا يستطيع البقاء معنا .

جاء رسول من ( سكاكا ) بدعوة من جوهر لنا ، ولهذا  
فنحن ذاهبون هناك عدا . وسوف لا نقيم مع جوهر ، على  
أية حال ، حيث انه ليس له منزل خاص به ، بل سنقيم مع  
اقربائنا ، آل عروج ، الذين اكتشفناهم اخيرا . وقد ارسل  
ناصر بن عروج رأس الاسيرة عند سماءه بوصولنا ، ابنته برسالة  
تتضمن كل صنوف الأدب ، وإلى بيته منذهب . والشاب  
متواضع ، وحسن التهذيب بدون تظاهر بالأمانة والاستقامة ،  
لو كان بإمكان أي واحد ان يقرأ شيئا ما في الوجوه ، ومن  
الواضح انه شديد التأثر بالشرف الذي ناله بزيارتنا المعترمة .

لقد كنا نقوم بزيارات طيبة لنصباح ، الأولى لمضيفنا

السابق حوسين الكلب ، والاقرباء الآخرين ، ثم لواحد أو اثنين من وجهاء المدينة ويقول حوسين انه يوجد (بيت حبوب) التي ذكرها المستر بلجريف .

## سَيِّغ الجوف السابق

ولكن انبل الأمر هي امرأة ( محسن بن دره ) ، سَيِّغ الجوف السابق ، ولكنه الآن انزل إلى حالة واحد من رعابا الأمير. و ( ابن دره ) ( يخبرنا محمد ) ليس راضيا عن التغيرات السياسية في الجوف بأية حال ، ولكنه يخاف ان يظهر أكثر من عدم رضا ، نصف كظيم ، لأن محمد بن رشيد يحتفظ برهينة على حسن سلوكه في شخص ابنه الأكبر . ويقيم هذا الشاب في حائل ، وهو هناك ليس سعيدا بالمعنى الحرفي ، لكنه لا يستطيع ان يعود إلى اصدقائه . اطمعنا ، واحكمنا في كل المنازل .

## القهوة والتمر ..

وكان علينا أن نشرب اكوابا لا نهاية لها من القهوة المتبلة بالهيل وان نأكل ما لا يحصى من التمر ، حلوة الجوف ، التي يقولون عنها : انها اجود ما في جزيرة العرب. انها ذات نكهة

ممتازة ، ولكنها شديدة الحرارة وشديدة اللزوجة للاستعمال العام . ان اهل الجوف يكادون يعيشون كلية على التمر ، ليس على ( الحلوة ) ، على أية حال ، وهي ليست بأية حال نوعا شائعا . توجد هنا اصناف من التمر هي من الكثرة بقدر التفاح في حدائق بلادنا ، وكل صنف يختلف عن الآخر تماما ، والنوع المفضل لدينا للأكل الاعتيادي بمجمد خفيف اللون ، واكثر استدارة من ( الحلوة ) ، في حين ان هذه لا شكل لها ، ويلون القرم الشقراء .

انه خطأ كبير ان تفترض ان التمر احسن ما يكون لانه حديث الجنى ، على العكس انه ينضج مع الحفظ واحلى الانواع تحتوي على مكر كثير ، لدرجة انها حين توضع في طبق مكشوف تسعل ( بصفيا ) إلى مراب يتكون فيه السكر قطعا كبيرة . ولا أشك في أن السكر العادي يمكن ان يصنع منها .

## طريقة صنع القهوة :

ان طريقة صنع القهوة هنا هي اى حد كبير نفس الطريقة المعروفة بين بدو الشمال ، باستثناء انها أكثر املالا . فهناك ، أولا ، عملية لامتناهية لتنقية وفروز حبات البن ، وهي أصفر حجما وأخف لونا مما يلقى المرء في أوروبا ، ثم ، بعد التحميص ،

عملية سحن طويلة في الهاون ( البجر ) ، ولو أن البن لا يحسن ناعماً قط ، ثم غسيل مفرط لأنية القهوة ، خمسة أو ستة منها ، وأخيراً الغلي الفعلي ، وهو يجري ثلاث مرات . ان ( اهاون ) الجوف أنيقة جداً ، ومصنوعة من الصخر الرملي الأحمر ، الذي هو الصخر الشائع في البلاد ، وهي ، كما اعتقد ، سلعة للتصدير . وابي لأحب أن آخذ واحدا منها معي ، ولكنها ثقيلة جداً ، كل واحد منها ربيع حمل البعير . وتصميمها بسيط ولكنه أنيق ، ولن تكون مفاجأة لي لو انها قديمة جداً .

## صناعات الجوف :

أما صناعات الجوف الأخرى التي سمعت عنها فهي فقط احزمة وعباءات صوفية . والاولى بيهة النظر ومطرزة بالفضة ، وجميع الخدم ، اشترى منها ، أما الأحيرة فهي مصنوعة من الصوف الذي يحلب من بغداد . واشترى عواد واحدة بستة مجدييات ونصف .

## قلعة (مارد) :

بعد ذلك ألقينا نظرة على قلعة ( مارد ) ، النائية الوحيدة من الحجر في الجوف . ويرجع تاريخ تشييدها ، كما يمكن أن

أقول ، إلى المصور الوسطى<sup>(١)</sup> وإنها بالتأكد ليست كلاميكية  
وليس لها ملامح خاصة تجعلها مثيرة للاهتمام . وتبدو أجمل على  
بعد . أجد الخرائط نصحها على طول الطريق من الجوف ،  
ولكنها في الحقيقة داخل أسوار المدينة ، على الطرف الغربي  
وتقف على ارتفاع ٢٠٠٠ قدم فوق سطح البحر .

## دعوة إلى الصلوة بالقوة :

بينما كنا لمجلس في منزل ابن ( درة ) رأينا مثلاً لحكومة  
ان رشيد الأيوبية ( البنية اركية ) وأولى علامات الوهابية .  
نودي للصلاة الظهر من سطح المسجد القريب ، إذ ليس هناك  
منارة في الجوف ، إلا أنه لم يبدأ على أي فرد لبرهة من الزمن ،  
أي ميل لأن يتحرك ، متخذين من ريارتنا عذراً . ثم ابتدا  
رجل مسن ذو وجه فظ يحاضر الأصفرين ويخبرهم أن ينهضوا  
ويذهبوا للصلاة ، وعندما لم يجد لأمره أي جدوى معهم ،  
ضرب لهم المثل في النهاية . ومع ذلك ظلت المجموعة الرئيسية  
للخبيث قعدة ، إلى أن نهض فجأة الحديان الشبان اللذان  
حاهامنا ، وهم يصيحان : « قم ، قم » واضعين صفعات  
سيفيهما على البنية وساقاهم جميعاً إلى المسجد ، جميعاً ما عدا  
مضيفنا الذي جعله مركزه هذه الصفة مرعوباً من الآهانة .

(١) مارد : حصن قديم في الجوف . غزته لربته ملكة تدعى . لامتبع  
عليها ، رعيه في الألتق حصن تها . المثل : فتوة مارد ، وعمر الألتق .

ومن الواضح جداً ان الدين ليس مقدراً هنا ، وباستثناء الرجل  
 ذي النظر المسن وانوجه الفظ لم يبد أن أحداً ينظر الى الصلاة  
 نظرة جدية ، لأن الجنديين بعد أن أديا واجبيهما في سوق  
 الآخرين الى المسجد عادا من المسجد بدون صلاة . ان المظهر  
 الخارجي للدين لا يبدو طبيعياً بين العرب .  
 رفقة السيف مرة أخرى هذه الليلة ، ووليمة أخرى من  
 الليمة .

## هدية : اترجة كبيرة :-

٨ يناير : ( ١٨٨٠ م ) .

صباح غائم ، ضبابي تقريباً ومطر . ودعا دواس وجنوده .  
 وبدا عليهم الأسف حقاً لفراقنا . انهم أناس ذوو مزاج حسن  
 وأمناء بشكل غير عادي ، ولقد عاملونا بلطف بالغ . كانت  
 آخر التفاتة من دواس نحوي هدية من الأترجة هائلة في كبر  
 جوزة الهند تضخمة . ان الأترج ليمون حامض وليس حلواً ،  
 ولكن له قشرة سمكها بوصة ، وذات حلوة تكفي لأن  
 تاكل ولو انها كثيرة الزغب ( الصوف ) .

## بين (مطاط) و (الجوف) :

تقع سكاكا ، حيث أتينا اليوم ، على بعد حوالي ٢٠ ميلاً  
 من الجوف ، ويوجد خط بين المكانين مطروق كثيراً . كنا

جماعة كبيرة العدد نسبياً ، من حيث ان عدداً من الجوفيين جاءوا معاً للمرافقة ، ومعنا ان عروج ، ان ناصر ، وعروج آخر ، ان عم له ، ورحل ذو بدقية الذي هو في طريق دهبه معاً الى حائل كل الجماعة ما عدنا كانت تسير على الأقدام ، لأن الجوفيين لا يركبوا أبداً ، فليس لديهم خيل ولا جمال حتى ولا حمار . وكان مع أحد الرجال صدقة بيضة بعام مدلاة في شبكة من نوع ما ، وتسمع كثرة لحفظ الماء . أخبرتني ان لعم مألوف في اسفود ، الذي هو الآن قريب من هذا . كان المطر على طول لطريق النعم ، وأحياناً يستحق التصوير . عبرنا أولاً حوض جوف الى الناحية الأخرى ، مازين ، بعدد من الحقول الخراب ، السطح حديد ثاماً ، وأدناه سطي بالمح . ان هذا لانخفاض بكامله لير الاملا عرضاً . ثم فجأة ارتفعت طريقنا مائة قدم فوق ضلع من الرمل واقف الانحدار ، ثم مرة أخرى مائة وستين قدماً فوق سلسلة صخرية ، منحدرين مرة أخرى لنعبر سبعة ذات حاشية من الاتل في حالة إزهار الآن ثم يقع من حشبات ناعمة من صخر الخدبد لا يستطيع تمييزها عن فضلات الاغنام .

وعلى بعد ساعتين من الجوف تجويف مائي يسمى الخوفيون نعماً ، والماء على انخفاض حوالي ٨ أقدام تحت سطح الأرض . وفي الوديان حيث قد جرى الماء ، لأن المطر نزل هنا منذ شهر تقريباً ) ، وجدت لباتات بصلية زاهية ذات زهور زعفرانية تحلق على المكان مظهرأ زائفاً للخصوبة



وفي أماكن أخرى أحجار عجيبة من الصخر الرملي الوردي  
مكحلة بالحديد .

وعلى بعد ، ثمانية الشمال عدد من الكتل الرفيعة لتل ،  
جبل الحمامية ، ( أو جبال الحمام ) ، وهي أكثر شيء جدارة  
بالملاحظة . وهذه يمكن أن تكون أعلى من الجوف بألف قدم .  
وبعداً وراء ذلك ، إلى الشمال الشرقي وإلى الشرق جرى خط  
الأفق مستوياً على ارتفاع مسار ، طرف الحاد ، لأن كل الجهة  
التي كما نقطعها هي في نطاق بحر قديم ، من المهم أنه شمل ،  
كما يفترض ، وادي السرحان ، والجوف ، وسكانا .

وعلى إحدى الصخور لاحظت نقشاً ، أو ، لأخرى صور  
حمال وخيول ، محفورة على وسع مسطح عرضه حوالي خمسة  
أقدام . ولم نستطيع ، على أية حال ، في مثل ظروفنا أن ننقده .

## وصف بلدة (سكاكا) ..

ان سكاكا ، مع انها ليست مقر حكومة جوهر ، مدينة  
أكبر من الجوف - سبعةائة بيت ، كما يقولون ، وبساتين للخيول  
على الأقل ضعف ما في الأخرى . ومركز المدينتين يكاد يكون  
واحداً ، تجويف عريض محاط بحروف من الصخور الرملية ،  
ولكن حوض سكاكا أقل انتظاماً وتنصب فيه تلال رملية  
وتلال قانية من الصخور .

وسكاكا كالجوف ذات قلعة قديمة تجثم على مرتفع يبلغ علوه

حوالي مائة قدم ، وتسيطر على المدينة ، والمدينة نفسها مبنية بطريقة غير منتظمة ، وليس لها سور متصل حول بساطتها .

وتوجد بساطين كثيرة ومجموعة منازل منفصلة ، وهذه لم تخرب مثل تلك التي في الجوف من جراء الحروب الأخيرة . وفي جملتها ، لها منظر بالغ النضارة ، ولم يترك قدان واحد قابل للري بدون استنبات . كل شيء مرتب ونظيف ، والاسوار جديدة الشرفات ، وكل منزل منسق ، كما لو كان بني حديثا . والقطع المربعة الصغيرة المزروعة شعيرا يحيط بكل منها سياج من اغصان النخيل المجدولة ، والشوارع والازقة انيقة بشكل دقيق

## في ضيافة (ال عروج) :

من خلال هذه عرنا راكبين بدون توقف وجاوزناها ميلين ، الى مزرعة ( نصر ) .

نحن الآن في قلب عائلة ابن عروج ، وفضلا عن ذلك لا خرافة بل حقيقة فهي ضيافة ، نلتقانا بسواعد مفتوحة ، كما لو كانوا يتوقعوننا كل يوم طيلة المائة سنة الأخيرة . انهم يعرفون قصصنا ابن عروج الشعرية ونسب محمد احسن بكثير مما يعرف هو نفسه . وهكذا يمكننا الآن على الأقل ان نأمل ان نكون في النعيم ، وإذا لم نذهب الى ابعد من هنا ، بعد كل شيء ، فربما نحس اننا لم نسافر قط عبثا .

## ثلاثة أيام للراحة

مكثنا ثلاثة أيام مع ناصر وبنيه وزوجات بنيه وأطفالهن في بيتهم الريفى الهادئ .

كانت راحة كنا في أشد الحاجة إليها، وبرهنت -الى جانب ذلك- على أنها تجربة مثيرة للاهتمام، وفرصة ممتازة لتعرف عن الحياة العربية المتزلية أكثر مما عرفنا في رحلاتنا السابقة .

## حديث عن (آل عروج) أسرة الدليل

وليس آل عروج اصحاب (سكاكا) في أنفسهم ذوي أهمية خاصة ، فكأقربائهم في تيدمر ، قد أصبحوا مستقرين منذ مدة طويلة كجورد سكان مدينة ، يتزوجون من بنات البلاد ، ويتقبسون من الميول الحقة للمدينة ، ولكنهم كلوا أمنا وذوي قلوب ذات عطف ، وتقاليدهم أصيلة خاصة بهم ، وما زالوا محافظين دينياً ، ويلقون أحياناً ومضة من شيء ما كالحيل ( رومانس ) على ما عدا ذلك من شؤونهم المتعلقة بمحطات الحياة .

## عميد الأسرة

وناصر ، أفضل الجيل الارشد ، يشه مبدأ ( اسكوتلنديا )

صغيراً ، فقيراً وشجاعاً ، ولكنه مدرك لحقيقة كونه ذا دم  
في شرايينه أكرم من دم جيرانه - الانسان الذي يفكر ، كل  
يوم من أيام السنة إلا يوماً واحداً ، كيف يدخر ستة بنسات ،  
ولكنه يظهر نفسه كل يوم انه رجل ماحد ( جنتلمان ) ،  
ورئيس بيت .

كان ابناؤه هادئين ، ومتواضعين ، وغير مدّعين ، ومثل كل  
شباب العرب ، ميالين الى ( الرومانتيكية ) أكثر من أبيهم . بل  
ان لهم تقديراً من نوع ما للأفكار الفروسية خاصة ( تركي )  
الأكبر ، وفيه يتغلب الدم البدوي والتقاليد السودية تقرباً الى  
الحداثة الذي لا تترك مكاناً للفرائز التجارية ، بين هذه الأخيرة في  
أخيه ( عربي ) هي فوق ما ينتمي لموادة الأولى . أحببنا كلا  
الأخوين مفضلين ، الطبع ( تركي ) ، ومعه أقام ( ولفرد )  
صداقة كبيرة .

## شيء من تاريخها

ان قرابة محمد لمؤلاه القوم أقل بمدأ مما كنت قد افترضت  
ان سلفه ، عبي بن عروج ، كان أحد الأخوة الثلاثة ، الذي  
ترك العارض في نجد ، في اعقاب نار ، أو ، كما يظن ( ولفرد )  
انه الأكثر احتمالاً ، هرباً من النطفين <sup>(١)</sup> الذي صاد مجداً ضد

(١) الكتابة متأثرة بما نسمع عن الحركة الاصلاحية التي قام بها الشيخ محمد  
ابن عبد الوهاب - رحمه الله - قامت الدولة السعودية الكبرى بنشرها قياماً  
قصي على دعوة الدولة التركية في قلب جزيرة العرب . ولم يبق لها الا أس  
نبت لدعائيات الصلوة عن تلك الدعوة . حسية من امتداد اقتضاها . ومن  
هنا كانت الكتابة متأثرة بما سمع من تلك الدعائيات .

مائة سنة ، وجاءه الى الشال حتى وصل الى قديم ، حيث  
تزوج (علي) وأقام ، وأخ آخر ، عبد انقاد بن عروج ،  
توقف في الجوف واستقر هناك ، وصار جدياً لناصر . أما  
بالنسبة للثالث ، مطلق ، فان نسل الاثنين السابقين ،  
لا يعرفون شيئاً عن مصيره ، سوى انه لم يحب لا قديم ولا  
الجوف ، فعاد في اتجاه نجد . وصل اليهم تقرير غامض عن  
موته ، الا ان أحداً لا يستطيع ان يجزم متى أو كيف مات.  
وجاء ناصر من الجوف الى سكاكا منذ سنوات ليست كثيرة .

وبصر الآن رئيس الأسرة ، على الأقل ذلك الفرع الذي  
يسكن الآن واحة (سكاكا) ولكن يعيش هناك في منزل  
ملاصق لمنزله ، ابن عمه المناصر جازي بن عروج ، أخ لصديقتنا  
(مرروقة) ، وأب لابنتين جميلتين . وهؤلاء ، مع قليل من  
الأقرباء الآخرين ، يكوون أسرة صغيرة بهيجة ، يعيشون  
جميعاً في مزرعة ثانية .

## نساء الأسرة

أول فكرة في بحشنا اليهم ، بالطبع ، كانت من أجل  
روحة محمد ، وبناء على طلبه اغتنمت فرصة مبكرة للتعرف على  
نساء العائلة . وجدتهن جميعاً ودودات ومحوبات ، وبعضهن  
ذكيات وممظم الصغيرات كن جيلات المنظر . وأهم شخص  
في (الحريم) كان روجة ناصر ، سيدة صغيرة عجوز تدعو

شمعة ، نحيفة وذابلة ، ومتجمدة ذات صفائر طويلة رمادية ، وعينين ضميقتين تنبشان عن شيخوخة طاعنة . ولو انها لم تكد تتجاوز الستين ، فقد بدت منهكة نماماً . كانت أم ( توكي ) و ( عربي ) ، وممعت من محمد ان ( نصر ) لم يتخذ زوجة أخرى غيرها . وكانت في هذا مخطئاً ، لأنه في نفس رباتي الأولى ، امتدعت زوجة أصغر منا من الحبرة الملاصقة وقدمتها الي في الحال . ودخلت الزوجة الثانية مع غلامين في الثالثة والثانية من العمر ، وأكبرهما ( لان لها اسمين غير معنادين ) يسمى مطرق ( عصا ) ، بالرغم من انه يبدو طفلاً محبوباً وحسن المزاج . وهو في هذا يشبه أمه ، التي أوفى بشكل حسن سلوكها المذهب نحو زميلتها الأكبر منها سناً شمعة . وفوق ذلك ، كان لها وجه جميل حقاً .

أما الغلام الصغير ، ( مطرق ) ، فقد أدركت انه الغلام الذي لما رأته في الصباح مع ناصر ، الشيخ في بستاننا ، افترضت انه حفيده .

## هجرة ناصر الى أطفال

كان ناصر يحاول جهده لتدليل الطفل ، طلقاً لأملوب الرجال الشيوخ ( المسنين ) بين العرب . وحينذاك اعطيت ( مطرق ) ثوباً أحمر ( فراء ) ، وهو الذي كنت اشتريه من أجل ولد ( صطام ) ، منصور ، حينما ظننا اننا كنت ذاهبين الى

(الرولة) ، وفي هذا كان الطفل الآن يلبغتر ، مبدياً حليته  
لفتاتين صغيرتين جميلتين جداً ، هما اخناه . وجرت هاتان  
داخلتين خدرجتين أثناء زيارتي ، تساعدان في احضار أطباق  
التمر ، ولتا كلا تقرأ كلما أتتا ببعض منه .

## نساء الأسرة محتفين بالكتابة

وظهرت بعد ذلك زوجتا تركي ، واحدة منها جميلة ،  
والأخرى بسيطة ، وزوجة عربي الوحيدة ، جميلة ومتزوجة  
حديثاً . وبدأت هؤلاء مع بعضهن على خير وفاق بما عليه الحال  
عادة بين الزوجات المختلطات وزوجات الأبناء . كن حريصات  
على سروري ، وبالطبع ، فعلت كل ما أستطيع من أجل  
إرضاء رغباتهن المنسية فيما يتعلق بالأكل . قدمن لي تمراً من  
أنواع لا تحصى - تمراً جافاً ورطباً ، وحلواً وأقل حلاوة ،  
عتيق التجفيف ، وجديداً ، وكتلاً كان مسحباً بالنسبة  
لشخص واحد ان يعدل بين كل هذه الأنواع .

عاملت ( شمعة ) كل الناس بطريقة شخص يتمتع بسلطة ،  
ولو ان أسلوبها معهم كان لطيفاً . وهي ، على أية حال ، قليلة  
الكلام ، بينما كانت الأخريات يشككن بدون انقطاع ، وبأن  
كل أنواع الأسئلة ، التي تتطلب معرفة بالعربية أكبر مما لدي  
حتى أجيب . وفي وسط الزيارة وصلت ( فازك ) ابنة ناصر  
المتزوجة ، أخت لتركبي وعربي ، مع ابنتها وجفنة كبيرة

من التمر . لقد مننت طول الطريق من مدينة سكاكا ، حوالى  
ثلاثة أميال ، تحمل هذه الطفلة ، وهي مخلوق سمين في الرابعة ،  
والتمر ، ودخلت ، لاهثة ضاحكة ، لثراي . انها ثير السرور  
وذات حيوية ، كثيرة الشبه بأخيها تركي في الوجه ، أى نها  
طيبة الخلق أكثر من كونها جميلة المنظر . أية واحدة من هؤلاء  
السيدات الشابات كانت تقى بشروع محمد للزواج ، ولكن ،  
لسوء الحظ ، كن جميعاً إما متزوجات او صغيرات جداً .  
رسالت فيما اذا كن هناك بعض السيدات الشابات في الخارج ،  
فأخبرت انه لا يوجد أحد من بيت ناصر ، ولكن ان عمه  
( جاري ) له ابدان كاملتا العمر ، لم تتزوجا بعد ، فحافظت  
على هدوني حتى تسع لي فرصة لرؤيتهما .

## البحث عن زوجة للمليل

وفي نفس الوقت ، كان محمد قد بدأ بالفعل يجمع معلومات  
على حسابيه الخاص ، ولم ينته اليوم الأول من ريارثنا قبل أن  
يأتى إلي بتقرير عجيب عن نفس ابني ( جازي ) هاتين . كان  
هناك ثلاث بنات ، كما قال ، وجميعهن حميلات ، كل واحدة  
أجمل من الأخريات ، عسر ، رحامو (؟) ، ومطرة والاولى  
والثانية لسوء الحظ قد خطبنا بالفعل ، ولكن مصورة ما زال  
في الامكان الحصول عليها . واستطعت أن أرى انه كان قد  
وقع في الحب المذنف فعلاً ، فعند العرب القليل يقطع شوطاً



طويلاً ، ومن حيث انه لا يسمح لهم إطلاقاً برؤية السيدات ،  
 فاهم يقومون في الحب من خلال الحديث عنهن : كان يلمح كثيراً  
 انه يجب على ألا أضيع الوقت وان اذهب لزيارة أمهن ، وبدأ  
 أنه يفكر أنني كنت اضيع وقتي سدى وبحزن في زيارة ابنة  
 العم المتزوجة . وقد صرح محمد أنه يجب أن يتأنس برأبي ،  
 وسأعرف ، كما تظاهر ، في الحال ، ليس فقط ما إذا كانت  
 ( مطرة ) جميلة ، بل أيضاً ما إذا كانت حسنة الطبع ،  
 وحرية بأن تصبح زوجة صالحة .

## حول المهر :

قال انه كان يجمع وي طرح ، وظن ان أربعين جنبياً سوف  
 تطلب بصفة مهر . وإنه لبلغ كبير بالتأكيد ، ولكنها حقاً  
 صيلة ، والمناسبة فريدة ، ابنة جازى ! - ابنة أغ مرزوقة ! -  
 فتاة من عائلة ممتازة كهذه ! - ابنة من آل عروج ! وآل  
 عروج لا يمكن الحصول عليهم كل يوم ! - أربعون جنبياً قد  
 لا تكون كثيراً جداً .

## الطالبة تصبع خاطبة

كان لدي فراسة كبيرة ، وقد رأيت زوجات وبنات جميع  
 شيوخ ( عَنَزَة ) ، يجب أن أعرف ما هو هذا وما هو ذلك ،

ويجب ألا اخطئ . ومع ذلك فهو يريد أن ينهب عبد الله ممي ، فقط ليتجسس على الأشياء . ويمكن لعبد الله ، كقريب ، أن يسمح له بالسنول ، في مناسبة كهذه ، ولو أنه هو ، أي محمد ، لا يستطيع ذلك بالطبع ، ويمكن ، ربما ، حتى أن يسمح له برؤية الفتاة ، كما لو كان ، بالصدفة . أما بالنسبة لنا ، آل عروج ، فإن الزوجات والبنات دائماً محجبات ، عادة أتينا بها معنا من نجد ، لأننا لسنا كالندور ، ومع ذلك وفي مناسبة هامة كهذه ، مناسبة تدبير رواج ، قد يسمح أحياناً لرجل من سن معين ، تابع ، أو قريب فقير ، أن يرى وينقل ما رأى . ووعدت أن أفعل ما أستطيع لالجز الأمر .

وعلى ذلك أرسل لتركي في اليوم التالي ، وأشعر بالأمر موضوع البحث باختصار ، وأرسل في الحال ليطمن عن زيارتي لأم بنات ( جاري ) - محمد يوضح أن من الذوق ( ايتيكيت ) أن الأم يجب أن تعرف بموضوع زيارتي ، ولو أنه ليس ضرورياً بالنسبة للبنات . ثم فعبنا إلى منزل ( حازي ) ، تركي وعبد الله ، وأنا .

## في سبيل اختيار الزوجة :

يقع منزل ( جازي ) بالقرب من منزل ناصر ، يفصلها فقط سور البستان ، وهو أيضاً أصغر من هذا الأخير ، فكبرت انه مكان فقير لنأتي اليه بحثاً عن أميرة ، ولكن في بلاد العرب

يجب على المرء ألا يحكم أبداً بالطواهر . وفي الباب ، بين عدد  
 من النساء ، وقف سعد ، أكبر أبناء ( جازي ) ، الذي قادما  
 خلال فناء إلى حجرة داخلية ، مظلة تماماً ، باستثناء ما قد  
 يأتي من نور من خلال فتحة الباب من المحتم أنه في بلاد العرب  
 حيث اختراع التعبير : « بطلاً عنة دار فلان » ، لأن النوافذ لا  
 وجود لها في البيوت الصغيرة . كان هناك رائحة ماعز في  
 أنحاء المكان ، وبدأ كإسطل أكثر منه ردة استقبال . وفي  
 البداية لم أستطع أن أرى شيئاً إلا أنني استطعت أن أسمع  
 ( سعداً ) ، الذي غاص في الظلام ، يهز شيئاً ما في الزاوية ،  
 وعندما تعودت عيني على الشفق ، اتضح هذا أنه سيدة شابة ،  
 واحدة من الثلاث اللاتي جئت لأرورهن . كانت ( عمرا ) ،  
 الفتاة الثانية ، العطيفة ، الجميلة المظفر ، تشبه كثيراً ابن عمها  
 عريبي ، بأنفه القصير المقوف وعينه السوداوين . خرجت إلى  
 النور بمظهر كبير الخجل والاضطراب غفيرة وجهها في كفيها ،  
 معرضة عن الجميع حتى عني ، ولم تكن حتى لتسجيب لأي  
 شيء من محاولاتي للتحدث . ثم فمعة ، انفلتت منا ، واندفعت  
 عبر الفناء إلى خلة أخرى صغيرة ، حيث وجدناها مع أمها  
 وأختها ( مطرة ) . وبصموبة ، عرفت أن أجد تعليلاً لكل  
 هذا ، فإلى جانب الخجل ، ظننت أنني استطعت أن أرى أن  
 ( عمرا ) قصنت حقاً أن تكون فظة ، وأكد فكري هذه  
 الطماع المهدية لكل من أمها ( حالية ) وأختها الصغيرة  
 ( مطرة ) .

## اماديت مع الفتاة المفضلة :

ولقد أحببت (مطرة) في الحال . ان لها نظرة ، خاصة ،  
أمنية ، صريحة ، تحديق في الراء رأساً بعينها السوداء  
كالفراخ ، ولها أيضاً لون شديد الصفاء والنضارة ، وصوت  
يثير السهجة والسرور . ولذلك ، فلم ألق كبير اهتمام إلى فظاظه  
(عرا) وسألت الفتاة الصغيرة أن تسير معي في أنحاء  
البلدان ، ففعلت ، وقرحتني على الأشياء القليلة التي يمكن أن  
نشاهد هناك ، موضحة لي كل ما يتصل بالبشر ، وطريقة منح  
الماء . وما احتوى البلدان ، بالإضافة إلى أشجار النخيل ، على  
تين ، وبرقوق ، وكروم ، كما كانت هناك رقعة من الشجر  
الأخضر ، وعليه كان يرعى بعض الحديان

أخبرتني (مطرة) انهم في الصيف يمشون على الفواكه ،  
ولكنهم لا يحتفظون مطلقاً بالبرقوق أو التين ، التمر فقط هو  
الذي يحتفظون به . ولاحظت عدداً من أشجار النخيل  
الصغيرة ، وهي دائماً علامة على الرخاء . كانت البئر حواشي  
عشرة أقدام مربعة في أعلاها ، معطاة بمنابة بصخرة ، والماء  
على عمق بضعة أقدام فقط من السطح . وأخبرتني أن الماء  
يمكن أن يوجد في أي مكان في (سكاكا) بالحفر ودائماً على  
نفس العمق . سررت جداً بالذكاء الذي أظهرته مطرة في هذه  
المحاورة ، كما سررت بأساليبها الحلوة وعجايبها الفلص ، وقررت

في عقلي بدون صعوبة أن ( محمد : سيكون أكبر محفوظ ،  
 إذا هو حصل عليها بالزواج . وكان ما بيعت على الرجاء ،  
 أيضاً ، من أجل مساعدتها في المستقبل ، ان تلاحظ ان  
 ( حالية ) ، الأم بدت امرأة حساسة ، إنما لم أستطع أن أفهم  
 السلوك الغريب للفتاة الأكبر سناً ، ( عمر ) .

وفي نفس الوقت كان عبد الله ، الواقف على الباب ، قد  
 كون ملاحظاته ، وخلص إلى حد كبير إلى نفس النتيجة التي  
 خلصت إليها وهكذا عندما بتقرير ممتاز لنقله إلى طالب  
 لزوج النافذ الصر . المنتظر في الخارج .

## استبدال « ليا » بـ « راميل » :

كانت رغبة محمد الجارفة الآن تكاد أن تقصد التفاوضات ،  
 لأنه بدأ في الحل يتحدث عن بيته في لزوج . وكنيجة  
 لذلك حدث له نفس الشيء ، الذي حدث منذ زمن طويل  
 ليعقوب بن سحاق . وتقليداً للوك ( لايان ) واعتماداً على  
 لطف ابن عمه على الزواج ، كان أول ما عمله ( جاري ) أن  
 زاد المهر من أربعين إلى ستين جنياً ، ثم حاول أن يستبدل  
 ( ليا ) بـ ( راميل )<sup>(١)</sup> ، حسر السينة الطبع بمطرة الجنية .

(١) إشارة إلى ما جاء في التوراة . ( سفر اشعيا ) : وكنت ليا  
 حالية الطرة . ولكن رحيل كنت جنية .

## مجلس عام لمبحث الموضوع :

كانت هذه ضربة شديدة لأمال محمد ، ودعى إلى مجلس عام من جميع العائلة لحث الأمر وإخاذ قرار بصدد اجتماع المجلس في خيمتنا برئاسة ( ولفرود ) ، وفي جانب مجلس محمد ، مع ناصر كرئيس للعائلة ، وعلى الجانب الآخر جلس ( جاري ) وسعد ، ممثلين للعروس ، بينما ركب بينهما على ركبيه يتواضع رجل صغير متجمد الوجه ، ولم يكن عضواً في العائلة ، ولكنه ، كما فهمنا بعد ذلك ، كان وسيطاً معترفاً وفي الخارج اجتمع الأصدقاء والأقرباء الأبعدون ، عند الله وإبراهيم قصير ، وأكثر من ستة من آل عروج . بدأ هؤلاء بالجلوس على بعد لائق ، لأنهم بمجرد ما حسم النقاش بدأوا يقترحون إلى أن أدلى كل واحد منهم برأى .

## اضطراب الخطاب :

كان محمد في اضطراب تام ، وشاحاً جداً ، وتولى ( ولفرود ) تصريف قضيته عنه . وسوف تكون قصة طويلة لو ذكرنا كل شيء عن النزاع ، الذي كان أحياناً يمتد بحرارة ، إلى الحد الذي بدت المفاوضات على حافة القتل . وادعى ( جاري ) أن من المستحيل أن يزوح ابنته الصغرى ، في حين تظلي

الكبرى عبر مفروحة ، حقاً ، ان ( حامو ) محطوبه ، ولا أشكال بشأنها ، ولكن ( عسرا ) . ولو انها مخطوبة ، كانت حرة حقاً ، وجروان ، ان مرزوقه الترحوج الرأس ، الذي خطبت له لم يكن الزوج الحديرها . انه ابله ، وعسرا لن تتزوجه أبداً . وإذا صرحت فتاة أنها لن تتزوج خطيبها ، فهي ليست مخطوبة . ولا يراد لها الحق في أن تلشد زوجها تعجب به . ولكن هذا لا يغنى . ضربت مثلاً بزواج ( حسعان ) بنتاً محصوبة ، والعاقده السبعة ، كدليل على أن موافقة جروان للسنة لعسرا كانت ضرورية . وقال محمد بلباقه :  
 « يا بن عمي ! يا غاري ! كيف يمكنك أن أفعل هذا ؟ وان أرتك خطيئة ضد ابن عمي ؟ ان هذا حقاً سيكون عاراً علينا جميعاً »

## اصرار على خطبة ( مطرة ) :

وقصاري القول ، اننا احبنا على انه اما ، مطرة ، أو لا أحد . فمحب غاري طلب ( عسرا ) . ومع ذلك فقد التمس 'عذراً' ، بأن مطرة لم تكن سوى طفلة ، لم تكمل نبلج الحامسة عشرة . وعبر مهابة جداً لمثل تلك الرحلة الكبيرة جداً حتى تدمر . حقاً ، أين هي تدمر ؟ من من الجوفيين قد ذهب إلى مثل هذا البعد ؟

وعلى أية حال ، فقد أجاب محمد بأنه إذا كان مصر المن

عقبة ، فسنة ، أو سنتان ، ستتكلف بإصلاح ذلك . كانت  
راضية بالانتظار سنة أو سنتين أو حتى ثلاث سنوات ، إذا  
دعت الحاجة . لقد كان ابننا لمروج ، وقد تعود على الصبر .  
أما بالنسبة لندمر ، فهي بعيدة ، ولكن ألمأت من هناك  
حالا ، أو لا يستطيع العودة إلى هناك ؟ انه سوف يرسل  
واحداً من اخوته في الوقت المناسب ، مع عشرين ، ثلاثين ،  
خمين رجلاً لمرافقتها .

## مرافقة مبدئية . .

ووفق على مشروع الزواج في النهاية ، فيما يتعلق (عطيرة) .  
ولكن مسألة (التسويات) لم ينته منها بنفس السهولة . وهنا  
كان الأمر على وشك أن ينحطم كلياً وإني لأبدي ، كان (ولفرد)  
قد بوى أن يدفع المهر عن محمد ، ولكنه لن يقول ذلك حتى  
يستقر الأمر ، وورك محمد يكافح في مسألة الصداق حتى ينوصون  
إلى أفضل صفقة مستطاعة . وهذا ما كان محمد حد فاد . على  
القيم به ، بالرغم من عدم ثبات قلبه ، وبتقوية عند الله له ،  
الذي نظر إلى الموضوع بكامله طريقة تجارية محصنة يمكن  
الانفاق على مبلغ وسط ، وانعس المزمع .



## هدايا للفتاة . . وعديت عن الجراد ١١

لم تكن الأمور على أية حال ، حتى الآن لتسير تماماً بسكون . ففي اليوم التالي ، عندما ذهبت إلى بيت (جاري) ببعض هدايا صغيرة من أحل العروس ، قابلني (جاري) نفسه على الباب ، واستقبلني ، كما شعرت في الحال ، بارتباك وكذلك فعلت (حالية) لأنها هي كانت تجلس في (القهوة) ومعها قريب غريب . وكانت الأجوبة على استلني عن (مطرة) قصيرة ، وفي الحال تحول الحديث إلى (الطقس والمواصلات) أو على الأصح إلى بديل هذه الأشياء في جزيرة العرب ، حديث عن الجراد .

لقد كان هناك رعد عاصف هذا الصباح ، وهو ما أثار فينا الامتنان . أنه سيبب نمو الحشائش في النفود ، ولكن الجراد هناك لم يكن أبداً بمنزلة كثرة هذا العام . ومرة أخرى سألت عن الفتيات ، غير أني لم أتلق إجابة ، وفي النهاية ، نحت إحساس التنبؤ ، من حديثها المقيم ، وبمفاد صرقلت متعجبة :

« ما هذا يا جاري ؟ انني واثقة أنك - وانت يا (حالية) - مسرور بهذا الارتباط بمحمد ، فأحاب بصوت مملول .  
« إن شاء الله ، إن شاء الله » ، ورددت حالية : « إن شاء الله »

وكذلك فعل الغريب . ورأيت أن من المهم أن هناك شيئاً ما  
خطأ ، لأنه لم يكن جواب على سؤال ، ونهضت لأذهب .  
ثم خرجت حالية ممي إلى الفناء ، وشرحت لي ما حدث  
بيدو أن عسرا ، بزاجها العنيف ، كانت تفزعهم إلى درجة  
تذهب بالباهيم . انها لن تسمح بأختها تتزوج قلبها ، أو ان  
تحظى بلهرين أفضل . انها تحقر ( جروان ) ولو أنه شيخ  
( كاف ) ، فأرادت أن تتزوج شيخ ( نمر ) ، هي نفسها .  
لقد اكرهت ( غازي ) الشيخ على سحب موافقته ، و ( مطرة )  
كانت خائفة منها . وما العمل ؟ قلت : انه لا فائدة من النقاش  
في هذا مرة ثانية ، وانه إذا لم تكن هي وروحها حقاً قادرين  
على التصرف مع بناتها ، فيجب علينا أن نبحت لحمد في مكان  
آخر عن عروس ، واني مؤمنة وواقعة ان ( عسرا ) لن تكون  
حقاً إلى درجة أن تلقى في طريق سعادة أختها ، لأن ذلك  
لن يحقق لها ربحاً ان طبعها السيء هذا جعل من المؤكد أكثر  
انها لن تتزوج حمد ، وباختصار ، ان على العائلة أن تصل إلى  
قرار ، نعم أو لا ، في موضوع ( مطرة ) وفي الحال ، لأنها  
كنا مفادربين ( سكاكا ) الآن ، ويجب أن نسوى المسألة .  
وعندئذ رأيت الفتاتين ، وتحدثت اليها بنفس الشدة ، وبتأثير  
بلغ إلى حد أن حمد ، الذي كان قد أحس بمعنوية صميغة ،  
جاء بعد ساعات قليلة ، وحياء يطفح بالبشر ليقول : ان عقد  
الزواج سيوقع في ذلك المساء .

## مساومة .. هول « المهر » ثم وفاء

رفع عقد الزواج ، اذن ، ولو ان صعوبة فوق صعوبة اثبتت حق التعطلة الاخيرة ، واظهر الجميع ، الا ( تركي ) ، روح مساومة فاجعة في مسألة المهر ، خمسون جنبها تركيا كان هو المبلغ الذي تكرر في النهاية ، على أية حال ، ورفض ( ولنرد ) باقتضاب ان يقدم ( بشلكا ) واحدا زيادة على ذلك ، حتى ليرشو ابن عم ظهر على غير انتظار ، وطالب بحقه ( في مطرة ) أو في ما يعادها نقدا . لم تكن مشرفة هذه المساومة في الثمن ، وان الناس في اسكندرا ليصغرون افضل ، بتركهم هذه الأشياء لمهامهم ليسودها

### هفلة الخطبة :

وعلى أية حال ، فقد نظم كل شيء في النهاية ، كتب عقد الزواج ووقع ، وصار كل واحد سعيدا . ثم قضى بقية المساء في ابتهاج . ذبح جدي وأكل ، وغنيت اغاني ، وروبت قصص ، ولم تفرك اقصوصة ابن عروج الشعرية كما يمكن ان يتوقع ، خارج البرجامج وناصر شاعر ، فانشد ارنجالا قصيدة في المناسبة . وكان بين الضيوف حاحان من ( مكة ) - على الأقل هكذا سما نفسيهما - وبعض الرجال الذين فروا من

التجديد الأجنبي التركي في سوريا . وتناول هؤلاء الطعام مع  
الباقيين كما لو كانوا أيضاً اقرباء . وهكذا انتهت مفاوضات  
رواج محمد . وهو سيعود في العام المقبل ( لظرة ) أو يرسل  
من يأتي بها ، ولكن بالنسبة للحاضر عليه ان يرضى وينتظر .

## مفاوضة أكثر أهمية :

بينما كانت هذه الترتيبات العائلية تجري ، كان بين ابيينا أيضاً  
مفاوضة أكثر أهمية ، وكانت تلك هي الحصول على موافقة  
الحاكم على رحلتنا إلى حائل . كان أول شيء يجب عمله هو ان  
نقيم صداقة مع حوهر ، لأن كل شيء في هذه البلاد الاستبدادية  
يعتمد على حسن بيته ورضاه ، وإذا اختار ان يبعدها إلى  
( كاف ) عند وادي السرحان ، فأي لا اعلم اننا كنا نستطيع  
ان نقدم أية مقاومة .

والجوف ليست مكانا سهل الخروج منه . انما على بعد  
يزيد عن ثلثة ميل من أقرب نقطة على الفرات ، وبدون  
تصريح من الحاكم ليكن أي ناس ليخرجوا على ان يسافر معنا  
ميلا واحدا . وعلى ذلك ، ففي اليوم التالي لوصولنا ( سكا ) ،  
زونا ( جوهر ) ، الذي كان قد حذر من زيارتنا ، واستقبلنا  
في ابنة .

## « جواهر » نائب الحاكم

وجواهر زنجي اسود تماما ، ذو ملامح افريقية كريمة ،  
طويل وممين جداً ، ومختال جداً . كان قد ارتدى الفخر  
ملابسه لاستقبالنا ، عدد من الحبيب الحرية المزخرفة واحدة  
فوق الأخرى ، وسراويل بزرقة السماء - أشياء جديدة علينا  
في بلاد العرب - وعباءة سوداء ومذهبة وكوفية ( غرة )  
ارجوانية . كان قميصه قاسياً بسبب النشأ ، وتصدر عنه  
فرقعت كلما تحرك ، وبدا بشكل عام كحاكم بربري مستبد ،  
يتمنى المرء مشاهدته . لقد جعلنا ننتظر عشر دقائق في الفهوة  
تقريباً ، ليزيد ، كما افترض ، من امميشه ، ثم دخل خلف  
موكب من الرجال المسلحين ، وكلهم مجهزون بسيوف ذات  
مقابض فضية ، وأحزمة مزخرفة بالنقش ، وكوافي ( غرة )  
زرقاء وحمراء ، مشبته بمقالات بيضاء ثخينة وتصنع اصفاء  
جو من اللطف ، باهت نوعاً ما ، لشخصية ملكية ، متقلبا في  
الحديث من موضوع إلى آخر بدون تمهيد ، واحياناً يطلب  
تفسيراً لملاحظاتنا أو اسئلتنا من شخص أو آخر من الحاضرين  
ولقد ادهشني كأمر محال للغاية أن اشاهد هذا الزنجي ، ولما  
يزال محاركا ، مركزاً لمجموعة متملقة من رجال البلاط البيض ،  
لأن العرب ، وكثير منهم نبلاء كرام المحتد . كانوا ينحنون

امامه ، وعلى امتداد لاطاعة أدنى اشارة من طرف عينه  
ويضعكون لائقه نكتة من نكاته .

## احاديث عن مشايخ العرب

بعد بضع لحظات من الصمت المهيّب ، أصبح ( جوهر ) ،  
كما قلت ، ودوداً ، وبدأ يسأل عن الاخبار . انا قدمنا من  
الشمل ، وكنا قادرين على أن نخبره بكل شيء عن الحرب .  
ماذا كان يفعل ( صطام ) وماذا كان يفعل ( ابن سمير ) ، من  
الواضح ان الأخير بطل بالنسبة للجوفايين أو على الأصح لأهل  
حائل ، لأنهم لبسوا أصدقاء ( صطام ) ، ومحمد الدوخى ،  
الشيخ ، يعتبر ( صطام ) منافساً كبيراً . وكنا ممرورين انا  
نستطيع أن نقول أننا رأينا ( ابن سمير ) في دمشق منذ مدة  
لا تبلغ الشهر .

وأخيراً ( جوهر ) عن تقرير حمله مؤخراً الى سكاكا بعض  
( الصلّب ) ان ( الرولة ) قد مزمت في قتال مع محمد الدوخى  
وان ( صطام ) قد قتل تقرير أسفا لمامه .

## ”السلطان“ و”المسكوف“ !!

ثم سألنا ، ولكن بنقطة ذات اهتمام أقل ، عن السلطان .

لقد عقد صلحا مع المكوف (الروس) ، وصر جوهر لبيع ذلك : الصلح خير ! والآن ، إن شاء الله السلطان مبسوطين ، قال هذا بلهجة عاطفية مصطنعة معاضدة ، وبرنين أغن في الصوت ، كان مضحكا الى منتهى الحد . وعندئذ دار ممس قصير بين محمد وواحد من الحاشية ، انتهى بفروجهما معا ، ليسلما الجوهر الهدايا التي جئنا بها من أجله .

## هريه ٠٠ تم تصريح بالسفر الى هائل

وأعتقد أن محمدا وضع موضع الاستجواب بالنسبة لمكررة وأهداف رحلتنا ، وأجاب ، كما كنا اتفقنا من قبل أن يفعل ، بأننا ذاهبون إلى البصرة لمقابلة أصدقاء ، وأتينا جئنا بطريق الخوف حتى تتجنب الرحلة البحرية . كان هذا حقا ، ولو أنه لم يكن بأية حال كل الحق ، كان حقا بالنسبة لما حدث ، وكان قصة سهلة الفهم ومقبولة من أولئك الذين رويت لهم . وأضاف محمد فوق ذلك ، أنه من حيث أنه حدث أمر غمر في أملاك الأمير ، فإن (البك الانكليزي) كان حريصا على أن يقدم احتراماته لابن رشيد في حائل قبل أن نذهب أبعد من ذلك ، ورحا جوهر أن يمنعنا الادلاء اللارميين . وكان هذا ما اقتنع الخاكم بفعله ، بعد بحث وبعض النفور من قبله . لقد رقى قلبه بالتياب الجميلة التي قدمناها له ، وأعتقد أن هدية صغيرة في شكل نقود جرى حديث في أمرها بينه وبين محمد .

## (جواهر) بقیہ مادیہ افطار :

عندما حضرنا مرة أخرى الى مجلس جواهر ، في أعلى البيت هذه المرة ، وجدنا رجلاً زنجياً غارقاً في الابتسامات ، وان رحلتنا قد بحثت كأمير مفروغ منه . ثم مدت لبط ، وجلست جيباً على السطح ، وتناولنا طعام الافطار ، نجاً مسلوفاً ورراً ، و ( صلصة ) لذاعة ( حريفة ) توضع على الرز ، وبعد الغسل المعتاد و - الحمد لله - انسجنا ، في غاية السرور لتخلص من الذباب والشمس الحارقة في سطح جواهر ، ولم يكن امتدادنا قليلاً لنحوّل الامور لصالحنا ، وكما لاحظ ( ولفرد ) عندما استوبنا على أمهارة مرة أخرى متجهين الى المنزل ، كان جواهر صورة لتبدي متقلب الاطوار ، الذي كان يمكن ، إذا كان مراجع منكرراً ، أن يأمر بقطع رؤوسنا ، بحتفال أكبر من احتفائه باصدار أمر باعداد طعام الافطار . لقد كان يوماً في سكاك يوماً هادئاً .

## مناخ بلاد الجوف وجوها

١١ يناير : - ( ١٨٨٠ م ) .

كل صباح منذ أن أتينا هنا يوجد ضباب ، وانيوم ( السبت )



كما قلت ، نزل المطر غزيراً ، جاء المطر مع رعد وبرق ، وكما اعتقد ، فان الحال هي دائماً في الغالب هكذا في هذا الجزء من العالم . واني لمسته أن أعلم ، عند الحديث عن البرق ، انه لم يسمع أحد في سكاكا عن أناس قتلهم ، ومحمد يؤكد ذلك بقوله : ان القضية هي يمينها في قديم . وبدأ مندهشاً عندما سأله ، كما اندهش من أن البرق يظن انه خطر ، ويقول : إن حوادث بسببه لم تحصل مطلقاً في الصحراء . ان هذا غريب . ان سطح التربة في سكاكا يكاد يكون رملانياً ، ويمرر المطر من خلالها بالسرعة التي يسقط بها ، ويبقى فقط في تجويفات قليلة ، حيث يوجد نوع من الرواسب صلباً بحيث يكفي لان يحتجزه .

صفا الجو بعد الظهر ، وقمنا باستطلاع صغير إلى قمة التل المنخفض خارج مزرعة ناصر والتل من الصخر الرملي ، ذو لون برتقالي من الأسفل ، ولكن عوامل الجو جعلت لونه اسود على سطحه العلوي ، وارتفاعه لا يزيد على مائة قدم ، وبتنصب وحيداً ، وبسيطر على منظر تمتد ، غريب ككل المشاهد في اقليم الجوف ، وجميل جداً بالاضافة إلى ذلك . وفي الاسفل قدما عند صدر المنظر تمتد مزرعة ، حوش مربع مسور مكون من ثلاثة أو أربعة فدادين ، بنخيله وأتله ، ومنزله الواطنين المنين باللبن ، وآباره ، بكل هذا يبدو منسقاً ومرتباً وكثير الخيرات . وما وراء ذلك ، يرى الناظر

إلى ناحية الغرب ثلاث حقول أخرى ، يقع من الحضرة  
 العميقة ، في بركة متكسرة من الرمال والصخور الرملية ، ثم  
 خلفها ( سكاكا ) ، ذوابات نخيلها فقط يمكن أن يرى ،  
 والكتلة السوداء للقلعة ترتفع فوقها في معلم رائع . وامتد  
 الخط الطويل لخرج النخل إلى الجنوب ، مخفية في النهاية في  
 كتلة مشوشة من التلال الرملية . حدثت هذه بقعة خاصة  
 ملاحظتنا ، لأنها حدثت معصم بداية النفود ، ليس النفود  
 الكبير حقا ، بل مجموعة من الكثبان المتعزلة لما عليه الغضا ،  
 وليست بأية حال غير شبيهة بتلك التي نمر من خلالها سكة  
 حديد ( بنويا ) ور كاليه . ان طريقنا كما يعرف ، تمتد عبرها ،  
 واتنا ستطلق غدا .

## كتابة أثرية .

بينما جلست اعد رسميا تخطيطنا لهذا مظهر لعرب ،  
 عاد ( وفرد ) الذي كان قد سلق إلى قمة صخرة صوبه ،  
 نتوج التل - عاد ليخبرني انه اكتشف نقشا . لقد حتما  
 سمحت ، مدد وصول في منطقة الصحور الرملية ، عن آثار  
 لكتابات قديمة ، ولكننا حتى الآن لم نجد شيئا الا بعض خدوش  
 مشكوك فيها ، وقليل من هذه هي تسميات بسيطة يحدها .

المرء في كل مكان الصخور الرملية ، غمل حملا وغزلا . وهنا ،  
على أية حال ، كانت ثلاثة أحرف واضحة التكوين ( رسم  
الأحرف على ص ١٤٨ من المجلد الاول من الكتاب ) انسان  
منها بنشيمان إلى الايحية اليوغاية .

وكان واضحا ، ايضا ، من لون الحر انها وجدت هناك  
مند صين كثيرة . وعلى هذا بنينا عددا من التفسيرات التاريخية  
تتعلق بسكاكا ، وحالتها في الأرملة الكلاميكية .

## استعداد للسفر الى حائل

وعندما عدنا إلى المنزل ، وجدنا أن عمدا كان بعد الترتيبات  
الآخيرة مع جوهر من أهل رحلتنا لقد أثار الرجل العظيم  
اعتراضات على نقطة من نقاط المفاوضات ، ولكن هذه موبت  
بدهب ( أو بقطعة ذهبية ) ، وقد وافق الآن اب يرسل  
رجلا معنا ، دليلًا محترفا لعبور النفود .

وببدو ان هناك خطين بها يمكن الوصول الى حائل ،  
احدهما يقطع في ثلاثة عشر يوما والآخر في عشرة أيام .  
ويقولون ان الأول أفضل بالنسبة للجمال الموقرة ، لأن الرمل  
أقل عمقا ، الا ان من المحتمل ان نختار الطريق الأقصر ، اذا  
كان من أجل أن نرى النفود في جزئها الأسوأ فعسب . لأن

النفود كان موضوع احلامنا طيلة هذه الرحلة ، كصحراء ليس  
 ما يفوقها في العالم . لقد جمعنا عندها تقرير عجيبة هنا ، وعن  
 الناس الذين فقدوا فيها ان رحلة العشرة أيام هذه تمثل شيئاً  
 كئسي ميل ، وليس هناك الا بئران على الطريق ، الأولى في  
 نطاق مسافة اليوم الثاني ، والأخرى في اليوم الثامن . سيحضر  
 الدليل بجملة ، وسيحمل قريبتين من الماء ، وقد اثارنا نحن  
 أربعاً أخرى ، ليصبح المجموع ٨ قرب . وهذه سوف تكفي  
 امهارة وتكفي ، وعلينا أن نكون حريصين . لقد حملنا  
 كميات كافية من التمر والحلوى ، وما زال لدينا واحد من  
 الجديين ، لنستعمله حماراً ، اما الآخر فقد أكل كما سبق أن  
 قلت ، ولا يمكن التعويض عنه بآخر . ان الميزة من كل نوع  
 يصعب الحصول عليها في سكاكا .

## اختبار بين طريقتين

واستطاع حوهر أن يحصل لنا على حل سهل من الحطة  
 استعمال بعض التهديد تقريباً بالأسلوب التركي

كف المنظر والقمر مشع ، وعدتنا لعبور النفود شيئاً وفي  
 بضع ساعات سنكون في طريقنا . سنحتاج الى كل قوانا من  
 أجل الأيام العشرة التالية .

## القسم الثالث

« النفود »<sup>(١)</sup> - بين « الجوف » و « جبهه »

[ لعل أم ما صنعناه في « الفصل - وهو الثامن من الجزء الأول من الكتاب - (إن جاهد الله عند الغلبة عن الشاؤم » موضوع أحلامه . التي تحققت . . . . . حبه . حبه » النفود ، وطبيعة أرضه . وثباته . والحياه فيه ] .

---

(١) النفود هي الكشور لرومية . التي شتم مساحة كبيرة في الجزيرة . ولعل أصل الكلمة التي لم نذكرها على ذكر في المعاصم «النفود» بأغلاء . فحركات وهذا « النفود » الذي نتحدث عنه الرحاء الحره السحلي من المعاصم ويعرف قديماً برمل « عاليج » .

[ كنا الان نعبّر محيطاً واسعاً من الرمل المحمر غير  
 المتأمسك ، غير محدود بالنسبة لتعين ، متراكماً في  
 سلاسل هائلة تجري متعاضدة من الشمال الى الجنوب ،  
 تموجاً اثر تموج ، وترتفع كل منها الى مائتين او ثلثائة  
 قدم في المتوسط ، بجوانب منحرفة وقتن مستديرة  
 متجمدة في كل الاتجاهات بفعل انواء الصعواء المتقلبة  
 الاموار . وفي الاعماق ، بينها يجرد المسافر نفسه كما  
 لو كان سجيناً في حفرة رملية خائفة ، محاصلاً بأسوار  
 لاهبة من كل جهة ، واحياناً ، وهو يكذب في صعود  
 المنحدر ، يطل على ما يبلى بجزراً واسعاً من النار  
 تتصاعد تحت ربيع موسمية شديدة ، وتتجدد بفعل  
 انفجار مضاد في موجات حارة حمراء صغيرة ] .  
 بلجريف

## في وداع « آل عروج » :

١٢ يناير : ( ١٨٨٠ م ) .

عادرة المزرعة هذا الصباح في ضباب كثيف ، وسط

تبركات آل عروج . لقد عامونا بلاصف ، ولقد آسفينا أن  
 نودعهم ، خاصة تركي وعربي ، ونو ننا أصلاً نخبة أمل -  
 بعض الشيء . في توقعاتنا عن العائلة بصفة عامة ، فالرغم من  
 كرم محند وتقاليدهم النجدية ، فإن لهم نقصاً عرب المدينة  
 بالنسبة للنقود

## في انتظار هدايا .. ! :

وكان صدمة شعورنا أن نصرأ - مصيف - توقع مدية  
 صغيرة في شكل نقود عند رحيلنا ، اسمياً للنساء ، ولكن في  
 الواقع وبدون شك له هو نفسه . إن شيخاً من شيوخ الصحراء ،  
 مهما كان فقيراً ، لن يصع في حبيبه حبيباً . والعلمان ، أبصاً ،  
 طلبوا هدايا ، إذ طلب الأكبر معطفاً ، لأن واحداً قد  
 أعطى لأخيه ، والأصغر حبة . لأنه كان لديه دغفل معطفه ،  
 وحاء أعضاء آخرون في العائلة بعمباب صغيرة مملوءة نمرأ أو  
 صنناً يحملوه في أيديهم ، في شكل قرابين للوداع ، ثم  
 تربوا منتظراً الشيء مثابلاً . وكان كل هذا بالطبع عادلاً ،  
 وكنا مسرورين أن نجعلهم سعداء بنقودنا ، ولكن قل أن  
 يناسب مع المواقف الجميلة التي اعتادوا أن يعبروا بها بمساة  
 وبدون مأساة ، عن واحسات الضيافة وخيبات أمال كهده  
 يجب أن نحتمل ، وأن نحتمل ببتماج ، لأن الناس ليسوا  
 كاملين في أي مكان ، والمسافر ليس له حق أن يتوقع في الخارج

أكثر مما كان ميلقى في وطنه. ففي إنجلترا ربما لم تكن لتقبل على الإطلاق ، بينما كان الترحيب بنا هنا صادقا تماما منذ البداية ، مهما تكن الفكرة اللاحقة ( الطارئة يمد ذلك ) .

## قبضت الوداع :

ومكذا قبلنا ولفردا الأقرباء جميعا ، وتبادل معهم وعود حسن النية المتبادلة وأمال اللقاء ، وذهبت إلى ( الحرم ) لأودع بقبة المائدة ، لحسن الحظ لم يكن متوقفا مني أن أقلهن جميعا ، ثم انطلقنا في طريقنا .

## ثم انطلقنا في طريقنا :

امتد دربنا في اتجاه الجنوب فوق تلال رملية رأيناها أمس ، وهي الآن تمحجب عن نظرتنا (سكاكا) وأحراج نخيلها ، ومرة أخرى نقص عدده إلى جماعتنا المسافرة المكونة من ثمانية أنفس ، مع راضي دلبنا الجديد ، ومرنا باعتدال في الطريق إلى حائل . هذه الكثبان الرملية ليست حقيقة هي النفود ، وهي لشه كثيرا ما يمكن أن يشاهد في أي مكان من الصحراء في الصحراء الكبرى مثلا ، أو في بعض أجزاء من شبه جزيرة سيناء . إنها جديرة بالتصوير ، من حيث كونها من الرمل الأبيض النقي ، بين خمسين إلى ١٠٠ قدم ارتفاعا ، تتداخل بينها مسافات ذات أرض أصلب ، وهي مغطاة بالنبات .



وينمو الفضا هنا بحيث يصير شجرة ذات جذع رفيع ملتوي ،  
أبيض تقريباً ، وورقة ريشية غبراء .

قابلنا بعض الرعاة مع قطعانهم ، أرسلوا هنا من المدينة  
للرعي ، وجماعات من النساء يحمن حطباً .

## عود الى محمد وعروسه :

سلاماً محمد كثيراً جداً طيلة الصباح ، بحديثه إلى هؤلاء  
الخطابات . لقد دبر أن ينال لحة من عروسه المقيمة وأختها  
قبل أن تبدأ السفر ، وهو يتخيل نفسه في حب قانط ،  
ولو أنه لا يستطيع أن يقرر أية الاثنين يفضل . فاحياناً  
هي مطرة ، كما يجب أن تكون ، وأحياناً الاخرى ، لا لسبب  
أوجه ، في مبلغ علنا ، أكثر من أنها أطول وأكبر سناً ،  
لأنه لم يروجهما . وأظهر حديثه اليوم مع الخطابات مذاجة  
في العقل ، لم يربأ أحداً فيها . كان يركب منطلقاً كلما رأى  
جماعة من هؤلاء النساء ، وعندما يلحق به كنا نجده في الغالب  
في محادثة جادة مع أكبرهن سناً وأقبحهن خلقاً في موضوع  
قلبه . وسيبدأ في سؤالهن ما إذا كن من (سكاكا) وسوف يدور  
في الحديث إلى أسرة ( ابن عروج ) ، وإذا وجد ان النساء  
يمرقن ، فسوف يسأل بغموض : كم توجد في بيت (جازي) ؟ وما  
إذا كن متزوجات أو غير متزوجات ؟ ثم سوف يلح إلى انه  
سمع ان الكبرى جميلة جداً ، وسوف يسأل باحتراس عن

الصغرى ، منتهيا دائما إلى الكشف عن انه هو نفسه  
 ( ابن عروج ) من ( تدمر ) ، وانه خطب آية واحدة من غير  
 المتزوجات ، التي بدا ان النساء قد أطربنها في وصفهن . وهذه  
 الطريقة فقد عقله تماما حول الاختين ، أحيانا يتخيل انه  
 أسعد الرجال ، وأحيانا ان ( جازي ) قد خدعه بإعطائه أقل  
 ابنتيه قيمة . وفي مثل هذه المناسبات كان يلتفت إلى ويرجوني  
 أن اكرر للمرة المئة وصفي لفضائل مطرة ، الذي سيمزيه  
 حتى يقابل أي انسان لنثور شكوك في عقله .

## ( قارة ) احدى قرى الجوف

بعد سفر ثمانية أميال خلال كتيان الرمل ، خرجنا فجأة  
 إلى قرية ( قارة ) وهي آخر ما سوف نرى لأيام كثيرة .  
 وتسيطر عليها رابية صخرية عليها تحريّة .

وهي لمحتوي على سبعين أو ثمانين منزلاً . وخرج النخل  
 المحيط بها جدير بالاعجاب لنخله وأثله .

انقش الضباب وصارت الشمس حارة بما يكفي لجلعنا  
 نشمر بالبهجة أن لجلس بضع دقائق تحت السور الطيني الذي  
 يحيط بالواحة .

خرج بعض القرويين ودار حديث قصير عن ( قارة )  
 وشيخها ، بينما كانت أمهارا تروى من بئر قريبة . اخبرونا

اننا منجد نعيم ( الرولة ) ليس بعيداً في طريقنا ، لأن إبلهم تروى من نفس هذه البئر . وفيما سلف كانت ( قارة ) مثل ( الجوف ) و ( سكاكا ) ، اقطاعية لابن شعلان ، وما زالوا يدفعون اثاوة صغير ( لصطام ) ، ولكهم بدورهم يعملون البئر يدفعون من أجل الماء .

ليس هناك خطر مهاجمة ( الرولة ) أو غيرهم لنا ، لأن الآن في بلاد ابن رشيد ، حيث قطع الطريق أمر غير مسموح به . كان القاربتون كرماء في عروضهم لاستضافتنا إذا كنا سنبقى في ( قارة ) ، إلا أنه لم يكن في إمكان من نبيه منير بما يكفي لتعويقنا ، وعلى ذلك فقد واصلنا سيرنا ...

إنها كالجوف وسكاكا ، منحوي على قلعة خربة يعني تل منخفض ، ولكن الاطلال الآن ليست أكثر كثيراً من أساسات لأسوار صخرية قديمة بنيت من غير ( سميت )

## السفر من ( قارة )

بعد مغادرتنا القرية لوقت غير طويل ، صادفنا جماعة من الرولة مع عدة مئات من الابل قادمين إلى ( قارة ) من أحسن الماء . كانوا غير مسلحين ويسبرون مسانين كما يفعل الفلاحون في إيطاليا . احبرونا ان نعيمهم كان خارج طريقنا وبعيد جداً ، لأن نلمح القبة ، ولكننا منجد بنشنة بن شعلان ، ابن

عم ( صطام ) قريباً من ( بشر شقيق ؟ ) مورد ريتنا غداً .  
 انه ليرهان واضح على استناب الأمن في البلاد انت تجد  
 سماعات من القرويين ، كما وجدنا الآن ، في كتبان الرمال وراء  
 ( قارة ) بأمال كثيرة ، مع كل هؤلاء البدو . إلا انه يبدو  
 حقيقة وجود القديون والنظام في حكومة ابن رشيد .

بعد استمرارنا في السير ساعتين أخريين ونصف ساعة في  
 أرض متكرسة انتهينا أخيراً الى مرتقى واقف الانحدار بزمن  
 - عند صعودنا له - على انه اقصى طرف لمنخفض ( سكاكا ) ،  
 وفوقه وحدنا أنفسنا في سهل حصاوي .

## وصف ( جيولوجي ) للجوف وما حوله

ان المنظر من هذا الطرف ، وأنت تنظر الى الخلف ، كان  
 مدهشاً ، وقدم لنا في الحال فكرة عن ( جيولوجية ) المنطقة  
 كلها ، حوض ( سكاكا ) الكبير بتلاله واتلال الرملية ، ومسلّة  
 التلال الطويلة التي تقع الواحة تحتها ومسلّة جل ( الحمامية )  
 أيضاً ، كلها مجرد جرر في الحوض ، وهو يبدو بالاضافة الى  
 ذلك انه يضم الجوف وكذلك القرى الشرقية في المحيط الرئيسي  
 له . و ( ولفرد ) الآن لسيه شك قليل في ان ( سكاكا ) والجوف  
 هما حقاً الذيل ، كما كان الأمر بالنسبة لوادي السرحان أو على  
 الأصح رأسه ، لأن من المهم أن يكون الكل في شكل شيء

ما ، يشبه حيواناً مائياً كالضفدع ( أبو ذنبة ) ، وهذه النقطة هي أنفه .

ان ( الحماد ) أو السهل حيث كنا الآن ، أعلى من (قارة) و(سكاكا) بـ ٣٥٠ قدماً ، أو ٢٢٢٠ قدماً فوق سطح البحر . وهو مستو غاماً وخال من النباتات ، امتداد مسطح أسود من تربة حصى مغطاة بحصى صغيرة مدورة ، يمتد الى الجنوب الغربي حتى الأفق ، ولا يشبه أي شيء في الحوض الأسفل . اندمجتنا كثيراً أن نجد سهلاً مفتوحاً كهذا أمامنا ، لأننا الآن لم نتوقع شيئاً غير الرمال ، ولو أننا لم نستطع أن نراها ، إلا أنها لم تكن بعيدة ، وهذا فقط كما لو كان شاطئ النفود الكبير .

## ( النفود ) من بعيد :

وفي الساعة الثالثة والنصف ( بعد الظهر ) رأينا خطاً أحمر على الأفق أمامنا ، انتصب وتجمع عندما اقتربنا أمامه ، وامتدأ الى الشرق والغرب في خط غير منكسر . وربما ظن في البداية انه من تأثير السراب ، ولكن عند الاقتراب منه أكثر وجدناه منكسراً الى موجات عظيمة ، وفيما عدا لونه الأزرق فإنه غير بعيد الشبه ببحر عاصف يشاهد من الشط ، لأنه يعلو ، كما يبدو أن البحر يعلو ، عندما تكون الامواج عالية ، فوق مستوى سطح الارض . وهتف شخص ما :

« النفود » ، ا ومع أننا كنا لبرمة غير مصدقين ، فاننا اقتضنا  
 بسرعة . ان ما أدهشنا هو لونه ، الذي بلون ( الراوند ) ،  
 و ( المنفيسيا ) ، والذي لا يشبه أبداً أي شيء من الرمال التي  
 رأينا حتى الآن ، ولا أي شيء توقعناه . ومع ذلك فقد كان  
 النفود ، صحراء أواسط بلاد العرب الحمر . وفي بضع دقائق  
 كنا قد وصلنا غيبها إليها وكانت أمهارنا تنقف بحوافرها على  
 موجاتها الأولى .

## عن خصائص ( النفود ) الطبيعية

١٣ يناير : ( ١٨٨٠ م ) .

لقد كنا كل طيلة اليوم في النفود ، وهو متبر للاهتمام فوق  
 ما أملنا ، وساحر فوق الحد الذي توقعناه ، وهو الى جانب  
 ذلك ، مختلف تماماً عن الوصف الذي أتذكر أني قرأته عن  
 ( النفود ) لستر بلغريف ، والذي يؤر في المره ككابوس لرعب  
 مستحيل . صحيح انه عبر النفود في الصيف ، ونحن الآن في  
 منتصف الشتاء ، ولكن السمات الطبيعية لا يمكن أن تتغير  
 كثيراً بتغير الفصول ؛ ولا أستطيع أن أفهم كيف تفاض عن  
 خصائصها الرئيسية . ان الشيء الذي يدهش المره عن النفود  
 لأول رهة هو لونها . انه ليس أبيض ككتابات الرمل التي  
 مررنا بها أمس ، ولا أصفر كما هو الرمل في أجزاء من الصحراء  
 المصرية ، ولكنه في الواقع أحمر فاتح ، قرمزي تقريباً في

الصباح حين يكون ندياً بالطل . إن الرمل خشن نوعاً ما ، ولكنه نقي تماماً ، لا تخلطه أية شائبة من غصير أجني ، حصاء ، أو حصي ، أو طير ، وهو في نفس الثوبن والنسيج في كل مكان .

## نبات ( النفود ) الفضا ، والارطى :

وان خطأ كبير أن نفترض انه مجرب ، فالنفود ، على العكس ، أوفر بالأشعار وأعنى الكلأ من أي حزة آخر من الصحراء مررت به منذ أن تركت دمشق . إنها مكسوة بأحبات الفضا في كل مكان . واحبات من نوع آخر يسمى « بالارطى » ، التي هي في هذا الوقت من السنة حيث لا أوراق بالضبط . مثل كرمة كثيفة التعريش ان فروعها ذات العقد وحذاء دا لايف يعطيها إلى درجة كبيرة ، منظرًا ، تطوي عليه قصة عن اها كانت في الاصل كرمة . بقول راضي : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جاء ذات يوم إلى مكان يوجد فيه حائط سب ، فوجد بعض الفلاحين يشدون أشجاره . فألهم مرا كانوا يصنعون ، وعما كانت تلك الشجيرات . وخوفاً من سحقه أو طمعا في السجيرة به أ-ايوه . بأها شجيرات « لأرطى » ، ركاد « الأرطى » ، هو أول اسم فعر إلى أذهانهم ، فرد الذي <sup>يُطَيَّب</sup> : « أرطى ان شاء الله » ، فلتكن ارطى إذن . ومنذ ذلك اليوم توقفت عن أن تكون عيباً ولم تحصل ثراً .

وإلى جانب ذلك توجد أنواع عديدة من كلاً الأبل ، خاصة نوع جديد بالنسبة لنا يسمى العاذر ، الذي يقولون إن للفقم يمكنها أن تعيش عليه شهراً بدون أن تحتاج إلى ماء ، وأكثر من نوع واحد من الحشيش . ومن أجل ذلك فقد صرت كل من الأبل والامهار بالكان ، وابنتهننا نحن وفرة الوفود من أجل مخباتنا .

## الحياة في ( النفود )

ويقول ( ولعرد ) أن النفود قد حل له في النهاية السر الغامض لتربية الخيل في أواسط بلاد العرب . ففي الصحراء القاسية لا شيء . هناك يمكن للخيل أن تأكله ، ولكن هنا يوجد الشيء الكثير . ان النفود بفسر كل شيء . فبدلاً من أن يكون المكان الموحش الذي وصفه عدد قليل من الرحالة الذين شاهدوه ، هو في الواقع موطن البدو أثناء حزم كبير من السنة . ان حاجته الوحيدة هي الماء ، لأنه لا يحتوي إلا على آبار قليلة ، وعلى طول أطرافه نشد كثافة السكان .

ويخبرنا راضي أنه في الربيع ، حين تقطر الحشائش بعد المطر ، لا يتم البدو بالماء ، من حيث أن أبلمهم تكون حلوبة ويمبشون أسابيع بدونه ، يحبون موغلين في الحزم الداخلي من الصحراء الرملية .



## المتنفضات في ( النفود )

كان سفرنا طيلة اليوم خلال النفود ببطء ، وشغلنا أنفست بدراسة ملامحها الطبيعية . وبدأت لنا من أول نظرة فوضى شامة ، ومكومة هنا ومجوفة هناك ، وسلاسل وتقاطيع سلاسل ، وعقد آكام كلها في اضطراب كلي ، إلا أننا بعد سيرنا بعض ساعات بدأنا نكتشف اطرادا في عدم النظام ، نحن مشغولون بمحاولة تملينه . ان أكثر ملامح النفود المارة للدهشة هي التجويفات الحكيمة لها شكل حافر الحصان ، وتنتشر في كل مكان ( ويسميا راضي فلجا ) . وهذه ، ولو انها تختلف في الاتساع من فدان إلى مائتي فدان ، جميعها متشابهة في شكلها واتجاهها بكل دقة .

انها تشبه بالضبط أثر حافر حصان بدون حذوة ، أي أن حزة مقدمة الحافر حادة وعمودية ، بينما ان حرف الحافر يستدق تدريجياً الى لا شيء عند الكعب ، وكلوة الحافر رغم أنها تقريبية إلا أنها ممثلة في المركز بأرض منكسرة ، مكونة من تلاقي مجاري المياه . ان قطر بعض هذه - الأفلاج - يجب أن يكون على الأقل ربع ميل ، وعمق أعفها ، وهو ما قمنا بقياسه اليوم ، أثبت أنه ٢٣٠ قدماً ، وذلك يحفظها تنخفض تقريباً الى مستوى السهل الحصابوي الذي عبرناه أمس ، والذي يستمر تحت الرمال ، مع احتمال قليل للشك في هذا ..

ويبدو هذا أكثر احتمالاً ، من حيث أننا وجدنا في قاع أعرق (فلج) ، ودون أي مكان آخر ، قطعة من الأرض الصلبة .. كان أعرق ثاني - فلج - قناه مائة وأربعين قدماً فقط ، وكان مع ذلك رملياً في أوطأ نقطة منه ، أي تحت نقطة كلوة الحافر فقط . ومع أن التربة المكونة لجوانب الأفلاج وكل جزء فيها هي من الرمل الخالص ، وأن السطح المتأثر من الحتم أنه في حالة انتقال مستمر ، فإن من الواضح تماماً أن التعطيط العام لكل منها بقي سني ، وربما قرناً ، بلا تغيير . والنبات ينبت هذا ، لأنه ليس نمواً حدث بالأمس ، ولأنه يغطي الأفلاج كما يغطي غيرها . وفوق ذلك ، فدليلنا الذي سافر في النفود جيئة وذهاباً أربعين سنة ، يؤكد أنها لم تتغير . وما من عاصفة رملية تملأ قط التجويفات ، أو تذهب بالحواف . وإنه لم يعرفها جيباً ، وقد كان يعرفها منذ أن كان صبياً . ولقد خلقها الله هكذا ، ١١ .

## تعليل تجويفات (النفود) :

وعلى أية حال ، فقد كانت ولفرد .. يبحث عن نظرية طبيعية لتفسير تكوينها - أي الأفلاج - ، ولكنه لما استطاع بعد أن يقرر ما إذا كانت راجعة إلى فعل الريح أو الماء ، أو إلى عدم التساوي في الأرض الصلبة تحتها . ولكنه الآن

يميل الى نظرية الماء . وربما يستطيع أن يقول عنها أكثر في  
بعد ، عندما نكون قد رأينا كثيراً منها ، ومن أجل ذلك  
فاحتفظ بملاحظاتي .

لقد سافرت يوماً بطوله ، مكنت في السير في الرمال التي  
تغوص فيها أخفاف الابل حتى الرسع ، والآن قد حان الوقت  
لأن نهتم بأمر ( حشاً ) الذي هو مشغول بالضيغ . ان ارتفاع  
مخيمنا ٢٤١٠ قدماً ، ولكن أعلى مستوى عرناة خلال اليوم  
كان ٢٥٦٠ قدماً . لم يشاهد أحداً طوال اليوم إلا واحداً من  
الرولة على ذلول ، أخبرنا ان ممكراً يوحده على يسارنا .  
بحشاً عنه ، ولكنا ميزنا فقط جمالاً على مسافة كبيرة .

١٤ يناير : ( ١٨٨٠م ) .

صباح آخر مشرق وضائع ، ولكنه مع ربيع باردة من  
الجنوب الشرقي . لا شيء يمكن أن يكون أكثر إضرافاً  
وتوهجاً من شمس الشتاء من هذه الرمال الحمراء . ها  
هي - الأفلاج - مرة أخرى موضوع التلهاها . اننا نجد أنها  
جميعاً تشير الى نفس الاتجاه ، أو تقريباً هكذا ، أي باتجاه  
مقدمة حافر الحصان نحو الغرب ، ولو أن جزء المبل الأشد  
المحداراً يختلف قليلاً ، مع كون المظهر الحوي أحبباً وأحياناً  
المظهر الشمالي أكثر وعورة من ذلك المواجه للشرق وهذا  
يبدو أنه إشارة إلى الريح أكثر من الماء كسبب أصلي  
للتخفاض . وفوق ذلك ، وعلى طرف - الأفلاج - الكبيرة

يوجد بصفة عامة رابية مستطيلة من الرمل ، ذات رأس ،  
كالذي يراه المرء على رأس قمة تلج ، ومن الواضح أنه تسبب  
عن الريح ، من حيث أن الجزء المحبوب عن الريح ذو انحدار  
فحائي حاد والجزء المرحص للهواء مستدير .. ويبدو أن هذه  
تتغير بتغير الريح وهي بصفة عامة عارية من السات ، ورمليها  
أخف صفرة مما عداها ، وهو أمر فريد يمكن للمرء أن  
يؤمن وجود فلج عميق عن بعد كبير ، بوجود واحدة من هذه  
الآكام ذات المظهر الثلجي على الأفق . ومن المأثر أن يستطيع  
المرء الرؤية البعيدة في النفود ، من حيث أنه دائماً يكيد صاعداً  
أو هابطاً منحدرات رملية ، أو برحف كعربة ذات حصان  
واحد حول حافات هذه الأحواض الكبيرة . والارض بصفة  
عامة على درجة من الاستواء ، فقط حول المنخفضات والمرء  
يذهب من فلج إلى آخر من أجل أن يستفيد من المستوى ..  
ولقد صعدنا إلى رأس واحدة أو اثنتين من أعلى القمم الرملية  
ومن فوق واحدة منها استطعنا أن نرى صفناً من التلال على  
بعد حوالي ١٥ ميلاً إلى الغرب - يحيط غرباً ، مع رأس  
منعزل إلى ما وراءها ، عرفناه كـ ( رأس الطوبى ) الذي  
دللنا عليه يوم وصلنا الجوف . ومن هذه الارتفاعات أيضاً  
استطعنا أن نلاحظ وضع الأفلاج ، ونميز أنها تتوالى الواحد  
بعد الآخر في صفوف ، ليست دائماً في خط مستقيم ، بل كما  
يتجه راد متعرج ترجحاً لطيفاً . وهذا ما جعلنا نفكر مرة  
أخرى في نظرية الماء .

ويظن ولغرد أنه ربما يوجد المنحدر تدريجي في السهل تحت الرمل ، وأنه حينما ينزل المطر ، كما يجب أن يحدث هنا أحياناً ، يتسرب خلال الرمل إلى الأرض الصلبة ويمر في تحت الرمل على طول وديان ضحلة متعرجة ، وأن الرمل بهذه الطريقة ينزل باستمرار بالتدريج إلى المنحدر ، وحينما يوجد المنحدر في السهل من أسفل ، هناك يحدث انفلاج فوقه .

إن هذا الرأي يسنده ما لاحظناه من الأماكن الجديدة ، حيث يحدث مثل ذلك ، لأنها دائماً تنحدر إلى الغرب . ويؤكد لنا راضي أن الماء لا يتجمع قط في الأفلاج حتى بعد المطر أنه يجري إليها ثم يختفي .

## حول خصائص بعض القبائل

وبينا كنا نبحث هذه النقاط المتعلقة بالتاريخ الطبيعي ، شامداً فجأة ابلا رعى في حافة فليج لا يبعد نصف ميل أسفل منا ، فامتطينا أمهارة على عجل شديد ، لقد اخترعت عصاية تمكنني من الركوب بسرعة ، ومنذ حادثة الغزو في وادي السرحان ، ما زلنا حريصين على الاحتراز من الأعداء والمنحدرين راكبين لنرى ما أمكن رؤيت ووجدنا في الحال ستة - نصف درزن - من الناس ، رجالاً ونساء ، في فليج ، وعددنا آخر من الأبل رعى قرب خيمة . كانت الخيمة مجرد

ظلة مع خفيفة لها ، وبمجرد ما رأوة أسرع النساء إلى  
فلما ، في حين اندفع الرجال إلى أقرب الجمال وأثاخواها .  
من الواضح أنهم كانوا في خوف ، وبسرعة كبيرة تم كل شيء  
إلى حد أنه في الوقت الذي وصلنا إليه كانت الخيمة والأثاث  
مثلاً راجداً ، قد حملت ، وأصبحوا على استعداد للذهاب .

أت العرب يفخرون بقدرتهم على قلع نخيم ، والسير عند  
أخطار ، مدته لحظة تقريباً ، وفي هذه الحال أظنه لم يكده  
يستغرق ثلاث دقائق . وبدأ أنهم فوجئوا وصاروا في حيرة  
من ظهورنا حينما تقدمنا ، وفي البداية قالوا أنهم ( رولة ) ،  
ولكن عندما لحق بنا أصحابنا اعترفوا أنهم من ( الحويين )  
قبيلة فقيرة يحترفها البدو وتحتل نفس المنزل التي يحتلها  
( الصلّيب ) وعلى أية حال ، فقد كانت أعيننا غير قادرة  
على تمييزهم من البدو الآخرين .

سألت د محمداً ، بعد هذا ، كيف أن كل قبيلة في الصحراء  
يسهل على أفراد من قبيلة ، أو قبائل أخرى ، معرفتها بهذه  
الدرجة ، فأخبرني أن كل قبيلة لها خصائص في الملابس والملاصق  
معروفة جيداً للجميع . وعلى ذلك ، فشر ( بصفة عامة  
طوال ، و ( لبعة ) قصار جداً ، إلا أن رماحهم طويلة . ورماح  
( الرولة ) أقصر وجوهم أصفر و ( شمر نجد ) يلبسون  
عباءات بنية ، و ( حرب ) سود الوجوه ، كالصبي تقريباً ،  
حدثني محمد بنفاصيل أخرى كثيرة بالنسبة للقبائل التي لا

أتذكرها . وقال ان راضي عرف ان هؤلاء الناس من  
 ( الحويصين ) ماضرة ، من خيمتهم الحفيرة البائسة . ثم ذكرنا  
 كيف خدعنا في العام الماضي بالفزو الذي واجهنا في ( الحماة )  
 في اليوم الذي لقينا ( جدعان ) لقد كان نوبياً - كما صرح -  
 ان شيئاً غير ملائم لم يحدث آنذاك ، لأننا اكتشفنا منذ ذلك  
 الوقت أن التهمة الأشخاص الذين ذهب ( ولغرد ) اليهم راكبا  
 ليتحدث اليهم ، كانوا في الواقع غزاة من ( العمارات ) ،  
 برأسهم ( رجاء ) معه ، شيخ بطن ( الأرفدي ٢ ) من  
 تلك القبيلة ودخل ( رجاء ) بعد أسابيع ليست كثيرة  
 إلى ( تدمر ) ليشتري حنطة ، وأقام يومين في بيت عداقه ،  
 وعرف فيه الرجل الذي كان مع ( البيك ) في ذلك اليوم .  
 ان هؤلاء ( العمارات ) كانوا يبحثون الطريقة التي سيهاجمون  
 بها قافلتنا عندما ركب ( ولغرد ) اليهم ، وحقيقة أنه حينما  
 قام بذلك وحده جعلهم يتصورون أن قافلتنا كانت قوية ،  
 وهكذا قرروا أن يتركوا ومانا .. أصبح محمد ر ( رجاء )  
 الآن صديقين ، فقد قدم رجاء ل محمد عند انصرافه صقراً ،  
 وقدم له محمد هدية غريبة ، كَفَنَّا ! وبوضع محمد أن  
 الأكفان بقدرها البدو كثيراً ، وهذا الكفن بالذات صنعه  
 أم محمد .



## حليب (الابل)

بعد هذا مباشرة أتينا الى مخيم ( الرولة ) ، على الأقل  
مخيم لعبيد . لم يكن الرجال زوجاً ، ولو أنهم كانوا شديدي  
السود وقيحي المنظر . أوضحوا لنا أنهم مملكون لبني ابن  
شعلان ، ابن عم لـ ( صطام ) . ورئيس القبيلة الآن في ( النفود ) .  
أعطونا بعضاً من حليب النياق الطارج . وهو أول ما ذقا  
هذا العام . ثم بدأنا نتحدر الى واد طويس متقاطع هنا مع  
( النفود ) ، وفيه تقع آمار ، شقيق . بالقرب من واحدة  
من هذه نحن الآن ، نخمين على قطعة من الأرض الصلبة ،  
تحت أول موجة من رمل ما وراء الآبار

## على آبار ( شقيق ) :

هناك أربع آمار معروفة باسم ( شقيق ) ، الأولى حيث  
نحن الآن وأخرى قريبة منها ، وثلاث آخر ، على مسافة  
ثلاثة أو أربعة أميال في أماكن متفرقة من الوادي . وهي  
جميعاً ، كما سمعت . على نفس العمق ، ٢٢٥ قدماً ، ومن الواضح  
أنها قديمة لأن هذه الشر مطوية بصخور منحوتة ، وأطرافها  
منهارة من طول استعمال الحمال في سحب الماء ، ويوجد ،  
هنا ، على أية حال ، بكيرة خشبية صغيرة من أجل أن يمر



عليها الجبل ، وهو ترتيب ثابت غير معتاد كثيراً في الصحراء ، حيث كل شيء قابل للنقل يتنقل كأمر منتظر . فأني جبل أو دلو لن يكون له فرصة البقاء أسبوعاً في أية بئر . كان هناك جبل ميت قرب البئر ، ومنه كان نيران وكلب ينهشون ، ولا شيء آخر ذا حياة كان هناك .

وبينا كنا نلقي نظرة على حبالنا ، وتتعجب فيما إذا كنا نستطيع أن ندير - بلم التوارد معاً ، لنصل إلى الماء ، أقبلت فرقة من الجمال محملاً متهادية تحب في مشيتها ، وردها ممتدة وأخفافها تضرب في الهواء ، ويلبها بعض الرجال على ركاتهم الذلول . واتضح أنت هؤلاء من قوم ابن شعلان ، وأحدهم ، وكان ذلك مفاجأة سارة لنا ، رجل يسمى (راشد) عرفنا كأصدقاء قدماء ، كنا قابلناه في العام الماضي في نجيم ( الرولة ) في ( الصقيل ) في الشمال الأقصى . قال انه جاء مع ( أبو جديلي ) ، إلى خيمتنا وانا لتذكر المناسبة تماماً . انه لأمر سار أن تفكر في العثور على أصدقاء في مكان كهذا ، وانه ليظهر العدد الذي تتجول فيه القبائل أثناء السنة . إن ( صقيل ) على بعد خمسمائة ميل من ( شقيق ) .

### حديث عن بنية بن شعلان :

وفي الحال عرض راشد أن يمنعنا كل الماء الذي أردناه ، لأنه كان لديه حمل طويل معه ، وشربت كل الجماعة القهوة ،

وأكلت تمراً ، وكان بينهم ابنا ( بُبْنة ) ، محمد وأسمد ،  
والأكبر شاب خجول حلف ، بينما الأصغر ، في التاسعة من  
عمره ، غلام صغير لطيف . واليه أردعنا رسالة شكرًا إلى  
أبيه . وبينة بن حنيفة بن تعلان وهو شيخ قسم كبير من  
( الرولة ) ، نفس الشخص الذي حمينا في العام الماضي بأنه  
استقر في نجد . وهو على علاقة سيئة مع ( صطام ) بسبب  
المهر الادم الذي أخذه منه ( صطام ) بالقوة ، منذ بضع  
سنوات . ان الطفلين لم يكونا قد رأيا أوريا قط في حياتها ،  
ولم يذهبا شمالاً إلى أبعد من ( وادي السرحان ) . نود كثيراً  
لو نزر ( بنية ) ، ولكن خيامه على بعد أميال كثيرة خارج  
طريقنا ، ولا نجرؤ على الاستهانة بالنفود .

## مشاهدة ( حوار ) :

اليوم ولد حوار يعوار البشر ، ذهبت لالقي نظرة على الخلق  
الصغير الذي ترك وراء أمه ، وسيفت بقية الابل الى منزلها ،  
لاحظت أمه لم يكن لديه هذه الاماكن العارية ( النفقات ) التي  
تصاب بها الجمال الاكبر سناً على ركبه وفي صدرها بسبب  
بروكها ، كما لاحظت أن ركبه كانتا مرضوضتين من جراء  
جهده للسوق . سعدناه على أن يقوم ، وفي ثلاث ساعات من  
الزمن كان قادراً على أن يعدو مبتعداً عن أمه .

## جهد في السبر وتوفير للماء :

١٥ يناير : ( ١٨٨٠م ).

عندما بظرت ، هذا الصباح خارج الحيمة ، رأيت حالة  
حول القمر ، وظننت ان مطراً سينزل ولكن خطأ كهذا لم  
يأت ، ولو ان السماء كانت مليئة بالغيوم والنهار حاراً رطباً ،  
بذلنا جهداً كبيراً لكي نبدأ مبكراً مبكرين ، ولقد كان هناك  
قدر كبير من « يا لله ، يا لله » يصرخ بها محمد ولم تكن نليجتها  
كبيرة ، لأن الرجال قد كانوا يحتفلون بعبورنا ( النفود ) ،  
الذي بدأ يجد اليوم ، تولية - لي تجدي . وكانت النتيجة ان  
أصبحوا كثيرين ( وخمير ) ويطيئون . وفي الساعة ، القي  
( ولفرد ) فيهم خطبة عن طبيعة الرحلة القادمة التي كما تقوم  
بها ، ومئات الأميال من الرمل العميق التي علينا ان نعبورها ،  
وعن ضرورة توفير كل قوتنا لهذا الجهد . رأسي من مرة قل  
أن نستطيع ان نأمل الوصول الى ( حشة ) في ظرف خمسة  
أيام . وربما ستة أو سبعة أيام من هذه الموقرة كفافلتنا قد  
عبرت ( النفود ) عند هذه النقطة ، إذا كان لنا ان يصدق  
( راضي ) ، فإذا اهبطت قوى الجمال ، فلن تكون هناك  
وسيلة للحصول على مساعدة ، كلا ، ولا نجد أية بشر بمساعدة  
( شقيق ) . وعلى ذلك فقد عاهد الله ( شيخا للماء ) مع  
أوامر ان يورعه بالتقدير في ( حرات ) ، « ماء » ، وألا يسمع

لأي شخص ان يشرب أثناء النهار . ان العرب كالأطفال فيما يتعلق باللحم والشراب ، يأكلون ويشربون طـول اليوم اذا وحدوا الفرصة ، ولا يتركون شيئاً للفد . لكن اسرافهم يمكن فقط ان ينتج كثرة ، واننا لنظن ان عبد الله وكذلك محمد متأوان الموقف هناك شيء ما في هذه الامعة العظيمة ينير الوفاق والخشوع ، حتى بالنسبة لأشد الارواح وحشية ، ولقد بدأنا سيرتنا اليوم بأسلوب منظم جداً .

## ( راضى ) الدليل الجديد

برهن راضى ، الدليل الصغير ( واسمه يعني الموريا ) على انه كان كسباً عريضاً لجماعتنا ، ويرغب في ان يعطيا كل أنواع المعلومات عندما كما سأل ، ولم يكن مهذواً عجولاً . انه شيخ صغير عربي ، نحل وأسود وذابل ، كالبقايا الميتة لاجراج الارطلى التي براها المره هـا ، عود عائم يتقاذفه ( السفود ) . انه انه ذنوله يضطجها معه ، ليس من اعظام العنيفة التي تبدو كما لو كانت لن تستمر خلال اراحة ، وعليها يعتمد جاثماً ساعة الى ساعة في صمت . متعباً بيد المرعشة بين آونة واخرى نحو الطريق الذي علينا ان نسلكه .

وهو بحمر معه على راحته من راء ، نجا من الصخر الرملي الاحمر من صناعة الجوف من أحل قريب لان شيد ،

ويبدو ان هذا يحدث توازناً مع قربة الماء المطلقة في الجانب الآخر .

## عظام .. وبقايا أجسام :

وهو يتكلم من وقت لآخر ، ولقد قص علينا أكثر من حكاية ممتعة عن أولئك الذين هلكوا في سالف الأيام . ففي كل مجوف تكريباً توجد عظام ، غالباً عظام جمال ، ( جمال حين ) يسميها راضي وان احد سال عن يكون حين فهناك ضحكة . وفي قعر واحد من الافلاج توجد ، على أية حال ، عظام من نوع آخر هنا حلة غزو هلكت ، لجانب ورجالها لقد كلوا ( رولة ) عبروا ( النفود ) لينبروا على شمر ، ولم يكونوا بقادرين على ان يبلثوا ( شقيق ) في طريق العودة . كانت العظام بيضاء ، ولكن كانت هناك قطع من الجلد لا تزال ملتصقة بها ، مع ان راضي يقول: انها حدثت منذ عشر سنوات

وفي مكان آخر ، أرانا كومتين من الاحطاب ، منفصلتين احدهما عن الاخرى بثلاثين ياردة ، وهما تحددان النقطة التي بوغت فيها غزو من شمر ، كانوا يسوقون جمالاً من ( وادي السرحان ) - بوغثوا من قل مالكةا ، شيخ من السرحان الذي رمى حربته من بعد الثلاثين ياردة هذه على عقيد شمر فشكت ، مهراً ورجلاً . ومرة أخرى ، أشار انى بقايا أربعين

راكبا من ركاب ( جمال السليبات ) ، ضلوا طريقهم ، وملكوا  
عصا .

## في طريق « أبو زيد الهذلي » ! :

كان الرمل ، مسافة أميال عديدة بعد مفادرتنا الآبار ،  
منطى بآثار أخفاف إبل ، إبل ( الرولة ) بدون شك . وهنا  
وهناك كنا نصادف آثار حصان ، ويبدو أنه كلما توغل المرء  
أكثر في بلاد العرب أصبحت الحبل أكثر ندرة .

وبعد عمو هذه الأميال القليلة ، لم يبد هناك - على أية  
حال - أي أثر للكائنات الحية ، باستثناء السحالي . واتجه بنا  
( راضي ) أولا في اتجاه جنوبي تقريبا ، حتى قابل خطا من  
العلامات لا يبين بالنسبة لنا ، إلا أنه معروف لديه تماما ، يتجه  
جنوبا - يحوب الشرق ، وهو يسمى هذا الطريق « طريق  
( أبو زيد ) » وحكى لنا الاسطورة التالية بهذه المناسبة ( لم  
يكن هناك أي أثر للطريق أكثر مما يمكن أن يوجد في  
البحر ) ..

## خطبة بني همدان :

يقول راضي :

مند سنين كثيرة ، كانت هناك مجاعة في ( نجد ) ، وأصبح

بنو هلال بدون قوت . وعندئذ تحدث ( أبو زيد ) شيخ القبيلة مع قريبه ( مرعي ) و ( تونس ) ، فقال لهما : « فلنخرج في الجاه للغرب » ، ولنبحث عن مراعى جديدة لقومنا .

وساروا حتى أتوا الى ( تونس الغرب ) ، التي كان يحكمها في ذلك الزمان الأمير ( الزناتي ) ، ونظروا الى الأرض فأحبوها ، وكانوا على وشك العودة بالآخبار الى قبيلتهم ، عندما وضعهم الزناتي ، جميعاً في السجن .

وكان للزناتي ، بنت باهرة الجمال اسمها « مغيري » ، ولما رأت « مرعي » في السجن « الدُّبَاب » ، وقمت في حبه ، واقترحت أنه يجب أن يتزوجها ووعدت ان حياته وحياة رفيقه ستلقد ، ولكن « مرعي » لم يهتم بها ولم يكن ليرضى في البداية . ومع ذلك فقد استمرت في حبه ، وقصدت أن تصنع جبلاً غصوم ، وتشفت الى أبيها أن يبقى على حياته . وعندئذ أخذ الزناتي ، يختار في أمر سجنائه ، وهو بسمع من ابنته أنهم من أصل كريم ، ولم يعرف ماذا يصنع بهم . وعندما أخبرتهم بهذا ، اقترحوا أن واحداً منهم يجب أن يطلق ويذهب الى وطنه من أجل أن يحضر فدية لرفيقه ، ولكنهم في قلوبهم كانوا مصممين على ان « أبو زيد » هو الذي يجب أن يذهب وأنه يجب أن يعود - ليس بفدية - بل بجميع قومه الى تونس ، واطلاق سراح رفيقه . وحلت « مغيري » المقترح الى أبيها ، وقالت : « اثنان من هؤلاء

الرجال من أصل كريم ، ولكن الثالث عد مملوك ، إلا أنني لا أعرف أيًا من الثلاثة هو . واذن فدع العبد يذهب ويأتي بالقدية من أجل سادته .

وقال الزناتي : « وكيف تكتشف العبد من بينهم ، وتميزه عن الآخرين ؟ » .

فقلت : « بهذا .. خذهم الى مكان وحلّ ، حيث يوجد ماء ، ومرهم أن يمروا من فوقه ، وسأرى أن العبد فيهم ، أيّا كان ، سيجمع ثيابه حوله بعناية ، في حين أن سلاء الهند ستركون ثيابهم يعلق بها الطين ،

فوافق أبوها ، وحدث كذلك الثلاثة الرجال في اليوم التالي من سجنهم ، وأمروا بالمرور فوق جدول وحلّ ، فوضع أبو زيد ، وكان قد حذر من قبل « سقري » ، عباءته على رأسه ، ورفع قبضه حتى خاصرته ، بينما مشى « مرعي » ، ويونس ، بدون احتياط

وعلى ذلك فقد اطلق أبو زيد وعاد إلى نجد ، وبعد أن جمع كل قومه هناك ، قادم عبر النفود في نفس هذا الطريق ، متغذا الدرب الذي رأيناه الآن ، حتى يتمكنهم من الوصول الى السلامة . ثم واصل سيرهم إلى تونس ، وضرب حصاراً على المدينة .

حاصر أبو زيد ( تونس ) سنة الا أنه لم يستطع دخولها ،



وما كان لبستطيع أخذها ، لولا « سفري » ، التي كانت تحمك  
المؤامرات من أجل نجاحه .

كانت « سفري » امرأة حكيمة . كانت تعرف الفراءة  
والكتابة ، وتعرف السحر وتستطيع تفسير التنبؤات . وكانت  
هناك نبوءة تتعلق بالزناقي مؤداها أنه لا يمكن قتله في أية معركة  
لا بواسطة شخص معين اسمه « ذياب بن غانم » قاطع طريق  
في الصحراء الجاورة .

وأرسلت سفري كفة عن هذا الموضوع الى « أبو زيد » ،  
الذي ضم قاطع الطريق هذا الى خدمته . وأرسله في الفرصة  
التالية ضد الزناقي ، حين خرج الى القتل « وذبح الأمير .

ثم صار أبو زيد أميراً اتونس وتزوج مري « سفري » .  
تلك هي قصة راضي ، وبرجس ألا تكون صحيحة تماماً  
فيما يتعلق بخديعة سفري لأبيها .

## وعورة السير في « النفود »

أما فيما يتعلق بأسطورة الطريق ، فمن المستحيل القول ان  
الطريق هناك ، لتشهد اذ كان يكذب . وسواء كانت طريقاً  
أم غير طريق ، فقد مكثنا نتجول في تمرجات طيبة اليوم ،  
أحياناً نكدة صاعدين منحدرات وعسرة مستقبلية ، وأخرى  
تتخذ طريقاً دائرياً طويلاً لتعجب فلجنا ، وأحياناً نسير في

نخرج لغير ما سبب معين . ومع ذلك ، فدائماً على سطح غير مطروق من الرمال اللينة . ان الأرض متكسرة أكثر من ذي قبل ، والافلاج اكثر ، والسير أشق ، ولكن الأمهار والجمال سارت بشجاعة ، وقد قطعنا اليوم حوالي عشرين ميلاً ، تخيمنا الليلة ، وان كان في فليج ، أعلى من آثار شقيق ، بـ ٥٦٠ قدماً .

١٦ يناير (١٨٨٠م).

عاصفة في الليل حولت الرمل الى لون قرمزي . «راضي» يمشي على هذا من حيث أنه الآلة ، كما يقول ، «منطلق» حمة ، ان شاء الله البسر ايـه كان يشك بعض الشيء من قبل غير أن لمطر الثقيل قد حمل الأرض حمة ، وكنا قادرين على ان سدفع في ميراث بمعدن طيب ، كما لو كنا نسير على حصباء . وكلما تعمقنا في النفود ، نصير «الافلاج» أكثر ناعداً ، والحيروا المتقاطعة أكثر انخفاضاً .

يبدو أن الافلاج نسير على نحو ما ، في خطوط منتظمة من الشرق الى الغرب - أو على الأصح - من الشرق ينجوب الى الغرب بشمال .

## حيوانات «النفود» وهشمراته :

وانه لأمر منير أن نلاحظ آثار اقدام حيوانات برية على الرمل ، لأن علاماتهم الان ظاهرة بوضوح ، كما لو كانت على نسيج حديث السقوط . وأكثر تلك شيوعاً هي آثار الأراب

البرية المطابقة في الحجم لأرانب بلادنا . واليوم بصرت الكلاب  
السلوقية وطاردت عدداً منها ، ولو بدون جدوى ، لأن  
أشجار الغضا والاحراج صرعان ما تحجبها عن الكلاب .

لقد عدونا مرة او مرتين وليس هناك خطر أنت نفقد  
أنفسنا ، لان علينا فقط ان نمود على آثار خطونا لنجد القافلة .

وبالإضافة الى الأرانب البرية توجد انواع عديدة من الطيور  
الصغيرة طيور الأطييش ، وطيور النمنمة ، وقبرات الصحراء  
والأبلق ، والفربان أحيانا .

ورأيت أيضاً زوجاً من الصقور البلدية ، من الواضح انها  
في موطنها .

أما الزواحف فأنها أكثر عدداً ، فسطح الصحراء بأكمله  
تظهر عليه آثار السحالي ، بينما كانت هنا وهناك آثار عبور  
الثعبان .

قتل رفاقنا اليوم اثنين - من النوع المسمى « سليمان » ،  
وهو مألوف في معظم احزاء الصحراء ، ثعبان قضي طويل ،  
لخيف ، ذو رأس صغير ، وغير ضار على الاطلاق . لقد  
أخرجها بعد المطر أشعة الشمس الدافئة .

لقد كنا نستفهم من راضي عن انواع أكثر خطراً فوصف  
لنا بدقة فائقة الافعى المقرنة و « الكوبرا » . أدهشني أن  
أسمع عن الأخيرة ، ولكن من المستحيل ان أخطئه وصفه

لنعمان يقف على ذيله ، وينفخ عنقه كأحسنة ومده - كما يقول - ترى في الصيف فقط .

## بقر الوحش «المرها» :

والغزلان يبدو أنها لا توجد في النفود ، إلا أنها صادفنا آثاراً جديدة للقرنين وحشيتين . وبؤك لنا راضي أن هذا الحيوان ، لا يترك النفود أبداً ، ولا يشرب . حقاً لا يوجد أي ماء هناك فوق سطح الأرض في أي مكان أقرب من حبل أحماء ، يجب أن يستغنى - أي الحيوان - عنه . كان أثر الحافر تقريباً في حجم حافر غزال كامل النمو . أننا متشوقون إلى رؤية الحيوان نفسه ، الذي يؤكد لنا أنه بقرة حقيقية ، ولون من الصعب أن يكون ذلك . ولقد ظلنا نتطلع جيداً من حل النماء برون - - -

أما عن الحشرات ، فقد رأينا قليلاً من دباب ، مثل دباب الملل ، وبعض البعوض وبراغيث صغيرة . ويوجد نوع أفضل من الحشيش في النفود وأكثر مما يوجد منه على النخوم ، و افترض أن ذلك بسبب غابات الابل .

## الاهتداء إلى الطريق : -

إني أجد أن راضي يعرف طريقه كنية تقريباً بواسطة

العلامات فعل كل تل رملي عال يتزل من فوق دلوله ،  
ويجذب بعضا من أغصان الفضا ، وهي سهلة الكسر جداً ،  
ويضيفها إلى ركانر من الخشب يكون أقامها قبلاً . وهذه  
يمكن أن ترى من بعد لا بأس به . ولقد تمت - أيضاً -  
أن نغير طريقاً روعاً ما ، بعلامات منقطعة من بحر الإبل ،  
وأحياناً يوجد على جانب منحدر حاد ممر للقدم متميز . وعلى  
طول هذا الخط يتحسس دليلنا طريقه ، ملقياً نظرة هنا  
وهناك ، كما تفعل الكلاب السلوقية عندما تنص الأثر ..

لا هو ولا محمد ، ولا أي من العرب الذين معنا ، عندما  
أقن فكرة عن معرفة الاتجاه ، الشمس ، وعندما سألت «ولفرده»  
عمداً إذا كان يظن أنه يستطيع أن يجد طريقه عائداً إلى  
( شقيق ) ، أجاب : « كيف أستطيع أن أفعل ذلك ؟ كل  
واحد من هذه الكتابين يشبه الآخر » .

## من قصص الدليل ( راضي ) :

لقد سلاتا راضي بقصص أخرى من قصص الدم والعظام ،  
أقن من أشدها فتلدعة قصة بعض الجنود الأتراك الذين  
نخل عنهم غدرا ( في النفود ) كانوا احتلوا حائل في الأيام  
الأولى لأن رشيد الأول ، وتركوا هناك بصفة حامية . ولكن

( ١ ) كان هؤلاء يسمون تلك من جنود جيش إبراهيم باشا الذين تركوا  
في عنيزة . ( الأصل )

السلطان أما انه لم ينقطع الاتصال بهم ، وأما أنه سيهم ،  
وبعد زمن ما رغبوا في الذهاب إلى ديارهم . كثير منهم مات  
في حائل ، وبقيتهم ، وحوالي خمائة ، اتفقوا ببساطة على  
الانطلاق إلى دمشق تحت حراسة عبيد ، أغنى الأمير .  
الذي عقد العزم على إقناعهم . غادروا حائل على ظهور الخيل  
وانعموا أدلاءهم النشمرين حتى هذا المكان . وكانت هؤلاء  
يحبون على كل الأسئلة المنطقة بأماكن الآبار ، كانوا يحبونهم ،  
« بعد قليل » !! أوفي النهاية تركهم السور ويبدو أنهم كانوا رفاق  
شجعان ، لأن آخر ما سمع عنهم كان أغنية من نوع ما ، أو  
ترديد أغنية ( كورس ) ، كانوا يعدونها أثناء صراعهم  
للمشاق : -

« نحن عسكر ما نحن عظامي ، نحن عسكر ما نريد  
منه ، أولكنه من المهتم أنهم عند الظهيرة من ذلك اليوم قتلوا  
فاصلطحموا تحت الأشجار ليصيبوا قتيلا من لفظ ، وهكذا  
وحدوا بعد ذلك معترين في ( أفلاج ) مختلفة ، والبعض من  
خيلهم عادت ادراجها إلى ( جنة ) . وصارت ملكا لكن  
من استطاع ان يصع يده عليها . وبقيت من قتل هؤلاء  
المحظوظين من الناس يبيع أغنام و نعاج لكن واحد منها .  
في قصة ذات لون شاحب محبوب المراتي

وقصة أخرى أروع هي قصة العاشقين الصغيرين اللذين قرا  
خلسة من الجيوب ، وتسمها اقرباؤهما ، ولأنها توقعا ان آثارها

ستقتنى ، ولينجنا الفضيحة ، اتفقا بدلا من أن يسيرا معا ،  
 أن يتبعنا خطين متوازيين ، المسافة بينهما مائة يارد تقريبا ،  
 وهكذا انطلقا في رحلتها ، وعندما أنبا الى فلج معين ، أراه  
 لسا راغبي ، كانتا متمعين جدا فاصطجعا ليمونا كل منهما تحت  
 شجرة . هكذا وجدا لحسن الحظ في الوقت المناسب و سرّا  
 تصرفهما هذا المبني على حسن التقدير ، الأقرباء من الطرفين ،  
 سرورا بالنأ الى درجة ان الموافقة على زواجهما قد تمت ،  
 واحتفل بالمعوسين في جو من المرح والانشراح

## بارقة أمل :

في الساعة العاشرة والنصف بصرا فجأة بقمي (العلم) (١)  
 وهما صغرةان مخروطيتان تبرران من بين الرمال ، وتكونان  
 مملا باررا للسافرين في طريقهم الى (جبة) . وشعرنا بفرح  
 كبير أن نراهما ، لأننا كنا بدأنا نشك في فطنة دليلنا بسبب  
 الخط المتخرج الذي اتبعناه ، والآن عرفنا أن أسوأ ما هناك  
 قد انتهى ، وأننا ، إذا احتجنا نستطيع أن نجد طريقنا عبر  
 النصف الآخر من ( النفود ) مع بعض الأمل على الأقل في  
 النجاح .

(١) كنا نرحبنا حسب الحروف الانجليزية ( عالم ) فكتب البنا الأح  
 محمد بن عمر الشجري من أهل (جبة) ومن سافر في النفود مرارا وهو يعرف  
 الموضع ، كتب بأن الصواب ( المُنَيم ) فله الشكر .

وكنّا جمالنا لتلبينا وانطلقنا راكبين نحو التلال ، ومع ذلك فقد قضينا عدة ساعات لتصلها ، إلا أننا كنا في الساعة الثالثة ( بعد الظهر ) نلمس الصخور بأيدينا لنحس أنها كانت حقيقية . كان الأمر كما لو كنّا قد قلدنا في البحر ووجدنا جزيرة صحراوية .

كان لدينا بعض الوقت لنتنظر ، بينما تكند القافلة لتلحق بنا . بقيت مع المهرين أقرب ، بينما صعد ( ولفرد ) الى قمة الصخرة الصغرى . وصاح متعجباً : ( يا له من مكان بقدر المراه فيه ، ان جبل (نيبو) كان لا بد أنه كان مثل هذا ) . إلا ان الذين يموتون في ( النفود ) قل أن يكون لديهم أحد ليقبرهم .

## فراشة تستعجم بالشمس

وبينما كان يتسلق حول كومة من الأحجار غير المثبتة قرب قمة التل وجد ما يبعث فيه السرور فراشة مرر كشة نستعجم في نور الشمس في نقطة مألوفة وإذا كانت كما هو محتمل ، ليس هناك نبات ملائم لهذه الفراشة في حورها الاوّل أقرب من ( حروبون ) ، فلا بد ان هذه الحشرة الصغيرة قد سافرت على الأقل اربع مائة ميل . انها هنا بدت سعيدة في الشمس . وهذه الصخرة الصغرى ، او هذا التل الصخري ، كان ارتفاعه مائة قدم فوق مستوى السهل ويسبق منه ( أي من السهل )



رأساً مجرداً وعارياً كما تفعل صخرة في البحر . وسجل  
( البارومتر ) عند القمة ٣٢٢٠ قدماً . و ( العليم ) الأطول  
ربما كان ثلاثة أضعاف ارتفاعه .

## شيخ ( النفود ) ١

ويقول راضي ان ( العليم ) هو شيخ ( النفود ) والتل الاصفر  
هو ابنه . وعلى مسافة بعض أميال الى الشمال الشرقي ، توجد  
مجموعة من التلال الرملية البيضاء ( حريم العليم ) . ان الصخور  
( العليم ) من الحجر الرملي سوداء بفعل التآحات ، وليست  
( جرانيت ) كما أملنا ، وهذا بدون شك هو المادة التي  
تكونت منها ، على مر السنين ، كسان من الرمال الحمراء .  
انها ليست من الصخر الصلب ، ولكنها تشبه كومة من الأحجار .  
وكان على قمة التل الذي صعدته ( ولفرد ) صورة مع بقايا  
بعض حروف قديمة محفورة على الصخور ، من نفس نوع تلك التي  
ترى في ( سينا ) أو على الأصح في وادي ( مقطب ) .

كان المنظر ، طبقاً لتقرير ( ولفرد ) ، مذهماً ، إلا أنه  
مستحيل أن ترسمه أو حتى أن تحاول رسمه . اللامع العامة  
للنفود هنا يمكن أن ترى منشورة كما لو كانت على ( حارطة ) ،  
وتناسق المحيط الرملي معرقاً بالخطوط الطولية لأفلاجه ، و ( عليم )  
نفسه يرتفع في وسطها كصخرة منبثقة من بحر معرق بالزبد

# قارورة من رمل ( النفود )

نحن الآن نحبسون على بعد حوالي ميلين وراء ( المعلم ) لقد  
ملأت قارورة بالرمل لاصنع منه ساعة زجاجية في الوطن .

## ( الارطى ) و ( الفضاء )

١٧ يناير ( ١٨٨٠ م ) .

صلب أبيض ، حزم البعض منه مع الحيام وحمل معاً  
كل اليوم .

انه لغريب أن تغير النباتات الآن بعد أن عبرنا ( المعلم ) ..  
فحق تلك النقطة كان العصا يدق ما عداه ، ولم أكن بقادرة  
على التصديق أنه سيختفي هكذا فجأة ، ومع ذلك فالأمر  
كذلك

أما الآن فلا يمكن أن ترى أي أثر للفضاء ، وحل محله  
نبات الارطى الذي كان قادراً من قبل . ويسود مستجيلاً أن  
تجد سبباً لهذا ، من حيث أنه لا يوجد تغير مادي في مستوى  
الارتفاع ، ولا تغير في خصائص التربة على الإطلاق .

كانت الأجسام التي حيمها عندها البارحة هي الأخيرة تماماً  
باتجاه الجنوب . اننا آسفون على أن فقدناها . لأن الفضاء هو

أرفع أنواع الخطب في العالم. ان الفحم الذي هنا وهناك حيث وجدت نيران مخيمات ، هو أرفع من أرفع أنواع الفحم الذي يستعمل في الرسم .

أما الأرضى فهو من نوع أوطأ . ومن جهة أخرى يوجد حشيش أكثر من أجل الأبل يسمى ( النسي ) ، كما يوجد الـ ( حمار ) وهو نبات شوكة ضارب إلى الزرقاء ، الخيل مولعة به كثيراً ، في حين أن ( العاذر ) وهو عشب ذو أوراق خضراء قاسية وأرهار صفراء بنية ، لا يزال هو النبات الأكثر شيوعاً .

## مهربت عن رفاق الرملة :

جف الرمل مرة أخرى منذ أمس ، وكلما صار النهار أدفاً ، أصبح قليلاً على الجمال . ان الجهد في الدبيب خلال سطح تسوخ فوق الخطأ بدأ يتعبها ، وقد مضى اليوم معظم الرجال ، وضرب محمد المثل لهم . كل واحد كان متشرحاً ، بالرغم من المشاق ، وكلهم أظهر قوة عجيبة في العدو ، وممارسة اللهو واللعب في الرمال . وكان ( ولغود ) ، وعند مرارة طيب ، غير قادر تماماً على مجاراتهم . أما أنا فقد كانت حالتي بنسبة أسوأ كما يمكن أن يتصور ، من حيث أنني كنت قد زلت أعرج ، وعلى أية حال ، فكلاًنا أحس بأنه ملتزم بأن يحاول ويسير في فترات من أجل مهربنا

ووهن ليوم ابراهيم الطويل ( تميزاً له عن ابراهيم القصير )  
الذي كان حتى الآن اضحوكة الجماعة ، على منتهى ديانة الخاش  
عندما كان يرس إلى أعماق الافلاج سحرة به ، ليجلب ماء ،  
أو ان قمم التلال الرملية ليطر إلى جبل متغيلة . وهو  
- ولو أنه مبغى - يد لأبي سلم في جماعته ، وبمضى  
بقدر ما يأخذ في الألعاب المصيفة ، التي ينمى فيها العرب  
ليحفظوا بمشوياتهم .

وفي إحدى اللحظات أمسك بمود خيمة الحدم واتخذها  
سلاحاً للعب به بينهم إلى الحـمـ التي طنت أن عظماً  
متحطم .

وعند الله - أيضاً - عندما يكون هناك مكان معين لا بد  
من العودة . ويبدو آخرون مهكبين - غالباً ما يجري  
ويقف على رأسه حق يصعدوا . ونحن نشجع هذا الانبط  
لأنه يحمل العمل أخف .

## وأخر عن المطايا ١

ان ماء يتناقص نوعاً ما ، لأنه كان علينا ان نقسم بين  
المهربي قرية كل يوم ، ولكن هذا يخفف الاحمال . راحلتان  
بدأنا تهنان ، دلول حنا ، التي قادراً ما عوملت بعدل ، من  
حيث أنه هو و ابراهيم كانا باستمرار يبادلا مكانها على  
ظهرها ، فتكرار افاضة حمل وانهاصة ، يتمه أكثر من أي

عمل. وبالمثل لأن البعير الجميل الذي اشتريناه في (الزوارب).  
 فهذا بالرغم من مظهره الحسن ، يبدو واهنا . فرجلاه  
 طويلتان ضعفتان ، وعنقه قصير ضعيف ، علامتان مبيتان  
 تدلان على عدم الاحتمال ، ثم انه في الثالثة من عمره فقط ،  
 ولم يكتسب بعد حدة المزاج على الاقل هكذا يقول عبدالله  
 ان اي جمل لا يمكن الاعتماد عليه قط حتى يكتسب هذا  
 الخلق . والجمل القبيح ، أيضاً ، الذي يسمونه ( شنوات )  
 يبدو مكروباً . لقد أصابه الجرب بالتأكيد ، ولينا أصرنا  
 على هذه النقطة حينما ارتبنا في الجمال في ( دمشق ) ، غير أن  
 الاران قد فات الآن . أما البقية فلا زالت على خير ما يرام ،  
 على الرغم من الرحلة الطويلة وغيباب الكلا الاخضر الذي  
 تحتاجه في هذا الوقت من السنة ، لم يظهر بعد أي شيء أخضر ،  
 باستثناء نبات صغير ذي زهرة أرجوانية شرعت تملأ برأسها  
 فوق الرمل . اما الحشيش الاخضر فلا شيء منه ، وبحصول  
 العام الماضي يقف أبيض ، ذابلاً دون علامة للحياة .

## الوبل ، وأتاعانها .

قابلنا اليوم رجلاً من ( الرولة ) وحيداً مع اثني عشرة  
 ناقة ما بين حولية وذات سنتين ، اشترأها من شمر .  
 وكان يسوقها متجهاً إلى موطنه . لقد دفع بين ٢٥ - ٣٥  
 مجدياً في الواحدة منها ، ولكنها كانت حيوانات ضامرة هزيلة .

ان إبل نجد تكاد تكون كلها سوداء ، ومن درجة أقل  
بكثير في الحجم والقوة من إبل الشمال .

ولما صادفنا الرجل افترضنا في البداية أنه ربما كان عدوا ،  
لأن أي انسان هنا يحتمل ان يكون كذلك ، وانذفع عواد  
رابط الجاش نحوه بسديته ، فأطار عنه صوابه وأحضره في  
صوت مرتعب لبقدم تقريراً عن نفسه . كان لا ضرر منه على  
الاطلاق ، أعزل من السلاح ، وقد قضي ثلاث ليال في ( النفود )  
وحيداً كان معه قربة من الماء وجراب من النمر ، وكان ذاهباً  
إلى ( شقيق ) في طريقه موحد وحيد .

في الساعة الثالثة والنصف ( بعد الظهر ) ( مستوى  
٣٠١٠ قدماً ) وقم بصرتنا على تلال ( جبة ) ، ومن نفس  
النقطة استطعنا تماماً أن نرى ( العليشيم ) كانت مناسبة طيبة  
لتصحيح تخمينتنا ، وهكذا أخذنا الاتجاهات بدقة بالبوصلة ،  
وعلمنا أن طريقنا بالضبط في اتجاه الجنوب - شرق .

## بدأوا " يصلون " !

واليوم بدأ المسلمون منا يؤدون صلاتهم ، لأول مرة ،  
أثناء الرحلة إن جلال النفود ، أو ربما الشك في الوصول  
إلى جبة ، ربما يكون حملهم حادتين ، أو ربما الأمر مجرد  
أهم يريدون أن يتمرّنوا من أجل نجد ، حيث تسود الوهاية ،

وحيث الصلاة أمر محبوب مرغوب - أيا كان السبب ، فحمد  
على لغة الكتيب يركع ويسجد مستقبلاً مكة بظهر كبير للجد  
والاهتمام ، وعوداد يننو صلوات بطريقة أكثر تأثيراً ، يرفع  
صوته تقريباً إلى حد الانشاد .

أثناء الحديث حول دار الخيم ، يخبرنا راضي أن النفود يتد  
مسافة ١٢ رحلة يوماً إلى الشرق من حيث لمحن الآن ، و ١١  
يوماً إلى الغرب ، وعلى طرف الجانب الغربي تقع ( تياه ) ،  
واحة كالخوف ، حيث توجد بئر عجيبة ، أحسن بئر في  
جزيرة العرب .

## خطر المواصف الرملية :

سألنا عن المواصف الرملية ، وعما إذا كانت قد دفنت  
قوفاً . فقال . انها لم تفعل . ان الرمل لا يدفن قط أي  
شيء دفنا عميقاً ، كما نستطيع أن ندرك من العصى والعظام  
وبعر الإبل التي تبقى دائماً على السطح . إن الخطر الوحيد على  
القوافل هو ان العاصفة تثير طويلاً إلى حد أن تهدم مؤنفاً  
لأنها لا تستطيع السفر عندما تكون شديدة .

أما عن السعوم ، أو الرياح السامة التي يتحدث عنها  
السافرون ، فهو لم يسمع أبداً . مع أنه قد ظل يسافر في  
النفود جيئة وذهاباً لمدة أربعين عاماً .

أما عداثة فيقول : إنه سمع عنها في ( تدمر ) ، كشيء  
يتكرر حدوثه . إلا أن أحداً منهم لم يمر في تجربة معها .

## ليلة هادئة .. ولكنه يوم شاق

١٨ يناير ( ١٩٨٠م ) .

ليلة هادئة مع ضباب خفيف ، صبيح أبيض في الصباح .  
يبدو أن كشافاً أو جاسوساً من شمر كان حول غيمنا في  
الليل . لقد رأنا بعد الظهر ، ولقد زحف في الظلام ليكتشف  
من كنا . ظن في البداية أننا غزو ، إلا أنه عرف بعد ذلك  
صوت راضي ، وعلم أننا مسافرون في طريقنا إلى ابن رشيد .  
جاء إلينا في الصباح وأخبرنا هذا ، وأنه خرج في حملة كشفية  
للبحث عن الكلا في ( النفود ) . بدأ نوعاً ما خائفاً وحريصاً  
على أن يرضينا ، وأكد لنا مراراً وتكراراً أن محمد بن رشيد  
سيبتج برؤيتنا .

كان يوماً آخر شاقاً بالنسبة للجمال . النهار ( شنوان ) ولم  
يستطع أن يهض بعبء حملة ، وكان على حنا ، مثل سائر  
الرجال ، أن يمشي لأن ذلوله تسلم نفسه للتعب .. يبدو أن  
الرمل يصير أعمق فأعرق ، ومع أننا قد سرنا من الصباح حتى  
الفسق ، مما زلنا على بعد ١٠ أو ١٥ ميلاً من ( جبة ) لولا  
التلال التي تراها أمامنا كل مرة تصعد قمة أية موجة ، لما كان  
هناك أمل من جهتنا . كل واحد جاد هذه الليلة



# اضطراب الى السير .. رأفة بالجمال

١٩ يناير (١٨٨٠م).

نوم مربع بالنسبة للجمال والرجال . فقد رفض كل من  
ذلول حنا ، و ( شوان ) ، والبشير الطويل الذي يسمونه  
( عمود ) ، رفضت عليها البارحة ، لأنها كانت في درجة من  
المطر لا تستطيع معها أن تأكل ، وهي اليوم لم تستطع أن  
تتحمل أي شيء .. و ( شكران ) أيضاً ، الذي كان حتى  
الآن من أحسن مشائنا سار في المؤخرة ، ولم تزد سرعة سير  
القافلة إلا قليلاً عن ميل في الساعة . ولولا القسوة غير العادية  
لـ ( حذيران ؟ ) الجمل الملاق الذي يقود الموكب ، والذي  
تراكمت عليه معظم الاحمال الاضافية ، لكان علينا أن نستغوي  
عن كثير من ممتلكاتنا . حقاً ، ففي لحظة واحدة بدا كما كنا  
سنلقى جميعاً في النفود ، مضيقين فصلاً جديداً لفصول الرعب  
التي حكاها راضي الشيخ .

والآن ، وقد هربنا من مصير كهذا ووصلنا ( جبة )  
نستطيع أن نرى كم كنا محظوظين .. ولولا الطقس الكامل  
لسفر طول عبورنا ( للنفود ) والحظ غير العادي لتلك العاصفة  
لما كنا الآن في ( جبة ) .. انت الرمل بالنسبة لجمال متعب  
مثل السجن ، وفي الرمل كنا سنلقى .

لقد سلك محمد وعبد الله وكل السابقين سلوك الأبطال ، حتى  
 هنا الشيخ ، بصفاته البيضاء الزائفة المتدلية من تحت كوفته  
 ( غرة ) ، لأنه قد اختلط سواد شعره بالبياض أثناء الرحلة .  
 وقد مساه حافيتان ، لأنه كان مستحيلا أن يسير وحده ..  
 ( حنا ) بحالته هذه ظل يدب بشجاعة ورباطة حائر كاتوبي  
 قوي في الجماعة .

كنا ( ول فرد ) وأنا ، الوحيدين اللذين ركنا في كل حال ،  
 باستثناء ( حنا ) الذي أرغمه ( ول فرد ) على ركوب مهره  
 بين وقت وآخر ، وكنا أكاب الجماعة . أحسنا بالضيق لعدم  
 مقدرتنا على أن نسير على أقدامنا مع الآخرين ، ولو أننا  
 سرنا بين وقت وآخر ، أو على الأصح ، خشنا في رمل ،  
 حتى أجبرتنا على أن نركب من جديد لافتقارنا إلى التنفس  
 والقوة . أي منالم يكن يستطيع أن يواصل المسير على  
 الأقدام ، غير أن الاوربي ليس بدأ حتى لعربي من المدينة في  
 مسألة السير .

اليوم كان ( خل ) - طريق ( أبو ريد ) يمكن اقتعاؤه  
 بشكل ميسر ، ونبدأ تفكير في أن الأمر قد لا يكون بأحده  
 حبالا ( روماس ) . ان هناك أخاديد منتظمة في بعض  
 الأماكن ، وان الحل ، ( الطريق ) كثيرا ما يكون واضح  
 الأمر وضوحا حسنا لمسافة نصف ميل كامل .

ويؤكد لنا راضي أنه يوجد طريق مبني بالصخور تحت

الرمل ، صخور أحضرت من جبل ( شمر ) ، وأخشى أن  
أقول ، بتكاليف وأية تكاليف من الجبل والرجال الذين ماتوا  
في العمل .

لاحظت اليوم صفراً وصدراً أعبر .

وتعلمان قد مرا على طول الطريق : كما يستطيع المرء أن  
يرى من آثار أقدامها والحدوش على الرمل .

## معالم واحة « جبة » برأت :

ان مستوى النفود كان يرتفع طول اليوم ، وفي الساعة  
الواحدة ( بعد الظهر ) كنا على منوى ٣٣٠٠ قدم فوق  
سطح البحر .

من هذه النقطة اتسع النظر أمامنا في الجاه الجنوب ،  
رمل ، ما زال كل ما هناك رمل لأمبال كثيرة ، كثيرة ،  
إلا أن أمامنا على بعد قريب مجموعة من الجزر قد طال الجاهنا  
نحوها ، تلك هي صخور جبة . لم يكن أقربها على بعد ميلين .  
لم نكن نستطيع أن نرى أي شيء من الواحة ، لأنها كانت على  
الجانب الآخر من التلال ، ولكننا استطعنا أن نرى فضاء  
واسعاً خالياً من الرمال ، بدا كالسبخة ، وما وراء هذا مجموعة  
من الصخور على مسافة أقصى ذات تخطيط بالغ الروعة وهي  
تنبثق مرتفعة من الرمال

## وهذه نزل نجد ١١

كان المنظر يشه منظر نهر حليدي كبير في ( الألب ) .  
وكا دراه هذا مرة اخرى ، امتد خط أزرق شاحب من  
الـتـلال . ( جبل شمر .. تلك هي تلال نجد ) . هكذا  
قال راضي .

كان ذلك هو ما قطعنا الابعاد الشاسعة من أجل ان نراه .  
اسرعنا الآن لنصل الى الصغور ، وبلغناها في الساعة  
الثالثة والنصف ( بعد الظهر ) كانت لها نفس الخصائص التي  
له العليم ، ، الحجر الصلد والرملي .

هناك رسم ( ولفرد ) خارطة ، وصنعت أنا رسماً  
تخطيطياً .

وانتظرنا حتى أتت الجمال ، خلناها قطاراً كثيباً لما نظرنا  
اليها من قمة تلتنا للصغري وهي تمر أسفل منا .

## ونى في الجمال . ورجل جراد ؟

كان ( شنوان ) و ( عمود ) بيران في غناه وليس عليها  
غير الشداد ( فقط ) .

وكانت الذلول السوداء المكيكة ، وهي مجردة تماماً ولا

تُكاد تقوى على المشي ، متخلفة بخصمير ياردة ، يحثها عيماؤه  
على السير .

كان ما زال أمامنا بضعة أميال سيرها حتى يصل (الجبة) ،  
ولكن على أرض أكثر صلابة مع الحدار التل .

واقترح محمد ان نسبق نحن الثلاثة ، ونهي مكاة للجبل في  
القرية .

وفي طريقنا رأينا ما حسناه سعيا من الدخان يسير من  
الغرب الى الشرق ، ومرت مؤخرته فوقنا وجدنا انه كان  
سرياً من الجراد في الطور الأحمر من حياته ، وهو ما يفضل  
القوم هنا الأكل ، ولم نهم بالتوقف الآن لتجمع منه ، واندفعنا  
في سيرنا .

## الوصول الى (جبة) ١

كان الوقت عند الغروب تقريباً حينما رأينا لأول مرة  
(جبة) نفسها ، أسفل منا في طرف جبة السخنة ، بنجيلها  
ذات الخضرة الفامقة تنشق السحيرة الجافة ذات الزرقة الشاحبة ،  
وما وراء ذلك مجموعة من الصخور تبرز من ( النفود ) الوردي  
اللون ، وفي صدر الصورة كان رمل أصفر يتوجه العادر

بدا المنظر بأكمله مزخرفاً بأضواء الماء ، وجميلاً جداً  
يفوق الوصف .

## القسم الرابع

من «جبة» الى «حائل» .

( هذا هو الفصل التاسع من مشاهدات الكاتبة وازديادها  
عن ربيع «نجد» وعن حياة أهلها في ذلك الوقت .  
وفيه تقدم الكاتبة تقريراً إضافياً عن بعض الحوادث  
التاريخية عن الحكم الزنبيدي ، كما سمعتها من أفواه الرواة في  
ذلك العهد ) .

## (جبة) القرية الجميلة الغربية ١

جبة : من أعرب الاماكن في العالم ، ومن أجملها ، كما اعتقد  
واسمها ، وهو يعني بشرا ، بترح موقعها ، فهي تقع في لجوف  
أو بشر في النفود ، ليس في الواقع فلجا ، لأن حوض جبة ذو  
مقاس مختلف تماماً ، ولا يشبه في شيء الانخفاضات التي تأخذ  
شكل حافر الحصان ، التي سبق لي ان مررتها . وهو - على  
حد سواء - قريب للغاية ، ومن الصعب تعليله من الناحية  
الجيولوجية كما هو الامر بالنسبة للافلاج ( جمع فلاج ) . وهو  
قضاء عاري في محيط من الرمال ، وعلى انخفض ٤٠٠ أو ٥٠٠  
قدم تحت معدل المستوى ، ويبلغ عرضه ثلاثة اميال تقريباً  
وهو في الواقع عور ، لا يختلف عن عور الجوف ، إلا ان  
النفود من حواله بدلا من مرتفعات الصخور الرملية

وهناك من الدلائل ما يشير الى انه كان بحيرة ، فهناك  
علامات ماثبة واضحة على الصخور التي برزت من قراره فوق

المدينة مباشرة وغريب ان نقول : ان هناك حديثاً ما زال  
 باقياً يقول : ان الماء وجد هناك فيما مضى . والمعجب هو كيف  
 بقي هذا الفراغ خالياً من الرمل . أبة قوة تلك التي تضغط  
 سوراً دون النفود وتمنع الكساحه ؟ وعندما تنتظر عبر السبغة  
 - او قرار البحيرة الجفاف - يبدو النفود كسور من الماء من  
 المهتم ان يفرقها ، ومع ذلك فلا تنتقل الرمال الى الفور ، وتبقى  
 حدودها مضبوطة بدقة .

## وصف البلدة وسط بنيناها :

والمدينة نفسها ( او القرية ، لان فيها ٨٠ بيتاً فقط ) مبنية  
 على طرف السبغة ، ٢٨٦٠ قدماً فوق سطح البحر ، وفيها  
 بساتين النخيل ، من نفس النوع الذي رأيناه في الجوف ، انما  
 على نطاق صغير جداً . والابار التي تسقي هذه منها هي على  
 عمق ٧٥ قدماً ، وتمتص منها المياه ، كما هو الحال في كل الابار  
 في بلاد العرب ، بواسطة الجمال . والقرية بهيجة جداً ، بأسوارها  
 ذات المشارف ( المتاريس ) وبساتينها . وعلى المدخل تقف  
 ست شجرات أثل قديمة جميلة ، ذات جذوع ملتوية واغصان  
 ريشية . ومن فوقها تلتصّب الصخور عظيمة كالابراج ، وهي  
 من الصخر الرملي بلون ارجواني ، ذي خطوط وجذوع صفراء  
 ووجه علوي أسود . وارتفاعها بين ٧٠٠ و ٨٠٠ قدم . وقواعدها  
 مخططة بعلامات مائية قديمة . ووجد ( ولقد ) عليها عدداً



من النفوش بالحروف ( السينائية ) وتكتنف ( جبة ) هذه التلال ، وتربط من الرمل الأصفر .

ولتكتنف بهذا عن الريح الخارجي لجبة أما داخلها فأقل جاذبية فالمازل فقيرة ، والعناية بأثاثها أقل منها في ( كاث ) و ( ألزي ) . ويصعب ان اصفا بالقذارة ، لأن القذارة في هذا الاقليم الرمي تكاد تكون مستحيلة . إنها إحدى مباحج النفود ، ان الحشرات المؤذية غير موجودة في المحاشا .

## خارج نجد من الحشرات المؤذية

قالنفود ، ونجد - حقاً - الواقع خلف النفود ، خاليان من هذه المخلوقات التي تجعل من الحياة عذاباً في أقاليم أخرى من الشرق . حتى البراغيث التي كانت على كلنا السارق ماتت بمجرد دخولها في دائرة الرمال الحمراء الساحرة غير ان ( جبة ) سوف تكون قذرة لو استطاعت

## سكان البلدة وأهل قريتهم

وسكانها أقل تهذيباً من كل العرب الذين رأينا في نجد . والواقع ان الناس فقراء جداً وليس لهم أي اتصال بالعالم الخارجي ، الا عندما يتوقف المسافرون ، وهم نادرون ، بين

حائل والجوف لبله بينهم . وعند مرورنا بحبة كان الشيخ قد مات مؤخرأ ، وحل محل شاب ، لم تكن له أية سلطة على أقرانه الشبان ، وهم مجموعة كثيرة الصخب ( قليلة الجدوى ) . وليس لابن رشيد ممثل خاص في ( حبة ) ، ولم يكن بسند الشيخ الفتى ( ثابت ) أي ممثل للحكومة المركزية ، حتى شرطي واحد .

## في ضيافة امير ( حبة ) :

وكانت النتيجة أنه رغم ضيافة ثابت لنا بكموم بالغ ، إلا أن اصدقاءه ازعجونا كثيرا وجعلونا نشعر بعدم ارتياح غير قليل . وأورد هذا كتل فريد لعدم المدنية في بلد ، الأدب فيه هو القاعدة في الغالب الأعم .

لا يحتاج أسلوب ضيافتنا في بيت ثابت إلى ذكر خاص ، من حيث أنه لا يختلف بأية حال عما لقيناه في أي مكان آخر . كان هناك كثير من القهوة ، وحديث كثير . ففي أي مكان من بلاد العرب ، ما على المرء إلا أن يدخل أي بيت يرغب . ويكون واثقا من أنه سرحب به فيه . فحجر القهوة تظل مفتوحة طيلة اليوم ، ووصول ضيف إشارة للذين الشكين من اشكال ( التسامح ) اللذين لا يعرف العرب سواهما ، انقهوة والحديث ، والنار موقدة دائما ، وفناجين القهوة تدار في

الحال . حادثة تاديرة واحدة أثناء مقامنا في ( جبة ) جديرة  
على اية حال ، بالذکر .

## قلوب ( محمد ) الدليل واسبابه :

فقبل أيام من وصولنا هناك ، بدا على محمد النزاع كبر  
كلما بررت مشكلة ، مقابلة عرب في الطريق ، أو التعرف على  
أئام ، وهو الذي كان لا يبالي عادة بأخطار الطريق . لقد  
صرفنا عن النظر حولنا بحثاً عن الحيام أكثر من مرة ، وعندما  
قابلنا الرجل الوحيد مع الجمال والرحل الذي سمياه جاموساً  
أجاب إجابات قصيرة على استفسارتهما عن من نحن ؟ وعن  
الجهة التي نقصدها . ولم يبد أي إبطاح لسبب قلقة حتى مساء  
وصولنا إلى ( جبة ) . وعندئذ اتضح أن ( راضي ) ذكر  
أثناء الحديث اسم شيخ ما ، من شمر ( أبي رمال ) وقال انه  
يعيش في تلك الجهات ، وتذكر محمد أن شيخاً بذلك الاسم  
غزا ( قديم ) منذ سنين كثيرة . دار قتال وقتل رجل أو  
اثنان من شمر ، وكان هذا كافياً ليسبب احتمالاً كبيراً ان النار  
بين عائلته وآل ( أبي الرمال ) لم يسو بعد . ومن أجل ذلك  
توصل إلينا الا نذكر اسمه في ( جبة ) إذ أنه هو وعبد الله  
من اهل تدمر . وصار السبب أقوى لأنه اكتشف ان ( نايف )  
مضيفنا ، كان نفسه قريباً لآل أبي الرمال ، وكان من حسن  
الحظ ان ( تدمر ) لم يذكرها أحد بعد انتهاء الحديث . وفي

المساء جاء إلينا وهو متالتى جداً ، ليخبرنا بأنه لم يعد هناك أية حاجة للنظر تحت توقع الشر . فقد استطاع بمعرفة أن يحرق الحديث مع ثائف إلى الموضوع الذي شغل ، وعلم أن النار قد اعتبر متنها . لمحمد بن رشيد كان ، قبل أن يصير شيخاً لشر ، أميراً للحج أيام أخيه طلال ؛ وهو مركز يخلع على صاحبه شرفاً ويدير له ربحاً ، وبصفتك تلك تعرف على كثير من أهل تدمر في الأماكن المقدسة ، وعندما فاز بشيخة شر كان قد ألف بينهم وبين قومه . فهو أما قد دفع الدية بنفسه أو ضغط على أبي الرمال لينازل عن الانتقام ، وأعلن أن النار قد انتهى . وأياً كان السبب الذي جعل الأمير يسمى لاقرار هذا السلم ، فقد كالت من ملابسات الحظ بالنسبة لنا ، ومحمد وثائف الآن من أحسن الأصدقاء .

وفي صباح مفادرت جبة ( مكثنا هناك ليلتين ) ، قص ثائف على محمد ، وهو يودعه ، حلماً غريباً رآه تلك الليلة ، قال : انه ذهب لبنام وهو يفكر في النار القديم ، وفي نومه ظن انه سمع صوتاً يعيره أنه أهمل واجبه في الانتقام من الرجل الذي كان ضيفه ، ووقع تحت هم كبير للتعارض بين واجب الانتقام وواجب الضيافة ، ولذا نهض من نومه بتحسب بحماً عن سيف ، ووجد نفسه يفعل هذا عندما استيقظ . ثم تذكر أن النار قد انتهى ، وقال الحمد لله . وذهب لبنام من جديد . وقال لمحمد في نهاية القصة : أي شيء فطيم كان سيقم ، لو

أجبرت على قتلك ، انت ، ضيفي !. وزعم محمد بن أنه حق  
 إذا لم يكن النار قد سوى ، فان ( تائف ) ما كان ليفعل  
 أي شيء ضده ، بعد أن أكل وشرب معه في بيته. وعلى الأقل ،  
 هكذا ستكون القاعدة في ( تدمر ) ، ولو أن الأخلاق في  
 نجد قد تكون أكثر صرامة .

مكننا ، كما قلت ، لبلتين فقط مع ( تائف ) .

## أطفال غير مؤدبين

وكان شباب القرية فضوليين ومزعجين ، وكنا مجبرين على  
 أن نثير ذلك ميسيفنا وهو أمر غير مستحب ، ولكنه ضروري  
 في بعض الأحيان . وأستطيع أن أقول أنهم لم يقصدوا ضرراً  
 ولكن طباعهم كانت سيئة ، وكان في نفوسهم شيء ما  
 عدواني تقريباً عن ( النصراني ) وكان من الملائم أن يكبح .  
 وبسرني أن أقول إن هذه هي المرة الوحيدة التي رأينا  
 فيها إشارة إلى الدين غير سارة في بلاد العرب. فالعرب بطبيعتهم  
 متساعون إلى آخر درجة في هذه النقطة ، والتعصب القومي  
 أو الديني مدمر للغاية .

## تصرف بسبب القلق !

وعلى أية حال فقد جعلتنا هذه القصة الصغيرة قلقين نوعاً

ما على استقبالنا المحتمل في حائل . فلم يتوغل اوروبي واحد  
ولا مسيحي من أي جنس قلنا كما توغلنا في جبل ثمر ، وكل  
ما عرفناه عن الناس والبلاد كان استحضاراً لتقرير المستر  
( بلجريف ) عن زيارته تلك البقاع متغنياً منذ ستة عشر عاماً .  
وعلى اساس ما عرفنا ، فان رشيد قد يكون ميله البنا بنفس  
الدرجة من السوء التي كان عليها ميل هؤلاء ( الجبيين ) وكان  
الواضح أننا بدون رضا وحايته ، نخاطر بمخاطرة عظيمة في  
دخول حائل . كنا قد عرفنا الصحراء الحمراء ، ولم يكن  
الرجوع ممكناً وكان لا يمكن ان نفعل أي شيء سوى ان  
نضفي وجهاً جبلاً على الاشياء ونتقدم في طريقنا .

## من تاريخ ( آل رشيد )

استعوبنا ( راضي ) عن طبيعة الاحوال في حائل ، وقد  
اضع هنا كل المعلومات التي اعطانا اياها كما ثبتها وجسمها الرواة  
المتأقرون . لقد استقينا الحقائق الاساسية منه .

أكد ( راضي ) ، بالدرجة الاولى ، في عبارات عامة  
التقارير التي كنا قد صممناها عن تاريخ عائلة ابن رشيد

## ( عبد الله ) المؤسس الاول

فعمد الله ابن رشيد ، وكان بجوده ( رله ) في ذلك الوقت ،

من فخذ عبدة من قبيلة شمر ، خدم مع آل سعود اصحاب  
أعالي نجد ، وعينه الأمير الوهابي قائماً في جبل شمر ، وكان  
عمارياً عظيماً . واخضع كل البلاد للنظام بمساعدة اخيه عبيد  
البطل الرئيسي في ترات شمر

## ( عبيد ) الرشيد

لم نسمع شيئاً عن عبيد يؤكد قصص الشر التي ذكرها  
( بالجريف )<sup>(١)</sup> . وبالعكس لقد ترك سمعة عظيمة بين العرب ،

(١) مما ذكر بلجريف عن ( عبيد الرشيد ) :

[ بدأنا نقول له - لراول أمين الحزينة عند الأمير طلال - اننا نرغب  
في مقابلة « طلال » لنطلمع على أمور ذات أهمية بالغة . وبعد أن استمرنا  
بعض الشيء سرراً . اطلبناه على الحقيقة الكاملة ، وسألناه وأبده في الاقتراحات  
التي كنا مزمعين أن نقدمها للملك ( طلال ابن رشيد ) . فميز لنا موعداً  
للمقابلة ، وادخلنا عند الفجر من باب سري ، إلى غرفة منزلة ، يقوم بمحاربتها  
عبيد سرور ، ويقف بعيداً عنها حراس مسلحون ، لا تصلهم أصوات المتكلمين  
فيها . فألينا طلال مستعداً للاستماع إلينا .

وقد شرحت له باختصار أسباب رحلتي ، واطلمت على المكان الذي أتينا  
منه ، والأمل الذي حدا بنا للمجيء . إلى بلاد العرب . وما فتظروا من  
حسن التفاهل .

وثلث ذلك بحادثة استغرقت ساعة كاملة . واختم طلال الحديث مصراً  
على التكتف المطلق قائلاً : « إذا ما عرف الأمر الذي قباحنا فيه الآن ،  
أصبحت حياتكم وحياتي في خطر » .

وتتألف ملحمة القصة من أحداث عرصي مبهمة عبيد عم طلال المكار الذي كان  
يتظاهر بالوردة والطفل ، والذي نزع عن وجهه الحجاب ذات يوم ليظهر وجهه  
الرهيب !





ولم تكن يوماً ما أديراً بالفن لجل شعره ، وللمرءة ، بعد  
 موت حبيبته ، حكم البعاد في الدافع ، وثابت هو الذي أشار  
 بتخصيم الحسنى القوي في السقود وعاشق إلى أن ملصق في المس .  
 . . . . . نبع صوات فقط ، وبعد أن حصد الشلل من  
 الحشر مما تحت ، بضعة شهر قبل موته . ويحكى عنه أنه لم  
 يترك مالا ، بعد ، بعد أن وهب كل شيء . ثناء حياته لم  
 يترك مالا سوى سبعة ، ومهره ، وروحته لشاة ترك هؤلاء  
 لأن أخيه محمد ابن رشد ، لأمير الحكيم مع رجاء ابن  
 سفة يحب أن يبتني معبداً ، والأبرشده مهره ، والا نتزوج  
 أرمله ابن الأبرشده ، وحرهم بن رشد وعمتي عمه الأولى والثانية ،  
 غير أنه ضم زوجة عمه إلى حريمه

## ظهور بن عبد الله

مات عبد الله بن رشد عام ١١٨٦ . وحفظه في نسخة من

سبعين لوقت ، ولم نأ أن نسمه ذلك لصحت . وأسير رفع شعره ، وحدث  
 في عيني وقفاً ، وأمر نفسي في هذه الظروف الحادة ؛ ولي أكون من فئة  
 التقدير في درجة اعظمي فيها حراماً تدبياً ، سماً على محامرات كحمار تلك .  
 على أبي الأكدلك ، أما خلال ، مؤرق ، وإداني التي لا تتروغ قابض  
 رحلتك الآن ، وبعدهم تعود ، وأمل أن لا تعطي في العودة ، تصبح  
 كلامك فأولاً ، وحينئذ كل ما تريد . هل أنت راضي ؟ ؟ لكذلك : أن  
 سوانه قد حقق لي ، وعباتي ، وتصامح علامة للتحالف الشبدي .

( من كتاب اكتشاف حرية العرب ص ٣٠١ / ٣٠٢ )

ونياية حائل ابنه طلال ، الذي اتخذ لنفسه لقب أمير وحمل نفسه مستقلاً تقريباً عن الحكومة بوهابية . ولا يدور هناك كلام كثير عن طلال في حائل لأن . فقد ترك قليلاً من السمعة التي كان المرء يتوقعها من تقرير ( بالجريف ) عنه .

وفي زمانه فتح اخوه وخليفته متعب الجوف و ( اتري ) ، واسم متعب يتكرر ذكره اكثر من اسم طلال . ومنذ ثني عشر سنة اختلت قوى طلال العقلية وانتحر . لقد طعن فيه بختنجره .

## متعب بن عبد الله

وترك خلفه عدة ابناء اكبرهم بندر ، واخوين : متعب ومحمد ، الى جانب عمه عبيد ، وكان شبيهاً طاعناً في السن آنذاك ، وعدة أعمام .

وكان بندر في ذلك الوقت غلاماً ، فخلف متعب طلالاً بموافقة كل الاسرة وعلى أية حال لم يحكم متعب غير ثلاثة أعوام ، وموته المفاجيء الى حد ما .

## بين محمد بن رشيد وبين بندر بن طلال

ثار نزاع بالنسبة لمن يخلفه . فمحمد ، الذي كان يشغل منصب أمير الحج لعدد من السنين ، كان بعيداً عن حائل ،

يرتب امرأ يتعلق بمنصبه مع ابن سعود في الرياض ، وبندر ، كان في العشرين من عمره ، أعلن أميراً وعاضده الأسرة كلها الا محمد وحمود ، اكبر ابناء عبيد ، لذي تربى مع محمد كإخاه ، ولما سمع محمد بهذا ، غضب . وقصد - كما اخبرنا راضي - ابناً كثيرة وكوفيته ( غزوته ) على وجهه كما لو كان في حزن ، ورفض ان يتكلم مع أي إنسان . بقي في الرياض ، يرفض كل عروض بندر ودعواته حتى اذا مات عبيد ، قبل الرجوع الى الرياض ، واستثنى عمله كأمر للصبح . عاد اليه هذا المركز بالكثير من النقود ، وكان مغرمًا بالنقود ، الا انه ظل يتأمر من اجل الشيخة ، يدبر الدسائس مع ( الشرارات ) وغيرهم من لبدو الدين تحت حكم بندر . وبهذه الطريقة انتهى الى اشباع طموحه .

## كيف استولى محمد على الحكم ؟

حدث ذات يوم او قافلة من ( الشرارات ) جاءت الى حائل لشراء تمر ، ووضعت نفسها تحت حماية محمد بدلا من الامير ، أغضب هذا بندراً ، فاستدعى محمداً وسأله عن معنى هذا الصلف . هل أنت الشيخ أو أفا ؟ ثم امنطى مهراً ، واطلق مهدداً بمصادرة جمال ( الشرارات ) ، فقد كانوا يخمين تحت أسوار حائل . الا ان محمداً نعه ، وفار نزاع عنيف بينهما فاستل محمد ( شيريتة ) ( وهو حنجر معقوف شائع

الاستعمال في نجد ، رطمن ابن ابيه ، ندي سقط مبتاً في  
الحال . وعاد محمد مبرعاً الى القلعة ، واستنصن بجمود ، الذي  
وجده هناك ، واستولى على الهل ثم قبض على ابيه طلال  
الصفار ، اخوة بندر ، جميعاً ، ما عدا طفلاً واحداً ، دائف ،  
وبندر ، الذي كان بعيداً عن حائل . وقطع رؤوسهم بأيدي  
عبيده في يهو القلعة . ويقولون ان حموداً احتج على هذا . غير  
ان حموداً إما انه كان طائشاً او انه رغب ان يشرى لرعب ،  
ولم يكتب بما قد فعل ، بل مضى في تحطيم أقاربه .

كان له بعض ابناء عم ، هم ابناء جده ، وهو اح اصغر لعمدات  
وعبيد ، فارسل اليهم . وأتوا الى القلعة منزعين ان حد ما ،  
ومع كل واحد منهم عبده . كانوا جميعاً شاماً ، جميلي المنظر ،  
وعلى درجة عالية من التميز ، وكان عبيدهم قد ربا معهم ، كما  
هي العادة ، فهذه كالأخوة أكثر منهم كخدم ادخلوا الى حلق  
القهوة ، واستقبلوا برسمية بالغة ، من قس خدم محمد بدعوتهم  
الى الدخول . والعادة في حائل ان الزائر قبل ان يجلس ،  
يجب عليه ان يعلق سيفه على احد الاوتاد الخشبية المتينة في الحائط ،  
وهذا ما فعله بناء جده ، ومنزلهم فعل عبيدهم ، ثم جلسوا ،  
وانظروا وانظروا ، ولكن لم تقدم قهوة . واخيراً طهر محمد  
محاضاً بحرس . ولم يكن هناك « السلام عليكم » ، وفي الحال  
امر « القيص على ابناء عمه وتقييدهم » فاندفعوا نحو سبوفهم ،  
ولكن عبيد القلعة اعترضوا سبلهم ، وسروهم . ثم امر محمد ،

ببربرية فظيعة فظيعة ، بقطع ايديهم وارجلهم ، ثم محسهم ،  
وما زالوا احياء ، الى فناء القصر ، حيث طرحوا حتى ماتوا .

## فسوة وعصية ، وكرم ، يعقبان أماً

ويبدو ان هذه الجرائم الشاحبة شحوب الموت ( وهي  
اكثر شحوباً في بلد سفك الدماء المتعمد فيه غير معناد ) -  
يبدو انها قد نشرت الرعب في طول البلاد وعرضها ، ولم يحرو  
اي امرى . منذ ذلك الوقت ان يرفع يداً ضد محمد . ربة ال الآن  
انه نادم على جرائمه ، و غاضب على نفسه ، بسبب ما  
افترف . غير ان راضي يرى ان السماء على الأقل غاضة بالمثل ،  
فع ان محمد تزوج مراراً وتكراراً ، فانه لم ينعم عليه بولد ،  
ولا حتى بنت ، وعلى أية حال ، وبصرف النظر - عن المداية  
السينة ، فان حكمه ، مع شدته ، قد كان صالحاً . فالاشخاص  
الآخرون الذين كابدوا الموت ، مع استثناء واحد ، هم قطاع  
الطرق ، وهؤلاء يفربون الآن عن حائل في نطاق ثلاثمائة ميل .  
ويمكن للمسافر ان يتجول في أي جزء من الصحراء بأمان  
واطمئنان ، دون مضايقة ، وكذلك لا يوجد لصوح في المدن  
ايضاً . وقد جعل جبل شمر مستقلاً بصفة نهائية عن الرياض .  
وقد قرو محاولة او اثنين من قبل الترك لابتلاع امارته وهو  
مخفي بالنسبة للجميع ويمارس كرملاً لا حدود له . ولا يطرد  
انسان من بابيه ، فقيراً كان أم غنياً ، بدون طعام ، و نادراً

بدون هدية من الملابس او النقود ، والكرم في بلاد العرب  
يقطعي الكثير من الخطايا ، وبإضافة الى ذلك ، فالعرب ينسون  
بسرولة ، ومحمد نصف مغفور عنه الآن ، والله يطول عمره ،  
هكذا هتف محمد بعد ان قص علينا هذه التفاصيل .

## بنو ربن طول .. يلحق بأخيه ا

كان الامتناء الوحيد الذي المعت اليه هو هذا . بعد عامين  
من نجاح محمد في الاستيلاء على الشباخة ، بدأت حلية بدر في  
النمو - وبدر الابن الثاني لطلال الذي لجأ من مذبحه اخوته -  
وذلك في رأي العرب علامة الرشد ، ولأنه شاب ذو روح  
سامية ، ومبادئ عليا ، فقد عزم على الانتقام لموت اخوته ،  
وكان هذا بوضوح هو واجبه طبقاً لشرع العرب .

وكان وحيداً ، بلا عون سوى بعض عبيد من عبيد أبيه  
السابقين ، الذين عاد الى بينهم في حائل سرّاً ، وبمساعدهم رسم  
خطة للانقضاض على محمد ذات يوم ركان يزور حمودا . ولو كان  
وجد الأمير لحرد سيفه وقتله ، ولكن ، كما حدث ، كان محمد  
قد خرج الى الحديقة ، ولم يكن حاضراً سوى حمود . سأله  
حمود عن مراده ، فقال : إنه رغب في الحديث الى الأمير .  
غير ان حمودا شك في شيء ما ، فاحتجزه وحذر الأمير .  
وعندما اعتقل بدر وعرف ، استجوب مرة اخرى ، وعندئذ

اعترف بليته في الانتقام لموت أخيه بدر ، وأنه لن يكف  
عن ذلك .

ويقول ان محمدا توسل اليه ان يصبث الى القتل ، وعرض  
عليه ان يطلق سراحه ، اذا كان سيقنع ويترك الامور لشأنها  
وقال . « لا اريد ان اسفك دماء اخرى ، ولكن عليك ان  
تعذني ان تغادر حائل » . ولكن الفتي رفض ، واخيراً وفي  
يأس امر باعدامه

أما العمد الذي رافق بدر فلم يمس بدوه . ولقد صرفه  
محمد بهدايا ، وهو الان يقيم في راحة في ( السماء ) على الفرات .

## نائف بن طهول .. ماذا سيكون مصيره ؟

وبعد هذه الحادثة ارسل محمد ، ويبدو أنه احسن بالندم  
من حراء شروره ، رسل الى نائف وهو البقية من اثناء طلال  
وكان ما زال صبياً ، ليعيش معه وعمله كالبه . ومنذ سنة  
فقط بعد أن رأى نمو الصبي نصحه بالزواج عارضاً عليه احدى  
بنات أخيه ، وهيناً له مكنا . ولكن الصبي - كما يقولون -  
رفض . وقال : « ماذا ؟ انك ستعاملني كما تعامل خروفا أو  
جديا ، تسمنه قبل أن تذبحه ! » بكى محمد وتضرع ، وأقسم  
أنه سيكون كآب لنائف ، ولا يزال يعيش ويعامل مبعجلاً في  
في منزل الأمير . والرأي في حائل مستقر على انه بمجرد ما  
يرشد نائف ، فإما هو وإما عمه يجب ان يموت . سوف يكون

من واجبه ان يتابع بدرا في محاولته ، واذا لزم الامر أن ينتهي نهايته .

كل هذا ، كما يمكن ان يفترض ، كان أي شيء الا ان يكون بيا سارا بالنسبة لنا ، ونحن في طريقنا الى حائل شعرا كما لو كنا متجهين نحو عرين حيوان متوحش .

## نسيم ( نجد ) ( وتمر ) الجبل . ونار

### الأرضي ١

وفي نفس الوقت كان أمامنا ، على أية حال ، أربعة أيام ، أربعة أيام من الراحة ، ومن الهدوء الذي تمنحه الصحراء وحدها ، واتقنا على التمتع بها حتى النهاية . هناك شيء ما في هواء نجد ، كميل بأن سهج حق إنساناً مُدَاناً ، وكنا بعيدين حين ان نكون مدانين .

من استحيل أن نحس حقاً بأنك معوم ، أو قلق . فما مع شمس ساطعة كهذه ، وهواء نقي منمش كهذا ، فد نحس بوجود خطير ، غير أننا لم نستطع أن نحس بنوتر .

نذكرنا ليالينا الثلاث الأخيرة في النفود الصحراوي ، نار ضخمة من الأرضي ، نحس حولها في ضوء النجوم الواضح ، نتمتع



فالتعب الذي اشترناه من ( جنة ) ، والعباءة المبهمة والقوة  
بين الخدم .

وسوف أقدم مذكرة يوم واحد ، الثاني والثالث من  
يناير .

( لقد كنا نعيش في الرمال العميقة طوال اليوم على مهل ،  
بكثير من الغناء والمث بين الرجال ، فحين لم يعد الآت  
على عجل .

## قربنا من مدينة ( هائل ) .

بقى فقط يوم واحد حتى نصل إلى قنا ، أول قرية  
في جبل شمر . والجمال ولو أنها متعبة ، لا تخطر عليها الآن  
من الانهيار ، وعندها نروى من حشائش السحق لتواعها ،  
وقد بدأت خصلات الحشائش الآن تطلق براعمها الجديدة .  
والنفود هنا واسع كما هو دائما ، والافلاج عميقة أيضا ،  
ومبردا بأثر لبقرة وحشية ، قبل أقل من ساعة من وفءنا .

وفي الثالثة والنصف صادفنا رعيًا يسوق أربعين رأسًا من  
الضأن إلى سوق حائل . وهو شيخ من شمر ، من آل  
( الرامس ) ، رأينا خيامه اليوم بعيدة في الشمال الشرقي .  
وهو يسوي بيع قضيعة على الحجاج الذين يتوقع وصولهم  
حائل اليوم . ويقول : إن الحجاج في طريقهم من مكة ،

وسيمكنون أسبوعاً في حائل . من يدري فقد ناسف معهم ؟  
والأغنام ، التي ظننتها لأول وهلة ماعزًا ، مخلوقات هزيلة  
طويلة الأطراف ، ذات شعر حريري طويل ، ليس صوفًا ،  
نمو متدلياً حتى حوافرها ، وآذان ملساء بندولية ، ورجوه  
دائمة ، وجودها سوداء حالكة ، ورؤوسها بيضاء ذات بقع  
سوداء حول العينين ، والأنف تدو كما لو كانت شربت حليباً .  
وهي لا تشبه الضأن كما يمكن إدراك ذلك من الأطراف والذيل  
والوجه . ولكن لها ميزة هي مقدرتها على الحياة على  
( العاذر ) " شهر بدون أن تحتاج إلى ماء ، ويخيل لي أنها  
خاصة بنجد . كانت هذه المذبذبة علامة للتوقف لمشاهدة  
فلج " صعب ، مهش ، اتساعه كاف ليحتويها رمل حوض  
من النصبير .

انزلقنا بعيداً منعبر الرمل ، ونسئم الجمال بيننا كانت  
محمد يساوم الراعي على أسمن خروف في القطيع . هنا حطط  
رجالنا ، وفي عشر دقائق أخرى كانت الجمال مسمرة على  
جوانب التل ، فقد كان هناك تل رملي بالقرب منا ارتفاعه  
على الأقل مائة قدم وكان إبراهيم - القصير - قد عين ليراقبها

(١) نوع من الشجر .

(٢) تعبر لكبة بكسر هـ بما يطلق عليه في نجد اسم ( حبة ) وهي  
الأحجار المنخفضة بين كتبان الرمل ، التي يطلق على أحدها دعص .

بينما شغل الآخرون بإقامة الخيم . وكان يوجد حطب وافر ،  
كتل بيضاء جميلة تشتمل كأعواد الكبريت .

## منظر رائع .. جبال ونهول تذكر

### بأسبانيا :

صعدنا إلى قمة التل لتري الجهات المحيطة بنا من البلاد ،  
لأنه يوجد هناك منظر رائع لجبل شمر ، لا قمة منعزلة هناك ،  
كما ظن ( كولفيل ) في السنة الماضية ، بل سلسلة طويلة من  
الجبال الرائعة ، تمتد بعيداً إلى الشرق والغرب ، تذكر  
الإنسان إلى حد ما ( بسيرا جوداراما ) في أسبانيا . وهناك  
أيضاً عدة قمم بعيدة متميزة عن السلسلة الرئيسية . وخلفنا ،  
في الشمال الغربي ، مجموعة ( جبة ) ، مع متواليات إلى الغرب  
والجنوب الغربي . وإلى ناحية الشرق توجد نقطة واحدة -  
جبل ( عطنوى ) .

### موقع مدينة ( حائل )

وتقع حائل إلى الجنوب الشرقي تقريباً ، مبنية في مرتفع

( ١ ) الظاهر أنها تقصد جبال ( الطوال ) وتقع في الشمال الغربي من حائل .  
أما جبل ( عطوى ) . بفتح العين وسكون الطاء ثم واء مفتوحة ممدودة .  
فمنطوق الذاهب من حائل إلى حير .

وعر قرب الطرف الشرقي لسلسلة جبل ( اجا ) ويبدو الأفق  
 الشمالي ممداً امتداداً فيسبباً أمام النظر . وبعد أن انتهينا من  
 هذا ، نزلنا - نحو الاثنين - لنفيس قلباً على بعد نصف ميل  
 ووجدة عمقه مائتين وسبعين قدماً ، وأرضه صلبة ، وعلى  
 جانبه المستقيم الانحدار علامات منتظمة من آثار أقدام أغنام ،  
 تبين مدى الثبات الذي ينظر عليه سطح النفود ، لأن من  
 الواضح ان الممرات الصغيرة ذات تاريخ قديم <sup>(١)</sup> .

وبعودتنا كانت قهوة ( حنا ) الطيبة معدة مع طبق من  
 الحبيب والكاري ، لتهدئة الجوع حتى يغلي لحم الخروف . وكان  
 ( عواد ) الذي يسهه أن يقوم بعمل الجرار ، قد ذبح الخروف  
 وسط مخيمنا . فالعادة أن تنحر على باب الخيمة ، وكان يلمنح  
 الجمال بالدم ولما سألناه عن السبب قال : « سوف تبدو كما لو كنا  
 قد دعينا الى وليمة » ، وانه ليبدو دائماً حسناً أن يكون على  
 جبل المره رذاذ من دم ، وكان قد نصب ثلاثة من أعمدة  
 الخيام ليمسك عليها الخروف ، وهو يجري الآن نقطيمه بصورة  
 فنية حقاً . وابراهيم الطويل وعبد الله يحمان كومة عظيمة من  
 الخطيب من أجل الليل . و ( حنا ) يستعد للطبخ . وقد كان  
 ( حنا ) المسكين يحابه وقتاً عصيباً من جراء الطبخ ابتداء من

(١) استفهام - ألا يمكن أن تكون هذه هي العلامات الخروفية التي  
 لاحظها المسير ( بلجريف ) ، ونسبها الى فعل الريح . في وصفه للوامة ما  
 في النفود ؟

( سكاكا ) ، لأن على كل انسان أن يسير على قدميه الآن ،  
 ويصر هو على المشي أيضاً ، حتى يمنع الشاكل ، كما يقول ،  
 وربما يكون على صواب . فسيحي منتظم من حلب ، مثل  
 حنا ، في بلد كهذه يحسن صمماً بانكار ذاته وإزالة سلاح الغيرة  
 ما لم يستطع المواخاة ، ويوحى في نفس الوقت بالاحترام ،  
 ويبدو ان ابراهيم قد فعل ذلك . وحده حبور ، ولا يشكو ،  
 ويبادر الى الانبساط حين ( بكايده ) الآخرون ، ولو ان  
 عياه بطل أسيفاً . وأنا أبذل جهدي في حديثه ، ولكنه لا  
 يجسر على أن يقوم من جاسه بنصيبه

## محمد « الدليل » .. وأسطورة « آل

### عروج »

وأخيراً ، فان محمد يرفأ ثوبه ، استعداداً لظهوره في البلاط ،  
 ويتحدث مع اثنين من ( جنة ) ، مسافرين معنا ، عن مقاعب  
 ابن رشيد ، وعظمة ( آل عروج ) ، وأسطورة ( ابن عروج ) ،  
 ككرة اللعاب ، تتسمع كلها تدحرجت . وإنا لتوقع غداً أن  
 محمداً سيطهر في حائل في شخصية أمير . هـ يتكلم عن نجد  
 كأنها من ممتلكاته الشخصية . ويبلغ حواً من الحماية علينا ، كما  
 يفعل المضيف في تكريم ضيوفه . أما فرعه من ( أبي الرمال ) فقد

نسيه تماماً . وعلى أية حال ، كنا من كان أميراً أو فلاحاً ،  
 فلحمد ميزة كونه دائماً حسن الطبع ، وأنه مُسَلِّمٌ هذا المساء ،  
 فقد كان يحكي لنا تفاصيل تاريخ صلاته بحسين باشا في الدايرة ،  
 وهو ما لم نفهمه تماماً من قبل ، وما لا أحرؤ على إعادته  
 بالتفصيل لئلا أسبب له المتاعب . لقد ذهب الى السجن  
 مرتين أو ثلاثاً ، ولكن يبدو أن ( حبيباً ) المكيين قد صنع  
 منه غي حزين ، وقدم لنا محمد أيضاً تقريراً كاملاً وصادقاً  
 وغريباً عن موت أحمد بك موالي .

## تفكير في مقابلة ( الأمير ) !

وعندئذ تبحت طويلاً في الطريقة التي منقدم أنفسنا بها  
 في حائل . فمحمد سوف يقترح أن على ( ولفردي ) أن يقدم  
 نفسه كساجر مافر الى البصرة لاستعادة دين ، ولكن هذا ما  
 لن نفصت له . إننا نرى إنه الأنسب والأكثر فطنة أن نكون  
 صرحاء ، وننوي أن نخبر ابن رشيد أننا اشخاص ذوو مركز  
 نبحث عن أشخاص آخرين ذوي مركز ، واننا قد نعرفنا  
 بان حمير وابن شعلان وكل مشايخ الشمال ، واننا في كل مرة  
 رأينا رجلاً عظيماً ، وقد اخبرنا ان هؤلاء لم يكونوا شبيهاً في  
 الحلال بالنسبة لأمير حائل ، واننا عند سماعنا ذلك ، ولكوننا  
 في طريقنا الى البصرة ، قطعنا النفود لنزورهم ، كما فعل الناس في

ابام سلفت ليروا سليمان بن داوود ، وعندئذ يقدم هدايات ،  
وتتمنى له عمراً طويلاً

واضطر محمد الى ان يعترف ان هذه ستكون حطة افضل  
وهكذا تقروا .

وبظن ا راضي ا ا وهو الذي قد وثقا فيه كثيراً او  
قليلاً ، ان الأمير سوف يسر ، وبعد ان يتغنى بمدحنا ونحت  
السلام . ويتحدث عن الفرعبي وهو «نعم» في حائل ، وبعد  
ذهابه من حائل يحمل نقوداً وملابس من ابن رشيد . أما من  
يكون ذلك ، فلا نستطيع ان نتصور ، لان ( بلجريف ) لم  
يكن معروفاً هناك كأوربي .

## (سيرة) ممتعة .. في رمال (النفود)!

وهكذا تمهلنا الوقت حتى كان العشاء معداً ، وحينما شعر  
الجميع بأنهم قد تمتعوا تماماً جاء محمد ليدعونا الى نادي الخدم  
حيث كانت تدور ألعاب القوى . وفي البداية ، يتمدد عبد الله  
على الرمل ، ويوضع ( شدد ) الجمل على ظهره ، ثم يوصع  
خرجان عظيمان بزن كل منهما حوالي قنطار ( ١١٢ رطلاً )  
وهذا كله يكافح لبقف على ركليه ، ثم يبذل جهداً مفرطاً  
لبقف على قدميه ، فيترشح خطوة وينكفر . ويرفع محمد ،

وهو لا يجازي ابراهيم قصير ، ريزن على الاقل ١٦٨ رطلا  
يرفعه من رجله على راحته . ثم يصنعون دوائر كتلك التي  
تشاهد في السيرك .

## انواع من اللعب ..

ثم يلعبون نوعاً من ألعاب النطة بأن يقفوا في صف ، الواحد  
تلو الآخر ، وينط الاخير على اكتافهم ويمرر حتى يأتي الى  
نهاية الصف ، حيث عليه ان يدور دائباً ويستقر كيفما يستطيع  
على رأسه او كعبه . وهذا مثل جداً ولا يؤلم احداً في  
الرمل العميق

ويشارك الجميع الا احناء في هذه الرياضة البدنية ، غير  
ان عواد ، وهو بدوي المولد ، يسير في اللعب بوجه مصفر  
نوعاً ما . فالدو لا يلعبون قط للامانة كما يفعل عرب المدن ،  
وليس لديهم القوى العضلية التي للآخرين . وعلى أية حال ،  
فقد انتقم عواد لنفسه بأن اخفى قليلاً من الجمر في الأرض  
بشكل 'مود و بين آونة وأخرى يبطأ شخص ما على هذه  
الفخاخ بقدميه الخافيتين ، فتكون هناك صرخة . وتسلية  
كبرى تسبب أيضاً بأن يرهقوا ولغرد : اللعبة القديمة  
بالدوران على الرأس ثلاث مرات مستقراً على عصا قصيرة ثم  
محاولة المشي على خط مستقيم . ويعتبر هذا مضحكاً جداً ،



وهم عموما يريدون ان يلقوا فوق ( حنا ) ، وعندما يحاولون  
يحاولوا يرتبون ان يحرقوا إلى النار .

وأحسن لعبة ، في رأيي ، هي شيء ما يشبه تلك التي  
يلعبها البحارة ، أحيانا في سطح المركب . فيضمون عباءاتهم  
جميعا في كومة واحدة ، وعلى رجل واحد أن يقوم بحراستها  
ثم يرقص الجميع حوله ، ويحاولون ان يسرقوا الملابس بدون  
ان يمسوا .

وإبراهيم طويل عظيم في هذه الرياضة ، وهو يدافع عن  
الكومة بيديه الضخمتين ورجليه ، مسددا ضربات شديدة نحو  
من لا يأخذ حذره ، بحرزا - كما الخيل - كثير أمن الدرجات  
ويتلقى عدائه بشكوى خاص - وهو غير محبوب من  
البقية بسبب سوء طبعه - يتلقى ضربة نظيفة على رجله  
بركلة كما تركل كرة القدم تقريبا .

وتكاد تنشب معركة . غير ان عواد الخاذق يحول الموقف  
بأن يسرق بندقية ، ويطلق النار فجأة من أعلى الفلج ،  
ويتدحرج على الرمل لمثل غزوا . وهكذا يمر المساء ،  
وعندما نعود إلى مخدعنا الخاص نشاهد شفق البروج في غرب  
السماء للمرة الأولى .

كانت هذه آخر ليلة لنا في النفود ، ومثلت ذكراها لنا  
كمقاس لسعادتنا ، حين كنا حبيسي الجدران في حائل ، أو  
مسافرين في أراض أقل إثارة للسرور .

# الوصول الى ( قنا )

وفي اليوم التالي بلغنا ( قنًا ) ( ١ ) ، أول قرية في جبل  
شمر ، والجبال نفسها بعد ذلك يوم ، ( الجبال السعيدة )  
التي ظلت طويلا هدف حجنا .

## ذكرات رائدة

٢٣ يناير : ( ١٨٧٦ م )

انه حلم أن تجلس هنا ، تسجل يوميات على صخرة في  
جبل شمر . وحينئذ أتذكر كيف قرأت ، منذ سنوات تقريبا  
بلجريف ( الرومانتيكي ) الذي لم يصدفه أحد ، عن دولة  
مثالية في قلب بلاد العرب ، وعن أرض سعيدة لم يرها أحد  
سواه ، وكيف بدا كل ذلك مستحيلا وغير حقيقي ، وكيف  
سمعت ، مؤخرا أثناء سفرة ، عن محمد وحائل وجبل شمر  
هذا نفسه ، يتحدث عنه بنوع من الرهبة كل من سمع باسمه ،  
حتى البدو ، ومنذ اليوم الذي أجاب فيه في حلب السيد من  
عن امثلتنا الفاضلة عنه بقوله : « من الممكن الذهاب إلى  
هناك . لم لا تذهبون ؟ » .

( ١ ) قن - بفتح القاف والتون بعد ألف مقصورة . ومن عادة سكان  
لك الجهة ان يطقوها باسمكان القاف ( قنا ) وهذه الصورة كتبها الرحالة .

واني لاشعر اننا قد الجزأ شيئاً ما لا يتاح لكل واحد ان  
يفعله .

## لا بلر يئب «جبل سمر»

ويصرح ( ولورد ) انه سيموت الآن سعيدياً ، حتى لو قطعت  
رؤوسنا في حائل . وانها لقاعدة مطردة ومفضلة لديه ان كل  
مكان هو مثل اي مكان آخر تماماً ، الا جبل سمر فلا شيء  
يشبهه ، على الاقل فيما شاهدت في هذا العالم ، الا ان يكون  
جبل سينا ، وهو اجمل من ذلك .

## وصف قرية ( قنا )

كل رحلتنا اليوم كانت قصة خيالية ( رومانس ) . مررنا  
بلدة ( قنا ) في الصباح الباكر ، ونوقفنا فقط لستي حيواناتنا .  
وهي قرية صغيرة جميلة ، لشبه ( جبة ) ، على طرف الرمال ،  
ولكنها تلك ما تفكر اليه ( جبة ) ، حقول مربعة من الشعير  
الاخضر لا تحيط بها اسوار . وهذه طمناً بفضل الري ، الذي  
شاهدناه يجري ثناء انظرنا من بشر كبيرة ، ولكهم يخلعون  
عليه منظرأ زراعياً اكثر من احراج النخيل المسورة التي  
شاهدناها حتى الآن .

وبعد ( قنا ) مباشرة جئنا الى ( صبة ) وفي انشراحنا  
نعاذينا عن امهارنا في مرج وخيلاء ، كان من أثرها ان ازلت  
تصلب اقدامها وركت أثرأ حساً فيها .

## التربة .. والذبات « وجبل سينا »

وكانت التربة مجمدة بحمال ، وثابتة ، مكونة من قساع  
( جرابيني ) رفيع ، مختلف تماماً عن تكوين الصخر الرملي  
في ( حمة ) و ( الحيف ) والنفقات تغيرت هي ايضاً فالارطى  
والماذر رسات النفود الاخرى اخفت ، وحل محلها اعشاب  
أذكر اني شاهدها في وديان جبل سينا ، مع اشجار صغيرة  
احياناً من فصيلة ( السط ) تعرف لدى الحجاج بـ ( عليقة  
موسى ) ، طلع في العربية - وايضاً نبات ذي اوراق غليظة  
خضراء عديم السوق تسمى « غيشة » (١) يقولون انه طيب  
للميون . وبين آوبة واخرى كانت تبرز صفاة متوحدة ، كلها  
من ( الجرانيت ) الأحمر ، في السهل ، أو مجموعة صغيرة من  
الصخور المستديرة ، ومنها افزع عددأ من الارانب البرية .

## روعة معالم جبل سمر :

وكان المنظر من أمامنا جميلاً بفوق لوصف ، سهلاً كامل

(١) لعل الكتابة تلمذ نبات ( الجلاء ) أو ( الجلوه ) كما يسميه بعض البعور .

الاستواء ، يتدرج في الارتفاع ، ومنه تفتق هذه الصخور  
 وتتلألأ كجزائر ومن ورائه الجمال القرمزية اللون قريبة منا  
 الآن ، ذات طرف صيف كان هاديا لعدد أيام ، نشع على  
 الجيـم . ان معالم جبل شمر لها روعة غريبة ، ترتفع مكونة  
 زر وقفا وقفتا ، تركة ها وهناك كوة تستطيع من خلالها  
 أن ترى السماء ، أو صفاة عجيبة جافة وكأنها صخرة قد خرج  
 على خط السماء . وكانت إحدى الصخور في شكل جبل ،  
 وأب السوف نخزع أي شخص لا يعلم أن أي جبل لم يكن في  
 استطاعه أن يقطف إلى هناك .

وفي الساعة الواحدة والنصف ( بعد الظهر ) عدنا أولى  
 لكن لصخرة المفصلة التي تتصب كقلاع خارج حصن ، ثم  
 مبتعد إلى اليسار ، وعلما كنف التكوين الرئيسي التلال .  
 وترتفع هذه بفتة من المسطح الناعم المنحدر للسهل ، خلافا  
 لجمال معظم البلاد ، بدون فصل من الأرض المتكسرة .  
 جبل سب ( النور ) هو الجبل الوحيد الذي رأته كهذا .  
 ولي تكلنا الحالتين نستطيع ان تلق على السهل ونفس الجبل  
 بيدك . فقط على مسافات من شقوق في التلال تجري وديان ،  
 مينة ان المطر ينزل أحياء في جبل شمر . وحقا ، من المحتمل  
 ان نجد الدبة برهنا على هذا لأن سحابة عظيمة سوداء ترتفع  
 خلف التمام ناحية الغرب ، وبين آونة وأخرى يدمدم الرعد .  
 كل شيء في خيمتنا يحكم ، ومؤمن ضد المطر .

وتوجد وهدة في الصخر بالقرب من المكان الذي خبئ فيه ، وفيها صهريج طبيعي مملوء بالماء . ولم نكن لنكتشفه لولا الراعي الذي جاء معنا اليوم ، لأنه مستور بعيد تحت بعض الصفا ( الحرانيتية ) العملاقة . ولتصل اليه عليك أن ترحف خلال كوة في الصخور ، وينمو عدد من النباتات البهيجة في وسط فجوة ، ورأينا زوجا من الحجل ، وهو طير ملون صغير بمنافير صفر .

## جماعة من "شمر" ورجل من "شرب"

مررنا بجماعة صغيرة من بدو شمر ، يتقنون تخيمهم اليوم . وكان مع أحدهم باز صغير على ذلوله ( الأكثر احتمالا طائر حر ) . ولم يكن معهم حيل ، ولم نعد على أثر حصان ، منذ أن تركنا ( الشقيق )<sup>(١)</sup> .

نسبت ان اقول أنت رأينا امس بدوياً من حرب ، رجلا صغيراً قبيح الوجه ، أخيراً أنه يرعى عنا للامير . وحرب قبيلة تحتل الاراضي المجاورة للدينة ، ولها سمعة شريرة بين الحجاج .

٢٤ فبراير ( ١٨٨٠ م ) .

عاصفة في الليل ، أرسلنا راضي ، في الصباح الباكر

(١) الشقيق - فتح الشيخ بعدما قاذ مكسرة منهل ماء في حارة والجوف .

بخطاباتها الى حائل ، لأنه لم يبق علينا أن نسير الا بضعة أميال .

## كان صباحاً جميلاً ، ولكن ..

كان صباحاً جميلاً بعد المطر ، والظير تقرد في الاسكات  
تفريداً حلوا ، غير اننا جميعاً أحسننا بقلق . حتى محمد كان  
صامتاً ومنشغل البال ، لأنه لا أحد يعلم ما قد تأتي به أبة  
لحظة . وعلى أبة حال ، فقد ارتدينا أحسن ملابس ، وحاولنا  
أن نجعل جبادتنا تبدو أكثر ثامناً .

وكنّا نوقن أن نجد حائل ، على الحجاب الاخر من التلال  
غير أن هذا كان غلطة . وبدلاً من عبورها ، ظللنا على طول  
الطرف ، فبيل تدرجياً نحو اليمين ، والأرض ما تزال تعلو .  
وسجل ( البارومتر ) في الحميم ٢٣٧٠ ، وهو الآن يسجل  
علامة الحدار مائتي قدم

## ( اللقيطة ) و ( الوقيد ) من قرى حائل

مررتا بقرتين هما اللقيطة <sup>(١)</sup> والوقيد تقعان على بعد ميل  
إلى يسارنا ، ومن احداها انضم إلينا بعض الفلاحين متجهين  
إلى حائل على حمار . وهذا أكثر تحضراً من كل ما قد

(١) اللقيطة بفتح اللام وكسر القاف والوقيد بفتح الواو وكسر القاف .

رأينا منذ أن تركنا سورية . وقد بدأنا نصبح قلقين ومتعجلين  
لنتيجة رسالتنا ، حين ظهر ( راضي ) وأعلن أن الأمير قرأ  
خطابتنا ، وأنه سيُسره أن يرانا . وأمر بأعداد منزلين من  
أجلنا ولم يبق شيء نقوم به أكثر من أن نركب إلى المدينة  
ونقدم أنفسنا في القصر .





## القسم الخامس : في بلاط ابن الرشيد

إ في هذا الفصل وهو العاشر من الجند الأول من الكتاب - تتحدث الكتابة عن مشاهداتها في مدينة حائل في قصر الأمير محمد بن رشيد .

ومما يؤسف أنها لم تفتح لها الفرصة للاختلاط بسائر مجتمعات المدينة كما أتبع لها في القصر - ولو قدر لها ذلك لرسمت صورة رائعة عن الحياة الشعبية في ذلك الوقت).

## وصف مدينة هائل

... ولما أتينا الى قمة مرتفع وأبنا فجاء حائل نمت  
أقدامنا ، على بعد ليس اكثر من نصف ميل . والمدينة ليست  
بصفة خاصة مؤثرة في النفس . فمعظم بيوتها تحفها النخيل ،  
والسور الذي يحيط بها ارتفاعه أرفع قليلا من عشرة أقدام .  
والبنية الوحيدة الهامة التي أمكن رؤيتها كانت قلعة كبيرة  
قريبة من مدخل المدينة ، هي قصر ابن رشيد . ولن اسى  
الانطباع الذي اخذني حين دخلت المدينة من نطقة الجدران  
والشوارع الحارقة للعادة ، والذي يكاد يعطي جواً خيالياً .

### في قصر الامير محمد بن رشيد :

وكان استقبالنا في قصر الامير هو ما نسيناه . وحين  
ركبنا متجهين الى هو القصر قابلت حوالي عشرين رجلاً حملي  
الهندام . مما جعل دليلي همس : ( أولاد الامير ) الموكات في  
وسطهم يقف رجل مهيب ، في ملابس قرمزية ، ولحية في

بياض الثلج ، وممس الدليل ( الامير ) حينئذ وأشار الشيخ  
النبا بالدخول . ثم علمنا ان هؤلاء هم خدم الامير ، وأن الشيخ  
خادمه الخاص . ومرور خلال مدخل ملتو مظلم ، من الواضح  
أنه شيد بهذا الشكل بفرض الدفاع ، ثم انحدرنا الى مر مظلم ،  
تقوم على جانب منه أعمدة تذكر الانسان بدخل معد مصري  
قديم . ونظر أحد الخدم على باب منخفض ثم فتح الباب ووجدنا  
أنفسنا في حجرة الاستقبال . وبدأت أنيقة ذاتها - ٧٠ × ٣٠  
قدما - وبصف من السواري الخس ، وبضئ ، الفرقة فتحات  
مربعة صغيرة قريبة من السطح . ولم يكن في الغرفة أثاث  
سوى أوتاد خشبية قصيرة لتعلق السيوف . ودعينا الى الجلوس  
وتبدلت كلمات لطيفة وورد السؤال عن صحتنا أكثر من  
عشرين مرة ، مع ذكر اسم الله دائما لان هذا يتطلبه الادب  
في نجد ودار الحديث مع القهوة ، ثم وقف الجميع ومرت  
عبارة : الامير قادم ! . ووقفنا نحن وحفا لقد كان الامير في  
هذه المرة ، دخل الامير على رأس جماعة في ملابس أكثر أناقة من  
أولئك الذين قابلناهم في البداية

ملنا على الامير ، وأبدى سروره لمجيئنا ... ودار  
الحديث . وبدأ لي ان كل شيء على ما يرام الآن ، ولم يعد  
هناك شيء نخشاه . ومع ذلك فلم استطع أن أمنع نفسي من  
أن أنظر بين الفينة والأخرى الى تلك الأوتاد على الحائط  
وأن افكر في قصة ( أبناء جبر وعبيد ) الذين قتلوا غدرا في  
نفس هذه الداعة ويبد نفس هذا الرجل ، مضيئا

## ورث الأمير

والأمير وحده غريب . وقد يكون شعورنا مجرد وهم .  
أوحى به إلينا معرفتنا بحياة ابن رشيد السابقة ، ولكن  
ملاحظته أعادت إلى ذاكرتنا صورة ( ريتشارد الثالث ) وجه  
مخيل ، ووجنت شاحبة غائرة ، وشفقان دقيقتان ، مع تعبير  
عن الألم ، إلا حينما يتشم ، وطية سوداء خفيفة وحاحمان  
معتودان أسودان ، وعبدان رائعتان - عبنان عميقتان ولغادقان ،  
كعيني صقر . ولكهما أبدأ تنتقلان بلل من وجه أحدهما إلى  
آخر ، ثم إلى وجوه الدين يخافه . لقد كان نفس السودج  
لوجه واقع تحت وحز الضمير ، أو تحت الخوف من مقتل ،  
ويداه أيضاً طويقتان ، يشبهان تخليير ولا تستقرن لحظة ،  
نمبان بسبعته ، أو بأهداب عبائه عندما يتحدث . ويكل  
هذا بدا الأمير متميزاً في مظهره طويلاً ، كل جره منه يعبر  
عن ملك .

## ابن رشيد في مجلس حكمه:

وبعد حوالي ربع ساعة سار الأمير . ثم جاءت منه  
رسالة يرجو أن تخضر مجلسه ، وهو مجلس القضاء الذي يعقده  
يومياً في بهو القصر .

وفي اليوم، وهو حوالي ( ١٠٠ x ٥٠ من الأقدام ) انتظم في صفين من جميع جهاته جنود ، لبسوا كالجند الذين تراءى في أوروبا ، أنهم ما زالوا جنودا بالمعنى لهذه الكلمة . واستطعت أن أعد إلى الـ ٨٠٠ منهم .

وقعد الأمير على مقعد مرتفع يحيط به أصدقاؤه ، وبالذات ابن عمه حمود الذي يصاحبه في كل مكان يذهب إليه ، وعبد المفضل مبارك ، الذي من واجبه حراسة الأمير من لغتالين - والخطر على حياة محمد هو بسبب ما رافقه من دماء ، لا بسبب مركزه ، فهو كأمير ، محبوب من قبل رعاياه -

ويتقدم الناس بمرانض ويقوم حمود بقرائتها ويتولى الأمير ختمها . ولاحظت أنه وإن كان رجال البلاط يخاطبون عمدا بلقب الأمير ، فإن الفقراء - وقد يكونون من البدو - يخاطبون بلقب شيخ أو باسمه المجرد . وتقدم أيضاً بعض الحجاج الذين لهم مظالم ، ونظر في قضاياهم باختصار . لم تكن أية قضية تستغرق أكثر من ثلاث دقائق ، وفي نصف ساعة انتهى كل شيء .

## بيت للضيافة

أعد لنا بيت مزدوج في الشارع الرئيسي ، على بعد لا يزيد عن مائتي متر من القصر . كان كل شيء في غاية البساطة ، ولكن

في حالة ابفة ونظيفة وأحسننا أخيراً بعد عناء الرحلة  
بالراحة ولكن على أية حال ، لم يكن وقت راحتنا قد جاء ،  
ففي أقل من ساعة منذ وصولنا الى منزلنا ، استدعانا الأمير  
مرة أخرى .

## جولة في داخل القصر

وكان الاستقبال في هذه المرة خالصاً في الحجرة العليا ،  
ومع الأمير كان حمود فقط . وكنا قد أحضرنا هدايا للأمير ،  
رشمونا ونحجل ونحن نقدمها لتفاهتها ، إذ لم يكن لدينا مفهوم  
عن المركز الحقيقي لابن رشيد ، ونحن في دمشق .

### في الحديقة :

نهض الأمير للصلاة ، وبعد ان عاد أقترح أن يرينا حديقته  
وسرنا في ممرات ملتوية ، وأهواء ، وأواب حتم . وصلنا ان  
حرج نخيل . وهنا انضم اليها بعض العبيد ، سود وبيض ،  
وكلا اللونين موجود في حائل . كان هناك عدد من الثغرات  
ورويج من لوعس ، وكان أكثر ما يحدث الالقاء بما في الحديقة  
ثلاث بقرات وحشيه من النمرود . ثم قادنا الأمير خلال باب  
منخفض الى حديقة أخرى ، حيث توجد شجار الليمون  
والترنج والرومان

ثم زحف الامير من خلال باب منخفض ، وتبعه لنعبد  
أنفسنا في اصطبل مملوء بأثاث الخيل ، كل مربوط الى مذود .  
ويحتوي هذا الاصطبل على عشر فرساً ، وخلفه اصطبل آخر  
يحتوي على نفس العدد ، وثالث فيه ثمانية خيول ، وخلفه  
آخر فيه بين ثلاثين واربعين مهرأ . وبإشارة ندية قال الامير  
بسخرية : هذه هي خيول عبيدي !! وبالرغم من تواضع الامير  
فهذه هي خيول ابن رشيد المشهورة والمثلة لمقتنيات فيصل بن  
سعود التي نسج حولها الخيال

## المطبخ :

وفكر الامير في مشهد ليس أهل آثاره لاهتمامنا ، هو  
مطبخه . وهنا وبفخر لا يخفى ، عرض لأمير قدوره وارانيه  
خصوصاً سبعة قدور هائلة ، يمكن لكل واحد منها ، حسب  
تقدير الامير ، ان يتسع لثلاثة جمال . وعدد منها كانت بالفعل  
في حالة استعمال ، لان ابن رشيد يستقبل يومياً مائتي ضيف ،  
الى جانب أهل المنزل . وقدمة الطعام اليومي أربعون خروفاً  
أو سبعة جمال . وعندما خرجنا وجددة العدد العديد من الطاعمين  
يتجمعون . كل غريب في حائل له محله على مائدة ابن رشيد ،  
وعند الغروب يبدأ اليوم بالامتلاء .

## من صفات ابن رشيد

نوطدت صداقتنا مع حمود وعائلته . وهو رجل يوحى بالثقة من البداية . ويقال إنه يرفض دائماً أن يتقبل هدايا من الأمير ، ولم يوافق قط على سلوكه ، ولو إنه سائده صديقاً ويخدمه باخلاص كأي وصفاه بمتارة كصفات أي رجل يمكن أن يوجد في العالم ، وإلى جانب ذلك فهو ذكي ، ومطيع . أم الأمير لمختلف عنه وكان من المستحيل أن أسى القصة مرعبة لاغتصابه للسلطة وهناك شيء آخر أيضاً ، عنه جعل من المستحيل أن أحسن براحته في حضوره فرغم أنه يحسن السلوك بكرامة ، فإنه لا يفعل ذلك دائماً . ومن الصعب التوفيق بين عاداته الصيبانية ، أحياناً ، وبين قدرته التي قد برهن عليها . إن فيه من صفات الطفل المدلل في ثقته من موضوع إلى آخر وفي سؤاله أسئلة ثم لا ينتظر لستمع الجواب ، قطعة من سوء الطباع ليست جميعها غير ملكية ، وربما كان هذا من أثر كونه أميراً ذا سيادة وهو أيضاً مفرور بسذاجة ، كمعظم الناس الذين ينفذون دائماً على التعلق ، وهو في انتظار متصل للشأن على قوته وحكمه وممتلكاته وعيونه من المذايح الكبار الذين رأيناهم يكشف عنها بطريقة صيبانية . أما حمود فليس فيه شيء من ذلك . وإلى لا تخيل أنه يقف بالنسبة إلى ابن عمه محمد إلى حد ما في المركز الذي وقف فيه « مورتي » بالنسبة إلى



لويس نابوليون ، الا أن د مورني ، لم يكن رجلاً طيباً ولا  
مبدأً رفيعاً كعمود .

ان د حمودا ، يقدم النصيحة للأمير ، وفي المجالس الخاصة  
بيدي رأيهِ بصراحة انه بالنسبة للعالم الخارجي فقط يبدو  
كاتباع الذليل للأمير .

## عن الأمير حمود :

وحمود عدة أبناء ، أكبرهم ماجد في السادسة عشرة بحور  
كل شعر طباع أبيه ، وله اثنى حانب ذلك حانظية كساب  
الودود ، والجمال امثالي . وماجد ، هذا الحق الذي يبدو  
علاماً ، متزوج ، وتعرفت بزوجته ( رقية ) وهي حبة  
صغيرة القدر ، صغيرة السن . وهي احبتي بهت تمت ،  
وأختها زوجة لمود .

## في زيارة هريهم القصر

استأذنت من الأمير في زيارة زوجته وبعث من يجنبه  
السيدات ليتبينان لاستقائي . ومررت بفت طوبيل قبل أن يعود  
الرمول فاجواب . واني لأتحيل ان السيدات ما قلنا بغير  
يهندامن ما لم يردن عرض ما لديهن من حويز وجواهر غير  
رائع ما . وفي صامية كهذه يتفننن في زينتهن ويستعرقن  
وقتنا طويلاً في ذلك .

و ( عشا ) الوجة الاولى للامير يمكن أن تميزها بين  
 جمهرة من النساء الاخريات ، فلها مظهر متميز ، وطباع تنكشف  
 عنها في أي مكان كانت ، وحقاً لقد عطت على كل من عداها .  
 وهي ابنة عبيد وأخت حمود ، لها كل حق ان يكف  
 نورها صديقتها ، وقرباتها ، وضررتها . وكانت ( دوشة )  
 و ( لؤلؤة ) الزوجتين اللتين حصراً ، ترنديان نيبا موشاة  
 بالذهب مثل ثيابها ، عليها نفس الزينة التي عليها . لكن  
 ( عشا ) الى جانب ذلك كانت ذكية ومسلية . وقادرة على  
 أن تجمل الحديث متصلاً ، بينما قل أن غامرت احدى  
 الاخريين في لا شتراك فيه ، وتقدم ( لؤلؤة ) و ( عشا )  
 متبازا عدم مفاديه المدينة ، وبذلك تتقدمان على ( دوشة ) التي  
 يقع على عاتقها أن تنبئ خط زوجها في الصحراء حيث يقضي  
 جزءاً من السنة ، والقيام كهذا يعتبر حقاً للكرامة والثبات  
 لا تتقبله سيدات حائل .

وحلها ، وقبل مضي وقت دخلت ( عشا ) وهي فتاة  
 صغيرة حلوة ، قدمت لي على أنها الزوجة الرابعة ، ولكنها  
 مدت كزوجة المستقبل أكثر منها زوجه بالفعل . وبسبب أنها  
 الآن قد حسم بها لغيره النظر اليها واختيارها ، وأن الأمير  
 قرر أن يرفضها باعتبارها صغيرة إلى درجة الطهولة . وفي  
 الواقع كان الأمير يفكر بحلف مناسب بكسبه عشداً سياسياً  
 يحجب الريادة في الرأفة المتزايدة . عرفت أهداف هذه من أنه

من خلال أسئلة عن منات بعض شيوخ السدود ، اللواتي في سن  
الرواح . وأناء بدني معهن ، جاء الأمير مرتين ، وفي كل  
مرة يظهر على الباب تقف له جميع النساء الحاضرات وزوجاته ،  
ولا يمدن للجلوس إلا بعد أن يذهب ، باستثناء ( عشا ) فهي  
تؤدي الخدمة أو إشارة كما لو كانت على وشك النهوض ثم تظل  
في مكانها يجاني .

بينما يقف الأمير أماما يتحدث ، وفي الغالب كان يوجه  
حديثه إلي ، ويتكلم بطريقة المستهزة ، الصيابة تقريباً ،  
التي يتكلمها أحياناً ، استفسر عن رأيي في روحاته . من هن  
أكثر حداً وسعراً من زوجة ابن شعلان ( عيوشة ) أخت  
الخمدي ابن مشهور أو من زوجته ، ابن شعلان ، السابقة ،  
( تركية ) بنت جدران ، التي تركته وعادت إلى خيمة أبيها .  
وفي اللنتين والأربعين ساعة منذ وصولي إلى حائل ، كانت  
الأمير قد سألني أسئلة كثيرة عن هذين السيدتين ، وأما الآن  
أحبب للمرأة المائة بأن تركية كانت جميلة ولطيفة ، وإن  
( عيوشة ) كانت أجمل ، ولكنها متعطسة جداً . غير أن  
كان مصراً على المقارنة بين العائلتين ، ولحسن الحظ ، وقد  
رأيت ( عشا ) و ( دوشة ) و ( ثؤلوة ) و ( عطشوة ) ،  
فقد كان في مقدرتي أن أقول بصدق انهن أخوف ، حتى  
( عطا ) الصغيرة المسكينة المحترقة . ولكنه لم يطق أن  
تصنف ( عبط ) مع الأخريات وقال : « أوه ، عطاء ، أنا لا  
أريدها ! أنها لا تساوي شيئاً » .

## تحليل لنفسية ابن رستم :

ان شخصيته ، كما قلت ، مزيج غريب من المقدرة الحارقة والصبر السياسي من جهة ، والميل إلى إضاعة الوقت والتفكير في تفاهات حمقاء ، إذا كانت هذه الأشياء تسمى غرورا ، انشغالي ، من جهة أخرى . فمن مقدرة احكم بما رأيت من ملاحظات المدعشة ان العامة عن أمور حمراء ، وكذلك بالتركيز الذي استطاع أن يثله ويحافظ عليه . وأما عن طاقته فلا يستطيع أحد أن يشك فيها ، لأنه قد بان عنه ، بالأسف ، بغير ثمة ، ولكن تأكله الاحقاد الصغيرة الشخصية ، والتي لا تمنح أحيانا فيه لو كانت هذه الأشياء ستؤثر في سلوكه في أزمة سياسية هامة . وعلى أي حال ، فاني أظن أن في لحظة كهذه سوف تنسى كل صفات العرور ، لأنه ، فوق كل شيء ، طموح ، وعرور ، إذا هو حظه من طموحه . انه يفار شخصيا من كل الرؤساء ذوي القسوت ، لأن الطولة الشخصية ، مما في بلاد العرب ، ربما كانت أبرز منها في أي مكان آخر في العالم منذ عهد المدوسة في تحريك القوى السياسية . ولا أشك في أنه سوف يسعى للتدخل مع عظام ، إذا رأى ذلك ضروريا ليصل إلى غاياته ومع ذلك فلم يستطع أن يقاوم رغبته في التحدث إلى عن ابن شعلان في هذه اللحظة التي لم تكن مناسبة على الإطلاق ، أملا أن يسمع شيئا يخط من قدر مداومته .

واعترف اني وجدت الأمر محرماً ان اكبد امتعاً عن فضائل ( عيشة ) و ( تركية ) بحضور زوجات محمد اللاتي اصعبن بأعين مفتوحة ، وامسكن انفاسهن من شدة الانتباه .  
وارداد حرجي ، بعد دهاب الامير ، عندما هاجتني عشا ،  
حالا ، من جانبها ، بطلقات من الاسئلة .

وبينما كان عندنا الع في سفاراته ، الى ان فقدت صبري ،  
بعد ان وجدت نفسي محاصرة في راية ، وقلت متعجبة .  
« ولكن ماذا تسألني كل هذه الاسئلة ؟ لماذا تريد ان تسمع عن تركية ؟ وماذا يهمك في اذا كنت جميلة ولطيفة ؟ انك لم ترها قط ، وليس من المحتمل ان تراها ، فأجب : « انني لم ارها قط ، ومع ذلك فاني ريد ان عرف عنها شيئاً ، وان اسمع رأيك فيها . ربما يوماً ما قد احب ان اتزوجها . ربما آخذها بدلاً من هذه الفتاة الصغيرة ، مشيراً الى عبطا التي لم تصلح لي ، والتي لن آخذها . انها لا تساوي شيئاً ، وكرر :  
« انها لا تساوي شيئاً » . ووقفت عبطا المسكين الصغيرة تنصت ، بعدم اكتراث بليد ، كما اظن ، لأبي لاحظت عباها فلم استطع ان استنج حتى ظلاً غابراً للدم او لسنبل .  
ولحق ان بين جميع زوجاته ، عشا هي الوحيدة التي بدت لي ان لديها شعوراً شخصياً بالعطف نحو الامير

وفي اللحظة التي ذهب فيها ، انتهلت عني بالاسئلة : من هي تركية ؟ . وادعيتني انها لم تعرف ، فهي تعرف من هو الخميني

بن مشهور . وكان علي ان اشرح لها ان اخته غيومة تزوجت  
 صطام ابن شعلان ، وان اخبرها عن قصة زواج صطام الثاني ،  
 وكيف ان غيومة صمت على الحلاص من ضررها ، فنجحت في  
 جعل الاخيرة غير مستريحة الى الدرجة التي كان عليها ان  
 تذهب . ورفضت ان تمود منذ ذلك الحين . و ( عشا )  
 بالتاكيد محرم على ابن رشيد وظننت انها تخشى ان يؤتى  
 بمنصر جديد للزواج في العائلة . اما بالنسبة لمرکزها فقل ان  
 بتأثر بوصول زوجة جديدة ، فهي ، باعتبارها اخت حمود ،  
 يجب ان تضمن لها مربيتهما ونفوذها ، والامير بشعوره بالذنب ،  
 ان يحرر ، فيما لو رغب ، ان يستعين بها او بحمود ، الذي يدين  
 بالكثير لنصرته .

## في بيت الاميرين حمود وسليمان

ومن بيت عشا ذهبت الى بيت زوجة حمود ، بنت بنت  
 متعب ، ورأيت عندها رقية اختها زوجة ماجد بن حمود ،  
 وزوجة اخرى لحمود . ولما سألت عن اسم ابنيها اخبرت انها  
 بنت احد الناس من شمر . وفي كل مرة اكرر سؤال (من هو؟)  
 يكون الجواب « واحد » - واخيراً كان الجواب « واحد  
 فلان من حابل من البلاد » . انها لا تكاد تعتبر انها تنتمي  
 الى العائلة . والزوجتان الثالثة والرابعة من الاقارب ، بنت  
 طلال ، وبنت سليمان ، وهؤلاء الزوجات الاربع صغيرات

الن . اما أم ماجد التي لم اجمع عن اسمها فقد ماتت منذ سنين ، وحمود مثل الأمير يحتفظ دائماً بأربع زوجات . و ( زهوا ) بنت طلال زوجة حمود جذابة ولطيفة وذكية ، ونحيفة .

وزرت عائلة سليمان عم حمود . وسليمان عرفته في البلاط ، وهو يصنع لحيته بالخطأ ، ويحب الكتب ، ووجدته غارقاً بينها في غرفة الاستقبال عندما ذهبت لزيارة زوجته . وكنت أأمل ان محادثته ستكون مفيدة لولا انه بمجرد ما بدأ من الحديث ، دخلت زوجته مددفة يتبعها جمهور من النساء فجعل كتبه ومخطوطاته وخرج مسرعاً .

و ( قوت ) زوجته أعنى شخص قابلته في حائل . وجاءت ( رهوة ) وهي وهوة اخرى ، بنت سليمان تحمل طفلها . وكانت جميلة المنظر . ولكنها بدت تقريباً في نفس غباء امها واملاها . كل مساء كما منعهودين أن تتلقى دعوة من الأمير لتقضي المساء في مجلسه ، وكان هذا دائماً أحمل جزءه في اليوم ، لأننا نجد بعض الروور الذين يشيرون لاهتمام . فنذكر أحاديث شائعة . وذات مساء كان الأمير في غاية الانشراح عندما تلقى ما هزيمة عظام رغم أن رحله كانوا أكثر عدداً . ولم يستغرب أحد أن ينصرف بجانب الأنصف لأنهم يعتقدون هنا ان طوبىه والنصر . من الله . ولما سألني الأمير ماذا اظن هل لسطام عقل ؟ أجبت : « أخشى انه ليس له نصيب كبير منه . إلا اني آسفه

من أجله . انه ضعيف ولا يعرف كيف يحبر قومه . ولكن  
له قلماً طلياً . . . . . وسألتهم : وماذا تقولين بي ابن أمير ؟  
فأجبت : . . . . . انه من العقول أكثر من قلبه ، ومن الأمير .  
وقال : . . . . . ما خديت أنت التي ذكك عقل . . . . . والآن ماذا تقولين  
بي ؟ . . . . . فقلت : . . . . . إنه بك حقا ،

فقال : رحمتك ؟ فأجبت : كذاكم هما ذور تقول ، طبعاً ،  
أكثر من السور الذين معظمهم كالأطفال .  
فقال : ولكننا بدو أيضاً .

قال هذا مؤمداً أن يجعلني مساقضاً فيها قلت . فأجبت .  
. . . . . اني أحب السور أكثر . وأن يكون للمرء قلب افضل من أن  
يكون له عقل ، ثم . . . . . هو الأمير في استعوايي عن الشيوخ  
الآخرين الذين يعرف أسماءهم

قال : . . . . . من أحسن الذين قابلت ؟

محمد الدوخني أذكاهم ، وقرحان بن هديب أكثرهم  
تهذيباً ، ولكن الدين أحب أكثر هو قريبك في الجزيرة ،  
فارمن الجوبا .

وما أضن انه سر من هذا . وقال انه لم يسمع حسناً أو  
سبباً عن ابن هديب . وهو ينتمي إلى البشر . ولم يكن ( أي  
الأمير ) على وفاق مع أي من البشر باستثناء ابن مرشد الذي



زاره منذ سنتين . ان ابن رشيد تأكله الفيلة من كل من له  
أقل ممة في الصحراء .

ولقد أدهشنا ، على أي حال ، ان نجد مطلقاً على كل  
شيء ، وعارفاً عن كل انسان في أقصى الشمال ، ونحن مهتمون  
كثيراً ، من حيث انه قد حل لنا احدي المشاكل عن نجد التي  
طالما حيرتنا ، وتلك هي العلاقات التي ترعاها قبائل جبال  
شمر مع قبائل الشمال . فقد أخبرنا الأمير ان شمر الذين في  
الجزيرة وشمر أنماعه يمدون أنفسهم أقرباء قرابة رحم  
وقال : « ان دعاء خيرولنا واحدة » .

## عربي يرطس بالانجليزية

لم تكن قد تحدثنا طويلاً مع الأمير وجود حبيبا قدم اليها  
رجل معين تبدو عليه المظالمة وكان من الواضح انه ليس من  
حائل ، لأن ملامحه كانت غليظة . وصباعه مبرسة . وتحدث  
بلهجة بغدادية قوية . وكان يتحدث كل فرد وبالاحتاج ومن الخلف  
انه كان ينتمي إلى الحبيبي . ولكن ما الذي أتى به إلى هنا ؟  
وانتضح لسر سرعة قدمه مخاوف هامة بيده ويبر حمود ،  
اتجه الزائر إلى ( ولبرد ) ، وهو زوج الكاتبة وبدأ  
يتخطى بلغة حسيده في أول الامر برعدة ، وقد لم نرد جواباً  
قال متعجباً بالعربية . « أم أقل لك انه ليس من الانكليز » ،  
ثم استعوبه ( ولبرد ) وشع انه كان يعمل وفاداً في احدي

بواخر شركة الهند البريطانية على الخليج الفارسي وان اللغة التي تحدث بها كانت الانكليزية وكلمتان اثنتان فقط نجحنا في تغييرهما Werry Cood Chief Engineer وبكوننا عرفناهما وأعطينا ما يقابلها بالعربية اعترف بهويتنا . ثم صرف الرجل إلى حال ميده .

## صائغ من هائل

وفي وقت متأخر من المساء قدم صائغ نحلي ، رحمه عدد من السلع من صنعه في حائل . كانت جميلة ولكنها لم تكن مثيرة للاهتمام أو عديمة الشبه بما يمكن أن يرى في أي مكان آخر . مقابض خناجر وغمد ، وبعض حلي . وعنى أي حال ، فانه هو الرجل الذي قد صنع كل المقدض الذهبية للسيوف التي يبيعها أفراد العائلة . واختبرنا هذه فوجدناها متينة الصنع .

## أطراف هادئة

ولعل أطرف حادثة في ذلك مساء ، وهي إحدى الحوادث التي لم تكن مستعدة لها ، كانت إبداع الأمير المفاجيء . واحدة من هذه اللعب التي تسمى ( التلفوتات ) وكانت في السنة الماضية بدعة جديدة في أوروبا . فقد جعل الأمير اثنين من عبيده ليقوم بالدور معه ، أحدهما خارج السور . والآخر

يصفى . وسلمت الرسالة بنجاح ، فالعدد الذي في الخارج ،  
 ليجعل الامر اكثر وثوقاً ، يصبح داعي صوته . « يا عد الله  
 وابن انت ، الامير يريدك » وقد بلغ شبيهة هذا . وعبرنا عن  
 دهشة عظيمة ، كما يقضي الواجب ، « دعوا » لقد كانت المرة  
 الاولى التي رأينا النعمة فالعس ، وده أمر فريد أن تجد اختراعاً  
 حديثاً كهذا قد وصل إلى محائل

## القسم السادس : حكم ابن رشيد

( في الفصل العاشر فتمت المؤلفه ابن رشيد . شخصية  
لعت دوراً - وما زال لها دور متلعبه -

وفي هذا الفصل تقدم لدور والمسرح - الأرض والناس  
والتاريخ . العوامل التي تلاحت وقد اخلت فيما بينها ليكون  
نتاجها حياة هذا الجزء من جزيرة العرب . في تلك الجبل .  
ثم لأحيال تأتي من بعده ا .

« سأحسن الصنيع : فالناس يحبونني ، والصحرَاء  
ملكي ، وقوتي هلال ، وأملى المتفائل يقول إنه  
سيكون بدرا ، » .

شكبير

هذا الفصل هو نتيجة تحريراتنا التي أجريناها ونحن في  
حائل ، عن الحالة السياسية وموارد البلد . ولن ندعي الدقة  
القاطعة ، ونخصوصا في الأرقام الواردة ، الا أن ما سنقدمه  
هنا سيساعد في اعطاء فكرة عن موع الحكم الموجود في بلاد  
العرب ، والمقدرة على الحكم الذاتي لدى العنصر العربي .

## طبيعة السكان :

ان الدستور السياسي لجبل شمر عجيب للغاية ، ليس فقط  
من حيث أنه غير شبيه بما هو مألوف لنا في أوروبا ، بل ربما  
كان فريدا ، حتى في آسيا ، وفي الحقيقة ، يبدو أنه يمثل  
شكلا قديما من اشكال الحكومة خاصا بالبلدة ، كما يبدو أنه

قد نبع بالطبع من الضرورات الطبيعية للأرض ، وخصائص سكانها . واني لأنظر إلى حكومة ابن رشيد في كل الاحتمالات أنها مطابقة لحكومات ملوك العرب الذين أتوا لزيارة سليمان ، وملوك الرعاة الذين سيطروا في وقت أقدم على مصر وبابل ، ولا أشك كثيرا في ان نجاحا يعود إلى أنها في الواقع في تناغم مع أفكار العرب والتقاليد العربية .

## الصحراء :

ومن أجل فهمها على الوجه الصحيح ، ينبغي للمرء أن يدخل في اعتباره ماهية بلاد العرب ، وخصائص العرب ، واسلوب الحياة ان شبه الجزيرة كلها - ما عدا اليمن وبعض مناطق حضرموت الواقعة تحت تأثير الرياح الموسمية في اقليم صحراوي بلا مطر ولا مياه ، بكل معنى لكلمة صحراء . فالغربة فقيرة ، مكونة أساساً من حصباء أو رمال ، وغير صالحة للزراعة باستثناء بعض بقاع محظوظة ، وبالفعل فالزراعة غير ممكنة اطلاقاً في نجد ، إلا بمساعدة الري ، ولري من الآبار فقط إذ لا يوجد ماء على سطح الأرض وحتى الآبار نادرة . والصفة العامة لهذه الوسطى ، شبه الجزيرة ، هي تجود واسعة من الحصباء تكاد تكون خالية من النبات ، وغير قادرة على الاحتفاظ بالمياه ، حتى على عمق كبير . وقد

توجد الآبار في بعض المنخفضات في سهول منخفضة نشأت  
الاقدام عن السطح العام

وحيث توجد الآبار بقدر كاف من الماء ظهرت مدن  
وقرى تحاط بالبيتين وهذه على أية حال ، كثيراً ما تكون  
متسعة بحيث تبدو بحيرة نقط على خريطة بلاد العرب ،  
ودون أن تربط بعضها ببعض منطقة روائية . وحقاً ليست  
مخالفة أن نقول أن نجدنا ليس به أي إقليم زراعي ، بالمعنى  
الذي تفهم به الزراعة ، وأن كل انشاعها هو من منتجات  
البيتين

## المناطق الريفية... وعدم الترابط بينها

وما دامت الحال على ما ذكره فالطبعة الريفية لا يوجد  
وكل مدينة منفصلة عن جاراتها إلى درجة كبيرة ونحيط  
الصحراء بها ( أي المدن ) كالبحر ، وليس بينها أية نقطة  
اتصال في شكل حقول أو قرى أو حق مراعي ، إنها منعزلة  
دادق المعسر الحرفي للكلمة ، ومن هذه الحقيقة تنبع الفردية  
السياسية ، التي ظلت لعناية مركزة دائماً لرعايتها . كل مدينة  
دولة مستقلة .

وفي نفس الوقت ، فالصحراء من حولها ، ولو أنها لا  
يحوزها سكان مستقرون تتجول فيها القبائل البدوية ، وهي تكون

مواد الغنصر العربي.. وهذه القبائل تحتل معظم صحراء النفود وفيها وحدها يوجد الكلاً بوفرة، غير أنهم يترددون أيضاً على كل حزم من المناطق المرتفعة ولا أنهم ميلون للعرب وأكثر عدداً من سكان المدن، فهم يسيطرون على كل الطرق المؤدية من مدينة إلى أخرى، بحيث أن قطع اتصال سكان المدن بالعالم، يعتمد على حسن بينهم (أي البدو) وعلى هوائهم.

## الحكم القبلي .. وائر البيئته :

والمدن، كما قلت، في الغالب تكفي نفسها بنفسها، ولكن تحتاجه تقتصر على منتجات البساتين من النواكه والتمر، فهي لا تزرع برا ولا تربي ماشية، ولذلك فهي تعتمد في الحبز واللحم على الخارج وهي تحتاج أيضاً إلى سوق لمصاعنها، تسج القماش، وصناعة السلاح والادواني، ومن الضروري، على الأقل في جبل ثمر، أن ترسل قافلة سوية إلى الثمرات من أجل الحنطة ولذلك فإن سلامة السفر خارج أسوار المدن هو أساسي لحياة كل مدينة في بلاد العرب، وعلى هذه الضرورة يقوم النظام السياسي بأكمله فكذلك مدينة تضع نفسها تحت حماية شيخ بدوي في منطقته وهو ينظر إلى الأثرة السوية (الاخارة) بصن لأهل اندبه السلامه خارج اسوارها ممكناً لهم بذلك من السفر في غير مضايقة على طول امتداد سلطته. وهذه في حالة ما تكون القبيلة قوية، قد تبلغ مئات الأميال، ونضم



مدى كثيرة . ويقال عندئذ أن المدنية تتبع القليلة الفلاية  
وبصح الشيخ البدي هو سيد الحامي ومن قبيتها (أي المدن)  
المشاركة وحرية التمازج التي تهيئ لها هذه التبعية المشتركة  
تنبعث بدور الاتحاد وتتطور أحياناً الى قومية .

وقد ظل هذا هو حال بلاد العرب دائماً ، فيما اعتقد .

ثم بلشاً عن ذلك تطور أبعاد . فبين الشيخ البدي لنفسه  
قلعة بالقرب من إحدى المدن ، بعد أن يصير غنياً بفعل الآثورة  
التي يتلقاها منها . ويعيش فيها خلال شهور الصيف . ثم بالهبة  
المستعدة من مركزه كسوي ( لأن الدم البدي لا يزال يعتبر  
هو . لاثنى ) وقونه التي تظاهره في الضمراء يصبح بسرعة هو  
الحاكم الفعلي للمدينة ، ويتحول من حامي المدنيين الى صاحب  
سيادة عليهم . ثم يكرم منذ الآن بلقب أمير ، ولو أنه بالنسبة  
للبدو يظل شيخهم ، ثم يصير ملكاً على كل المدن التي تدفع  
له الآثورة .

## بدر مجد لم تخضع لحكم اجنبي

هذا الشكل من اشكال الحكم ، وهو يقوم على أسس طبيعية  
قد ظلت البلد تعود اليه دائماً ، كما نجحت في أن تحرر نفسها  
بعد فترة من الطغيان الاجنبي أو الداخلي وقليل هو المعروف  
عن بلاد العرب في القديم ، إذ لم تدخل ضمن نطاق الامبراطورية  
الفارسية أو الفقدونية أو الرومانية ، ومن المحتمل أن نجد

عاشت تحت نوع الحكم الذي وصفته حتى زمن الرسول ﷺ وبعد ذلك، ولزمن قصير صارت جزءاً من الامبراطورية الاسلامية وشاركت في الادارة المركزية أو شبه المركزية للخلفاء، التي استبدلت حكماً ثيوقراطياً ( دينياً ) بالاشكال البسيطة التي سبقتها . ومع انها مهد الاسلام ، فلم يكن هناك جزء من الامبراطورية العربية أصرع في التمرد من بلاد العرب ذاتها . ففي القرن الثاني لعصر الاسلام، عادت شبه الجزيرة كلها تقريباً الى استقلالها القديم ، ولم تدخل نجد منذ ذلك الحين ، الا موقناً في اطاق النظام الامبراطوري لاني ملك اجنبي أو مملط .

## دعوة الشيخ محمد ٥٥ وقيام الدولة

### السعودية

وفي منتصف القرن الماضي على أبة حال ، تماماً مثلاً أكد الرسول ﷺ سلطته الروحية على شبه الجزيرة ، أسس أمير المعارض الوهابي (١) حكومة مركزية ثيوقراطية ( دينية ) في

( ١ ) كلمة « وهايي » أو « وهابية » مما اطلقه اعداء الحركة الإصلاحية الديلية التي قام بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله . فأصبح اعداء هذه الحركة يطلقون على معتقلي تلك العسكرية الإصلاحية ومؤازريها ذلك اللقب . ويطلقون على الدولة السعودية التي أذرت الشيخ عبد الوهابية . واضطربنا للمحافظة على الأصل ايراد الكلمة كما اوردتها الكتابة المحلوية مع اعتقادنا بعدم صحة اطلاقها على تلك الدعوة الإصلاحية . ( الترجوم )

بلاد العرب . فجرد الأمراء المدعو واحداً بعد الآخر ، وقامت  
مراطورية عربية جديدة . وهذه لم تشمل جميع نجد فحسب  
ولكن أبصاراً ، وفي أحد المرات ، اليمن ، والجزيرة ، والاحساء ،  
والصحراء الشمالية حتى خط عرض دمشق ، ولستين سنة حلت  
تقريباً حطم استقلال كل المدن والقائيل الداخلية ، واستبدل  
نظام اميراطوري بالنظام القديم . وحكم اثنة نجد من آل سعود  
حكماً لا يقل ولا يزيد عن حكم الخلفاء الأوائل ، إلا أن حكمهم  
انقر الى نهايته في سنة ١٨٠٨ حينما قمع الترك نجداً وأخذ ابن  
سعود الحاكم أسيراً وقطع رأسه في القسطنطينية ، ثم عند  
جلاء الترك ولأنهم لم يستطيعوا الاحتفاظ بفنحهم طويلاً ، أكد  
حكم الرعاة بعد مرة أخرى ، وأست إمارة جبل شمر .

## تأسيس حكومة ابن رشيد .

وفيفة شمر هي أقوى في شمال نجد . وقد وسعت مدن  
حاتل ، وقطر ، وبقما . وبقية المدن الأخرى ، نفسها تحت  
حماية عمداثة بن رشيد الذي نجح في ان يكسب لنفسه شباحة  
شمر ، ويبدو أنه كان رجلاً ذا مقدرة عظيمة ، واليه تنسب  
سياسة الحكومة التي تابعها خلفاؤه من بعده . اتخذ مقامه في  
حاتل ، وبس لقلعة هناك ، وكسب الاعتراف لنفسه بالامارة ،  
كذلك في المدينة لابن سعود ، الذي ظهر مرة أخرى في  
العرض ، ثم ، في النهاية ، لحسابه الخاص . وبدون سياسته  
كانت أولاً ان يسترضي قبايل نجد الأخرى ، وأن يخضعها ،  
مجبوراً إياها على ان تصير تابعة لقبيلته ، شمر ، وثانياً ان يقيم

حمايته على جميع مدن الشمال . وكانت هذه خطة غاية في البساطة ، قد يتوصل بها أي شيخ بدوي ، غير أن جدارة عبدالله تكمن في طريقة تطبيقها . لقد رأى لكي يكسب هدفه ، انه يجب ان يستثير الأفكار القومية والعنصرية القومية ، وكان ينفق الأثارة التي يستمدّها من المدن بسخاء في الصحراء . ويمارس كرماً لا حدود له تجاه كل شخص يصادف ان يزوره . أعطى الهدايا للجميع ، وبهرم بمحضته ، فيعودون الى القبائل بانطباعات ضخمة عن ثروته وقوته ، وبهذا كسب اصدقاء عديدين وبمساعدهم استطاع ان يخضع البقية من اعدائه ومنافسيه وفي معاملته لهؤلاء يدور أنه دائماً كان يحاول اولاً طريقة الاسترضاء ويكتفي ، اذا أجبر على الالتجاء الى السلاح ، بصرف واحد ، متخذاً من النهرمين اصدقاء ، وحق انه بعيد اليهم بملكاتهم وهو عمل من أعمال المروءة بلقى كل تقدير في الصحراء .

وبهذه الوسيلة تزايدت قوته وسمعته بسرعة ، وكذلك اخوه وساعده الايمن عبيد ، الذي هو الآن بطل اسطوري في نجد .

## عبد الله بن رشيد وثروته ..

وأمر آخر أولاده مؤسس دولة آل رشيد انتباهاً كبيراً ، هو المالية . فالرغم من صرفه سرياً مبالغ ضخمة على الهدايا والضيافة ، فإنه اجتهد ألا تعتمدى هذه المصاريف دخله ،

وعند موته ترك داراً مملوءة بقطع الفضة ، طبقاً لتقرير شائع ، ولم يكن أحد من خلفائه - ومن المستحيل بالطبع - أن يتخمن بالدقة مقدار المال الدخّر ، ولكن من المؤكد أنه يمثل مبلغاً خيالياً في بلاد العرب ، وامتلاك هذا ، بجانب المصبت الذي تمنحه الثروة في بلد فقير ، هو مصدر هائل للقوة .

## الحالة السياسية والادارية

وأخيراً ، فإن عبدالله ، وكل عائلة ابن رشيد ، قد وهبوا قسماً وافراً من الحبيطة ، فما من مشروع هام اتخذ فيه قرار على عجل ، ومن المؤكد أن جميع شئون الدولة الآن تبحث في مجلس عائلي ، قل أن ينفذ أي أمر ، ويبدو أن القاعدة دائماً عند آل رشيد أن يفكروا مرتين وثلاثاً أو اثني عشرة مرة قبل أن يبرموا أمراً ، حتى أعمال محمد العنيفة تجاه أبناء أخيه قد أمعن فيها النظر ، وفكر فيها شهوراً قبل القيام بها ، وهم في سلوكهم نحو آل سعود وسلاطين الترك ، يتتظرون دائماً الفرصة المناسبة ويتجنسون انشغافاً عنياً ، ومن المدهش جداً أن كثيرين من هذه الاسرة رجال متفوقون ، فمن الصعب أن تقول من هو أقدرهم ، عبدالله ، أو عبيد ، أو طلال ، أو محمد ، أو ابن عمه حمود . وليس الجيل الجديد أقل في ما يبشرون به .

وبعد أن وحد جميع قبائل شمال نجد في نوع من الاتحاد

التمهدي ، أصبح عند الله ، بطبيع السيد الاعلى في جميع المدن ،  
إلا أنه لم يتكف بمجرد السلطة ، بل هدف إلى جعل حكمه  
عقبياً ومن معاقبه ، ومنذ خلقه أنه ما من أحد منهم ،  
في بيده ، قد أساء استعمال مركزه .

## سياسة آل رشيد :

وقد كانت سياستهم مطبوعة بطابع التحرير ، والاسترضاء  
المفروضين بالتوزيع بالقوة في المناسبات ، وطلعت هذه السياسة  
بالسنة لسلطان المدن والبدو ، وهذا وضعوا حكمهم على القاعدة  
المضمونة الوحيدة الشعبية ، وقد كان على آل رشيد في أيامهم  
المسكرة أن يجاربوا من أحسن مركزهم في حائل ، ثم في الجوف  
وسكاكا ولكن حكمهم الآن معترف به فاحترق في كل مكان ،  
وبجهاة في جبل شمر .

وانه لغرابية مفاجئة يقابلها المسافر الجديد من تركية ان  
يسمع التعليقات التي يطلقها سكان حائل عن حكومتهم ، فبعد  
المستحيل ان تتعادت عشر دقائق مع أحد منهم دون أن  
يؤكد لك ان حكومة الأمير أحسن حكومة في العالم .

( الحمد لله ، بلدنا محظوظ ، الأمر معاً يختلف عما هو مع  
الترك والفرس . الذين حكومتهم ليست حكومة . هذا نحن  
في معادة ورغاء ، الحمد لله ) . ولقد أدهشتني هذه المعرة  
القومية .

## الجند ، والمحافظة على الأمن

وفي حائل بميش الأمير في أهة ، فله حرس مكون من ٨٠٠ أو ١٠٠٠ رجل لهم نوع من الزي الموحد ، أبواب بنية وكواقي ( غتو ) حرار ورق وملحون بسوف مقبضها من الفضة . ويجدد هؤلاء من بين شباب المدن والقرى بالاختيار ، والذين يرغبون في الخدمة يسجلون اسماءهم في القلعة ، ويستدعون اذا تطلبت ذلك مناسبة ، وواجباتهم خفيفة ، ويميش معظمهم مع عمالائهم ، ولا يشقون رواتب ولا أرواقاً الا حينما يستخدمون بعيداً عن مواطنهم في حديات القلاع الثانية وفي الحواف فتكاليفهم بالنسبة للأمير ، اذت ، تزيد قليلاً عن تكاليف ملابسهم وسلاحهم . واليهم توكل عمال الشرطة التي قد تكون ضرورية في المدن ، الا أن من النادر ان تحتاج ملطمة الأمير سداً آخر غير سد الرأي العام . وعرب نجد عنصر هريد في اعتداله ، ولما يدخلون في شغب أو تمكيد لصغو الأمن ، فان دار نزاع بين المواطنين فانه يسوى في الحال بتدخل الجيران ، ومبدأ المشاعة والعنف المعروفين في المدن الاوربية غير معروف في حائل وحينما لا تسوى الخصومات بتدخل الاصدقاء ، فإن المتنازعين يذهبون بقضاياهم الى الأمير ، وهو يصدر قراره فيها في محكمة مفتوحة ( المجلس ) وكلمته نهائية .

## النظام والقانون

ويجئ لي أن قانون القرآن ولو أنه بشار إليه ، ليس هو القاعدة الرئيسية في قرارات الأمير ، وإنما العرف العربي ، وهو سلطة أقدم بكثير من الشريعة الإسلامية . وأشك في أن هناك ضرورة لتدعيم هذه القرارات بقوة الجود . وقد أكد لي باستمرار أن السرقة غير معروفة في حائل ، غير أن قطاع الطرق أو اللصوص الذي يضبطون متلبسين يفقدون بدأ واحدة للجريمة الأولى ورؤوسهم للجريمة الثانية

وفي الصحراء ، وفي كل مكان آخر خارج أرباب المدينة ، يقوم البدو بحفظ الأمن ، ولا أمير . يضي معهم حراً ، أمر العام وهو عندئذ ليس بأقل ولا أكثر من بدوي . فيخلع عليه وكل روف المدينة ويتسلح بحربة ، ويمش جواً في صحراء المفود وعادة يقوم هذا في بداية الربيع ، والرياح هو فصل حروبه وعندما تبلغ حرارة الصيف أقصاها يعود إلى حائل .

## الضرائب والديارات

وتقدر لائحة التي تدفعها كل مدينة وقوية طفا ثروتها من أشجار النخيل ، ومن الأغنام التي يحتفظ بها أهل المدن مع البدو . واعتقد أن كل شجرة يدفع عليها أربعة قروش .



وتعفى الأشجار دون السبع سنوات . وفي حائل يقوم أعوان الأمير بفرض هذه الضريبة ، وفي الأماكن الأخرى يقوم بذلك الشيوخ المحليون ، وهم مسئولون عن جبايتها إبان استعقدتها وفي الجوف ومكاكا ، اللتين لا تزالان إقليمين ضمنا حديثا ، ينشأ ابن رشيد وكبل ، ويقوم بفرض الضريبة في شكل نقود ، والعملة التركية هي وسيلة التبادل المعترف بها في كل مكان .

## المرغل والعمر وفات

و بدون ادعاء الدقة فقد أجريتا عمليات حسابية وقدرة أن دخل الأمير من جميع الموارد ، آلات وضريبة ، يمكن أن إلى ٦٠ ألف جنيه سنويا ، ورسم مرور الحج في ممتلكاته يمكن أن يأتي لخريفه ببلغ يتراوح بين ٢٠ و ٣٠ الف من الجنيهات .

أما فيما يتعلق بمصروفاته ، فربما كان حسابها أسهل فهو يدفع مبلغا ضئيلا كآلة لشريف المدينة ، كهروبان دبي من جهة ، ولبعض حصانة لممتلكاته الثانية ، كخيزر ، وكاف ، وغيرها ، من اعتماد لائراك ، ومرفأ أخمن هذه الآلة بين ٣ آلاف جنيه و ٥ آلاف جنيه ، ولم أستطع أن أتأكد من الرقم الحقيقي ونفقات الأمير على جيشه مع المدعين المدرجة

امساؤهم تحت الخدمة وكل مصاريف الحكومة لا تسكاد مبلغ  
أكثر من عشرة آلاف جنيه .

وقد تبلغ مصاريف منزله ٥ آلاف جنيه ومصاريف  
الاسطبل ألف جنيه . وأضخم بند في ميزانيته هو بند الضيافة .  
محمد بن رشيد تقليداً لأسلافه ، يظعم يوماً بين عاتقين وثلاثة  
صيف ، ويكسو الفقراء ، وتعطى هدايا من الحمال والملايس  
للأغنياء الاغراب ، انقاديمين من بعيد . والوجبة تتألف من  
رد ولحم جمال ، وأحياناً لحم صائغ ، ويحاسب ذلك تقدم  
الكسبجاء والقهوة والتمر وشموار ، ولا يمكن تقدير ذلك  
بأقل من ٥٠ جنيهاً في اليوم ، وليكن ٢٠ ألف جنيه موزعاً ،  
أو مع الهدايا ٢٥ ألفاً من الخنفيات وعلى ذلك تكون الميزانية  
في حدود ٤٠ ألف جنيه نفقات مقابل ٨٠ ألف إلى ٩٠ ألف  
جنيه دخل . وهذا يتحقق فليس لا بأس به من أجل الحرب  
وحوادث اخرى ، ولتشكيدسه في الخزانة وهو أمر تقليدي  
في آل رشيد ، وعلى أية حال فمن المضم على أن أقول مرة  
اخرى أنني أتمنى فقط وربما من إنسان في حبل عمر ،  
ما عدا الأمير نفسه وجوده ، يستطيع أن يصنع أكثر مما قلت .

(١) الكسبجاء نوع من الحبوب يبعث بالبحر ويصاير الله السمك . يذوق حتى  
يبس ويقر ، وتناطويه . والكلمة ارسية ذكره ابو بطوطة في رحلته  
( المترجم ) .

## الازدهار في جبل شمر :

وسوف يتضح من كل هذا أن جبل شمر في حالة ازدهار ،  
من الناحية المالية . فلعنة تسليف النقود لم تغزه بعد ، ولا  
يسطيع لا الأمير ولا الشعب أن يصرف شئ بنسات ريادة  
عمالهم .

وحق الآن ، ليس هناك أشغال عامة في سبيل الانجاز نحتاج  
إلى نفقات عامة ودين عام . ومن الصعب أن نتصور مكونات  
هذه الأشغال العامة . وحفر بئر جديدة هي الواجب الوحيد  
الوحيد الذي يمكن أن تقوم بتنظيمه جماعة ، لأن الطرق  
غير ضرورية في بلد كلها أشنة بطريق مرصوف ، لمصاه ،  
وليس هناك من أنهار حتى ننشأ قنوات ، أو ضواحي حتى يحتاج  
سكانها إلى ترام ، ويمكن للمرء أن يقسأ شقة أن يمر استخدام  
المغارة في القل سوف يكون قد نسي حق قل أنت تعمل  
السكة الحديد جبل شمر

## لماذا يحكم العرب العرب :

وبالنسبة لشكل الحكومة ، فهو حسن فقط لأنه فعال .  
وإنه لأمر غير مطابق لأن الأفكار السياسية الأوروبية أن  
تستقر السلطة العليا في أيدي الناس . بل أن هذه الأيدي هي

الوحيدة التي تستطيع أن تدبرها في بلاد العرب . فالمدينة لا  
تستطيع أن تقهر الصحراء ، ولذلك من أجل العيش بسلام  
يجب أن تقهر الصحراء المدينة .

## عجز الترك عن حكم الصحراء :

والترك بكل جهازهم الإداري وسلطة الثروة والقوة  
المعكزية ، لم يستطيعوا قط أن يؤمنوا أرواح وأموال المسافرين  
في الصحراء ، وقد ظلوا في بلاد العرب لا سلطان لهم في  
السيطرة على غير المدن . حتى طريق الحج من دمشق ، رغم  
أنه اسمياً في يدهم ، لا يمكنهم عبوره إلا بجيش وغناطرة  
عظيمة .

## الاستقرار والامن

أما إن رشيد فيمجرد تأثير ارادته ، يحفظ كل الصحراء في  
سلام مطلق . وفي جبل شمر بأكله وهو من أفقر الصحاري  
ويملكه ناس من أشرم من في العالم ، يمكن للمسافر أن يسير  
بلا سلاح ولا حراسة . بتسهيلات أو عقبات أكثر مما لو كان  
يسير في إحدى طريق ( إنجلترا )

وعلى كل طريق في جبل شمر ، يمكن أن نجد رجلاً من  
المدن بتلكاؤون على حيرهم ، أو على أقدامهم وبغردهم ، يحملون  
كل ما يملكون . وإذا سألتهم عن غناطير الطرق أعادوا إليك

السؤال : رَأَوْا لَسَدَ فِي بِلَادِ بْنِ رُشَيْدٍ : ١ . ان يستطيع أي  
نظام ، مهما كان كاملاً ، من نظم العاصمة والحصون والحرور  
أب بآقي بنتائج مثل هذه والأمير البدوي في المدينة ، على  
اسمده و رفع تحت صدره بحكم من الرأي العام .

## النظام والقانون :

ومواطنوا جبل شمر ليس لهم مـ سمية وحقوق الدستورية ،  
فليس ثمة جهاز مهم لتأكيد منطنتهم غير أن من المحتمل أن  
ليس هناك مجتمع مـ في اعالم القديم ، يارس فيه الشعور  
الشمي نفوداً على الحكومة أقوى ، في حائل . فالأمير ، مهما  
كان غير مؤول في اعماله الفردية ، يعرف جيداً انه لا  
يستطيع أن يتخطى القانون التقليدي غير المكتوب في بلاد  
العرب دون أن يال جراءه . فالتشيع غير المحبوب سيتوقف  
عن أن يكون شيعاً ، ورغم أنه لا يجرء من مركزه واحتفال  
عام ، ولا يسـ بتجريح في شخصه ، إلا أنه سيجد نفسه قد  
أهمل لصالح عضو آخر من عائلته أكثر قبولاً لدى الناس  
وحنوء المدينة لن يسندوا طاغية معترفاً به في المدينة ، ولا  
المدو خارج المدينة سيفعلون ذلك . واذن فإن مـ بلاد  
العرب عليهم أن يعتبروا الرأي العام قس كل شيء آخر .

# فوضى وراثه الحكم

ولعل الخلل في النظم ، ولكل نظام خلل ، هو في التباس حق الخلافة في الشياخة أو العرش البدوي . فعند موت الأمير ، إن لم يكن له ابن في سن الرشد وذى مقدرة معترف بها ليتولى مقاليد الحكم ، يقوم النزاع المسلح بين المتنافسين - من اخوة ، وأعمام ، وأولاد العم على الخلافة ، وكثيرة ومريرة هي الحروب التي نشأت نتيجة لذلك . ومن ذلك ، الخصومة التي هزت المعارض عند موت فيصل ابن تركي آل سعود ، وقادت إلى تحلل المشيكة الوهابية (١) .

## الثانية كانت تتوقع النهاية

وعلى هذا ، فلا يستطيع المرء أن يحكم مخاوفه من أن يكون هذا هو مصير جبل شمر عند موت محمد . فليس لعدم أبناء ، وأبناء طلال وهم الذين يلونه في سلسلة العرش ، لهم من

(١) كلمة ( الوهابية ) من الكلمات التي أصغتها أعداء الدعوة الإصلاحية التي قام بها الإمام محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - على تلك الدعوة . تتغيراً شاملاً عن قبولها . وقد شاعت حتى أصبحت عملاً لتلك الحركة الإصلاحية ، والدولة السعودية المكرمة التي أورتها ونصرتها . والكتابة عربية لا تقم مدلولها . فاستعملتها كثيرها من الكتاب الذين يحملون منها .

حمود صافس خطير. والأمير ما ر ل صغير السن ( ١٥ سنة )  
وقد يعيش طويلاً ، ويبدو ، إذا حدث ذلك ، أن خلافة  
الملكية الوهابية في يديه. لقد صنع هو وأخلافه ، اتحاد جميع  
مشايخ البدو ، من ( مشهد علي إلى المدينة ، تحت قيادته ،  
وهو على صلة قريبة بـشايخ القصيم والعارض. وسلطته مبطرة  
شمالاً حتى ( كاف ) . وعيناه ترصدان مدناً أبعد إلى الشمال ،  
قبلاً لو تحركت ضد القيود التركية .

رائي لأنتظر اليوم الذي تتحلف فيه معه أيضاً الرولة  
ووليد علي ، وجائز أن تنضم أيضاً السبعة وابن هذال ، ولو أنه  
ليس من المحتمل ولا من المرغوب فيه أن يعاد تأسيس  
الامبراطورية الوهابية بأسسها المركزية ، فالاتحاد تعاهدي بين  
قبائل الشمال يمكن أن يستمر على أحسن تقاليد . وقد كانت  
مدن حوران والنجاة والفرات ذات مرة تواجع لآل سعود ،  
ويمكن أن تكون كذلك يوماً ما لآل رشيد . وقد يبدو هذا  
بعيداً ، ولكنه ليس أبعد مما ينظره محمد <sup>(١)</sup>

#### (١) ملاحظة للمؤلف : -

كون محمد بن رشيد لم يفسر اطباعه على محمد فحسب قد ثبت مؤخرًا .  
ففي أبريل الماضي ١٨٨٠ خرج بحيش مكون من ٥٠٠٠ رجل من حائل  
ودمر بوادي لشرحان وهغت محمد بن دوش بن ميم في (حرائل) أرسلت بحبسه  
ثم واصل سببه إلى حوران . ولا يمكن دعر أهل دمشق قلبلاً حين علوا ذات  
صباح إلى الأمير في (بصري) غر بعد أقل من ٦٠ ميلاً من العاصمة السورية  
وكانت هناك تحصينات كثيرة مانسة لاهدافهم التي غل شمالاً إلى هذا الحد .

حرفه يمكن قد شوهه أي حبس مر مجد في (البشك) منذ امام الامبراطورية  
الرومية ثم دار المحسن في ان ابن رشيد قد عقد صداقة مع ابن سمير ، وان  
الحصونة بينهما كانت خطأ ، وان وليلا قراريا قد اعتبر مسؤولا عن الخطأ  
فلطم رأسه ، راجحاً اقام ابن رشيد وليلة فغمة لقنائل لشمل لتصاله وفيها  
ذبح ٧٥ سجلاً ، و ٦٠٠٠ حروف ، وعاد الأمير الى مجد معه ان مكث بعض  
اماييح في (الأنح) .

وبين ان أنطاهر بمعرفة ما كان يسور في نهر عهد للقيام بهذه العزوة  
أو كل ما حدث فعلاً ، يبدو في أنه ليس من الصعب فهم هدفه الرئيسي .  
فطلب ابن سمير من ابن شملان قد وضعه في مركبة قيادي بالنسبة لقنائل  
لشملان ، وغارته ضد دروز حوران - وهو إقليم كان في يوم من الأيام من  
توزيع امراء مجد - احتل محمداً عليه من مياسة ابن رشيد أن يضرب ضربة  
واحدة ثم يتبعها عقد سلام . وبذلك يظن من أهمية اتفق الرؤساء ، وبصبح  
صاحب الانعام عليه ، وقد نجح محمد به الخطأ في أن يثأل السمعة التي يفسدها  
أكثر بين فئات شملان . فقد أكد تفوقه ، حينه اخذ ان يكون كذلك ،  
في الصحراء ، وفوق ذلك ذكر مكان اخذود في سوريا بالطلب الرومية  
تهدية في سوريا الشرقية . وي يمكن تصويره أنه ، وقد أجبر أو أقنع خزنة  
على الانضمام لجماعته ، قد يصبح بعد تحطيم الامبراطورية المملوكية ، في ضم تلك  
الجزء من صراها ، ويعتبر سيادته على كل الأراضي الواقعة خلف الأردن .



## القسم السابع : في طريق العودة من حائل

( في هذا الفصل - وهو الثالث عشر من الجزء الأول من الكتاب - تقدم المؤرخ انطباعاتها عن الحياة في حائل . وعن مشاهد من نجد ، وملاحظات عن العرب . وموكب الحجج للحرم . وهو مشهد قد احتفى منذ أن حلت وسائل المواصلات الحديثة محل الوسائل القديمة . وكان مورد وحل محترم لحكومة ابن رشيد . أشارت إليه الكتابة في الفصل السابق ) .

« كانت ناسل مقصورة لصيد النمرود ، ثم أصبحت  
 مدينة اندلسية ، والأسوار ، وانقرو الملهة وفيها سد  
 بنو حذ نصر ، ملكا بين الرجال الى أن نكس على اربعى  
 ذات يوم ذات صيفه »  
 بيرون  
 « آه ما انص ذلك الرجل الطير الذي يمشى على  
 احسان الأمراء . »  
 شكبير

## حديث عن الدليل :

لقد أضرت إلى الغموض لدي وجدا انفسنا محاطين به بعد  
 بضعة أيام من وصولنا إلى حائل ، والذي سبب له آذاك قلقا  
 ليس بالقليل . لقد كان مصدره بعض تصرفات صبيانية من  
 جانب محمد ( دليل الكاتبة ) ، الذي أسكرته لحفاوة اللطيفة  
 التي قابله بها الأمير باعتبارها من ( آل عروج ) ، وأخشى ، أن  
 تدلنا له كان له أيضا دخل في هذا . وحتى اليوم ، لست  
 متأكدة تماما من اننا سمعنا بكل ما حدث ، ولقد فاني أمتنع  
 عن الدخول في الموضوع بالتفصيل ، إلا أنه قد سمعنا ،  
 بسم أن غرور محمد قد قاده إلى أن يكبر من مركزه في  
 عيون رجال بلاط ابن رشيد بتقديمه كأشخاص وضمهم تحت  
 حمايته . ومن ثم بطريق ما معتمدون عليه ، مفاخر أن الجلال ،  
 والخيول ، والأموال الاخرى هي من ماله ، وأن خدمنا هم  
 قومه . وتحت ظروف عديدة كان يمكن أن يكون لهذا الأمر  
 نتيجة غير ذات أهمية ، وما كنا لنندمر منه بسبب تعجيد نفسه

قليلاً على حسابها ، مدركين كما كانا - اننا مدينون بالرجاح  
في رحلتنا حتى الآن أساساً ، إلى إخلاصه

## تذكر من الأمير .. ثم صفاء : -

ولكن ، لسوء الحظ ، كان الدور الذي عبته لنا بهذا الشكل ،  
قد جعل علاقتنا بالأمير ليست مخرجة فحسب ، بل خطيرة  
لأننا كبدنا . كان استقبالنا في البداية ودياً للغاية مما جعلنا نتذكر  
أن نجد بعد أربعة أيام من وصولنا إلى حائل ، انه لم نعد نمظي  
والاهتمام الذي حصينا به حتى ذلك الوقت . فقد وقفت هداه  
المحب ، والحروف ، الذي كنا نتحف به للعداء ، حل محله  
لحم جمل . وبدلاً من جنديين يحرصانه في الطريق إلى القصر ،  
أتى غلام صغير بمموك برسالة . وفي اليوم الخامس لم ندع إلى  
حفلة المساء ، وفي اليوم السادس ، عندما ذهب ( ولفردي )  
لزيرة القصر ، أخبر بقتضاب أن الأمير لم يكن هناك . ولم  
يستطع أن يتصور سبباً لهذا التغيير ، وأصبح محمداً وهو  
عادة ، المرح المشرح الصدر ، غائباً ومخرجاً ، يقضي معظم  
الوقت مع الخدم في المنزل الخارجي .

و ( حننا ) حننا المخلص ، بدأ يلح بقموض أن الأمور  
ليست على ما يرام ، وبدأ أن عهد الله وبقية الخدام المسلمين  
غير عازمين على القيام بأوامرهم . وتذكرنا أننا بين .. قوم  
متعصين ، فبدأنا نترجع بشدة .

كنا ما رلنا بعيدين عن تخمين السبب الحقيقي . ولم يعلم

( ولغرد ) حقيقة الأمر إلا بعد أسبوع من مجئنا إلى حائل ،  
 في مقابلة له مع مبارك كبير عبيد الأمير . ولم يكن من المقيد  
 أن يغضب ، فسوكت محمد في الواقع كان صبياناً أكثر منه  
 عدم ولاء ، وما كان التشكي يستحق الذكر إلا كتصوير لطباع  
 العرب وطريقة تفكيرهم ، وإلا كنتوضيح لسبب تقصير مدة  
 إقامتنا في حائل أكثر مما نويتنا ، وإذا انضممنا إلى الحجاج  
 العرس في طريقهم إلى ( مشهد علي ) ، بدلاً من ذهابنا إلى  
 النصح .

والطبع لم تقف الأمور عند ذلك ، فبعد عودته من مقابلة  
 مبارك وبيع ( ولغرد ) محمد أئني حماقته ، ثم أرسل إلى القصر  
 يطلب مفرج ، رئيس التشريفات ، وهو نفس الرجل المهيب  
 الذي استقبلنا عند وصولنا ، وبعد أن أوضح له الظروف  
 رجاء بدوره أن يشرحها للأمير ووعد الرجل الشيخ في أن  
 يقوم بهذا . ولا شك في أنه وفى بوعده ، لأننا استدعينا إلى  
 القصر مرة أخرى في نفس الليلة واستقبلنا بنفس الود القديم .  
 رانه لما يسجل للترنيمات بلاط حائل أن أي نوع من أنواع  
 الايضاحات لم يكن مدار حديث . ورعم أن محمد وضع في  
 محله ائلاثق به ، فانه استقبل بلطف ، ان المزيد من الرعاية  
 المحيية هو فقط ما جعلتنا نذكر انه كان هناك سبب للشكوى  
 في وقت ما . أما بالنسبة ل محمد فان علي أن أقول أنه بمجرد  
 ما تبخر غروره ، لم يعد يحمل أي نوع من الحقن بسبب ما

أجبرنا على عمله ، وصار مرة أخرى الصديق البالغ اللطف والبقظة والخدم الذي كانه حتى الآن . إن سوء المزاج نقيصة لا يعرفها العرب . ومع ذلك فالحادثة كانت درساً وتحذيراً ، درساً في أننا كنا ما زلنا أوربيين بين آسيويين ، وتحذيراً في أن حائل هي عربن الأسد ، ولو أننا لحسن الحظ كنا أصدقاء للأسد وبدأنا نضع خططنا للرحيل .

## زيارة لمخيم الحجاج : على الخيل :

لم أقل بعد إلا قليلاً عن الحجاج الفرس ، المخيمين خارج أسوار حائل ، والذي كان يحيمهم من الملامح الرئيسية للمكان ففي يوم الثلاثاء ، أرسل البنا الأمير رسالة يقول أنه يتوقع خروجنا معه للركوب ، وأنه سوف يقبلنا في بوابة المدينة حيث كان الحجاج ، وكان يوماً سعيداً لنا ، لا لأننا رأينا الحجاج ، بل لأننا رأينا ما كنا قد قمنا بالرحلة من أجل مشاهدته وكدنا نياح من ذلك ، أحسن خيول الأمير وهي تعدو .

لقد اشرحنا للناس ، واسرعنا بالامتداد . وفي نصف ساعة كنا نغطي أمهارة ، في الشارع وكان هناك حشد كبير من الناس ، يتحرك نحو المخيم ، وخارج المدينة وحقاً موكب الأمير ، استوعب هذا كل فكري لحظة الان في لم أر قبل خيول حائل وهي مركوبة . وكان الأمير بملابسه الفاخرة تغطي مهرأ أبيض جيلاً ، بينما تبعته ( كروش ) النفرات يمتطيها عد

وكان جميع الاصدقاء هناك ، حمود ، وماجد ، وصبيان  
 مما أخواه ، وصبي آخر أصغر قدموه لنا على أنه ابن متعب ،  
 الأمير المتوفي ، والجميع في روح عالية ، وفي لطفة لمرضى خيولهم  
 وفروسياتهم ، وإلى جانب الأمير ولحمت حمايته الخاصة ركب  
 الشاب ذو التاريخ الحزن ، فائف ، البقية الباقية من أبناء طلال  
 الذين قتلهم أخوه محمد ، والذي كما يحرق الحمس ، سيدعى يوما  
 ما للانتقام لقتلهم وكان هناك أيضاً مبارك ، العبد الأبيض  
 عبد بالاسم فقط ، لأنه بلامحه كواحد من أسرة الأمير وهو أغنى  
 وأشهر شخصية في حائل .

وتتألف بقية الجماعة من أصدقاء وخدم ، يرتدون أحسن  
 ملابسهم ويمتطون أمهار الأمير . وكان حمود على حصانه الكميت  
 الجليل ، باديا للبيان ، وكالمعتاد ، قام بواجب الضيافة نحونا ،  
 فشرح لنا الاشخاص والاشياء المختلفة التي رأيناها .

## صفاء الجو في نجد :

وكان صباحاً لا يمكن للمرء أن يجد مثله إلا في نجد . فالجو  
 مشرق ، منير ، الى درجة لا يستطيع المرء أن يتصورها في  
 أوروبا ، ويملا النفس بمعنى للحياة مثل ذلك الذي يتذكر  
 الانسان انه أحس به في الطفولة ، ويملؤه رغبة في أن يصبح .  
 والسما كثيفة الزرقاء ، والتلال من أمامنا كأنما هي منحوتة من  
 ياقوت أزرق ، والسهل هش ( متجمد ) ومستو كمنضدة

( بلدارد ) يرتفع بلطف في الجبال ، وعلى الجانب ، أسوار حائل وبروحها ذات لشرف ، والقصر يبرز من بين كتلة النخيل الكثيفة التي تكاد تندو سوداء في نور الشمس ، وفي الجانب الآخر ، غيم الحجاج ، كتلة من أحياء المتمددة الألوان ، زرقاء ، وخضراء ، وحمراء ، وببضاه . والحجاج أنفسهم في حمرة سوداء ، يراقبون بتطلع ، وعيون نصف فزعة ، المعرض البدوي لذي كوتا نحن حزه آمنه .

## عرضة ... ومعركة مصطنعة :

وأعطى الأمير إشارة التقدم وفي توجه الجنوب الغربي تحرك جمعا في اتجاه دال من النخيل على بعد مابين وفجأة اندفع الأمير بنهره في العدة ، والتحم الجمع في معركة مصطنعة في طراد واردواج الواحد نحو الآخر . ثم في عودة إلى الأمير الذي ظل معنا وارتفع الصراخ كما لو كانوا سدود لسماء من آذانهم . وفي النهاية لم يعد للأمير بمقدار على المقاومة ، فاندفع بنفسه بين الآخرين ، بعد أن اختطف جريدة نخل من أحد المعينين . وفي خظة لسي هيسته وطغى الدم . وصار يدوا بر حديد . بدويا على حقيقة مو وجمع أسرته ، فدرقت غمامته الحربية إلى الحلف ، وبدأ حاسه الرأس ، تساق صفاته لمدويه في لربح ، حالي القدمين ، عاري الساعدين ، بعدوه وهنالك ، عاجزا

على الحشد ، يطارد ويطارد ، صائعا ، كأنه لم يشعر قط  
بهم ، ولم يرتكب جريمة في حياته قط .

ووجدنا أنفسنا وحيدين ، مع وجبه صغير كنا قد رأناه  
يركب بجانب الأمير ، وبدأ أكثر منا نفورا في مظهره . من  
هذه التسلية الرائعة . وآمل على الأقل ، أننا بدونا أقل إثارة  
للسخرة مما بدأ . فهو عى كديش صغير عفيف ، وفي ملابس  
من طراز ملابس أطفال أوروبيين مد ٥٠ سنة . صدرية عالية  
دات نسبة من الأسفل ومراوون تصل ركبتيه ، وفي قدميه  
بعل ( مششب ) ، وعلى رأسه عطاء بي ، وله وجه حليق  
يشبه غلاما صريع اسمو ، ولكنه ما كان في حقيقة الشخص  
الرئيسي بين الحجاج الغربيين كان ( عني كولي خان ) ابن خان  
البختيارية الكبير ، الذي عامله الأمير من أجل والده . كل  
تجربة ممكنة ، وكان الآن ، مع بقية الحجاج ، في طريق عودته  
من مكة . وقد كان من أهداف تنظيم هذه الحقلة هو التأثير  
عليه ببيعة الأمير .

لم نبق وحدنا طويلا ، فقد توقف العمود في ضيق دافق ثم  
مررا بأزانا السابق ، وبمرور الوقت وصل إلى غل ، انسحب  
في بعد أن من أملاك الأمير ، في مكان محاص سور عدل  
وهذا دعينا إلى أن نتحول ، وحلنا فوق سعده وغطت تحت  
لأشجار ، وسرعة كان الحدم مشمولين بغيره عند خفيف  
من لحم الحار وترك لأفعال مستلقون أشجار الميعور



ويساقطون الفواكه ، ثم دارت العجوة . ثم أدت الجماعة كلها الصلاة ما عداها ، نحن والفارسي ، الذي لم ينضم اليهم في العبادة باعتباره ( شيعياً ) وركنا مرة أخرى عاتدين الى المنزل ، وهذه المرة ، انضممنا الى الجماعة في المدور ، الذي استوف سرعة ، ناعمين باللهو ، وبهذه الطريقة عدنا الى حائل .

## مع رئيس حجاج المعجم :

وفي اليوم التالي زار ( ولغرد ) <sup>(١)</sup> ( علي كولي خان ) في خيمته مصطحباً محمدا الذي عاد الآن رفيقاً مقولاً وثابراً رادعاه محمد بالحسب والنسب في الخيم الفارسي <sup>(٢)</sup> ، لم يكن في الواقع لبؤبه به ، لأن الفرس لا يهتمون إطلاقاً بالنسالة العربية ، بل يعاملون العرب جميعاً كبندو وبربريين <sup>(٣)</sup> .

و ( علي كولي ) ، رغم انه أصغر اخوته ، كان مسافراً في ابنة ، مصطحباً امه معه ، وعددأ كبيراً من الخدم ، رجالاً ونساء الى جانب متمهدي احماله ، والعرب الذي يسومون حيواناته .

وكان مترجمه شخصية مهينة ، وأتباعه في ملابس كهوتية مما أضفى عليه مظهراً يشعر بأنه رئيس ذو أهمية . وكانت

(١) زوج الكاتبة .

(٢) خيم حجاج المعجم .

(٣) هذا بحسب رأي الكاتبة . وواقع ان المسلمين منهم يحترمون العرب .

غيت تركية الطراز، حنة الخطوط ومريحة، أرضها مفروشة  
ببساط أعجمية، وفيها أريكة .

ر هناك وجده (ولفرد) يجلس مع صديق قديم . هو عبد  
الرحمن ، ابن فاجر من ( كرمان شاه ) وهو في نفس  
الوقت وكيل قنصل بريطانيا هناك . وكان أطفال الفرس  
لطافاً جداً ، ولكن تباًين طباعهم عن طباع العرب المتكلفة  
أثارت انتباه ( ولفرد ) في الحال . لم يكن هناك أي شيء من  
ذلك الشام المحكم ، والاستفسارات المهذبة ، التي يحدها المرء  
في حائل ، ولكنه استقبال أوروبي في شكله . ومن أجل راحة  
ولفرد اجلسوا الأريكة ، وأنوا بالشاي الذي اعد على  
( سماءور ) ، وفي الحال صَبَّوا عليه تاريخاً طويلاً من معاناتهم  
في الحج . رروا هذا في عربية مكسرة جداً ، وبنبهة لا  
يستطيع المرء مقاومة لكتبتها ، لأن الفرس يتكلمون بنغمة  
بطيئة ، غريبة بالنسبة للعربية . ولغة ( علي ) الطبيعية ، كما  
يقول ، هي الكردية ، ولكن حيث انه شخص متعلم ، وضابط  
في جيش الشام ، فهو يتكلم الفارسية بنفس الاتقان . وفي فارس  
تلعب العربية في التعليم نفس الدور الذي لعبته اللاتينية في  
اوربا قبل أن تصبح لغة مبنة تماماً .

## حديث عن العرب

وكان علي وعبد الرحمن يصرخان بالشكوى من كل ما هو

عربي ، وبالرغم من وجود محمد ، لقد شتم كل العنصر العربي ،  
فقر المدن ، وجعل المواطنين ولصوصية المدن ، والأجور المأهنة  
للمجاليين العرب ، والمجاليين ، وبؤس السفر في الصحراء . هل  
هناك شيء أبأس مما في سوق حائل ، حيث لا يمكن أن نجد  
أيس حلوى بالحلب أو المفود . العرب مجرد برايرة ، وشراب  
قهوة بدلا من الشاي . وبين وقت وآخر ، ينفجرون في  
محادثة بلغتهم .

وعلى أية حال ، فقد أحس الفرداني على كوني ،  
وافترقا صديقين حميمين ، بدعوة من الشابين الغاصيين للسفر  
إلى مشهد على الفرات ، حيث يسكن القوم حجهم  
دعما لزيارة ضريح علي والحسين .

وبدت هذه فرصة ممتازة ، وبعد مشاورة مع الأمير ،  
الذي وافق على الحطة ، قررنا السفر مع احتياج حين يسافرون .

## زيارة بلدة عقدة ، ووصفها

ولم تكن أيامنا الأخيرة في حائل أقل متعة ، بأية حال .  
وكبرهذه على حسن نية الأمير فقد أعلن أنه يمكنه أن يزور  
عقدة ، وهي قلعة في الجبال على بعد أميال من حائل ولم  
يرها أحد من العرباء قط من قبل .

كتمان موقع عقدة بأمر الأمير !

ولست في حل أن أقول أين تقع العقدة ، لأننا أرسلنا

لنواها على وعد الكتان ، ولو اني أمل ألا بنعروض ابن رشيد  
لحطرت عزرو أجنبي فلن أقدم مفتاحاً لاعداء احتاليين . بكنفي  
أن أقول : انها تقع في الحمال ، في مركز ذي قوة طبيعة ،  
وازداد قوة بمجهودات بدائية للتحصين ، وهي بكل تأكيد  
من أغرب الأمكنة في العالم .

يقرب المرء إليها من السهل عن «سرق واد ضيق متعرج»  
يذكره كثيرأ بوديان جبل ميناء (الطور) ، حيث تبرز  
صخور الجرانيت ابقتة على اجانبين خارجة من قاع رملي نقي .

### خربة «سحاريب» !

وعلى واحدة من هذه الصخور نقشت كتابة عربية نقلناها ،  
ولو انها غير جيدة الوضوح إلا انها ينكر أن تقرأ كالنالي .

وهذه خربة سحاريب ، هذا هو المني على الأقل في رأي  
المستر (سابق) من نقات دراسي العربية ، ولو اني لن أعمر  
لأشرح المناسبة التي اتخذ (سحاريب) فيها طريقه إلى نجد ،  
ولا السبب الذي جعله يكتب بالعربية بدلاً من كتابته السريية .

ومن داخل التحصينات يتسع الوادي الى مدرج مكون  
من اتصال ثلاثة وديان أو أربعة ، حيث توجد قرية وبنان  
من النخيل ، ويحاطب ذلك تملىه الوديان والنخيل لوحشي  
نفسى «لغاية الالهية» . أو كما يقول العرب (من الله) ، على  
الأقل ليس بيد بشرية .

وهي جملة حدأ في تكويها - التناين بين خضرة الخصب  
 والحلاية وبين الصخور الجرانيلية العادية التي تغلظ عليها من جميع  
 الجهات ، وربما كان ارتفاع هذه الصخور ألف قدم ، وتنحدر  
 عموديا الى سطح الوديان الرملي . بحيث تذكر الناظر اليها  
 بوادي الماس حيث تعيش الحيات ، وحيث رمى التجار اللحم  
 لطيور الرخ من اجل جمع الماس ، في قصة (السندباد البحري)  
 وما من تحيات تعيش في ( عقدة ) وانما يعيش هناك قوم من  
 شمر الأماناء ، الذين اضافونا بمطاه سخفي من اصناف النمر  
 والنقوة ، كن من الصعب ان تعدل بينها . وصحبنا فارسان  
 من فرسان الأمير ، من شمر ، قاما بواجب الضيافة في الطريق  
 الى ( عقدة ) وكل ما فيه كان في الحقيقة ملك خاص لان  
 رشيد . وقد قدم لنا هذان الفارسان والقرويون كثيرا من  
 المعلومات عن التلال التي كنا فيها ، وأرونا موقع المعركة الكبيرة  
 التي حارب فيها ابو محمد ، وعمه عبد (ابن علي) الأمير السابق  
 للجبيل .

ويبدو ان ( عقدة ) هي اقدم ممتلكات آل رشيد وانهم  
 عند اخذهم لحائل مشى اليهم (آل علي) فتراحموا الى القلعة من  
 حيث اداروا المعركة ، وانزلوا هزيمة بأهل (قفار) ضمنت لآل

رشيد السلطة العليا منذ ذلك الحين (١). وأرونا أيضاً بعزاز  
كبير سوراً بناء عبيد ، لبسد الرادي الضيق ، وجعلونا ننفرج  
على كل شيء ، الآبار والبساتين ، والمنازل بحيث أننا قضينا كل  
اليوم تقريباً هناك .

## هيو ان الوب

كما اخبرونا أيضاً عن الحيوان الغامض الذي يأتي من التلال  
في الليل فيتسلق النخل من اجل التمر . و بحجم الارنب البري  
ذي ذيل طويل ، وهو جيد للاكل ، كما وصفوه بأنه يجلس  
على قائمته الخلفيتين ، وبصفر ، مما جعل ( والفرد ) يظن أنه  
فأر بري . ولكن هل تتسلق الفئران البرية؟ ويسمونه (الوب)

## أغنية هريية لشمر

وفي عودتنا سارت الخيل تعدو بدا عدوا مبهجاً يرافقنا  
بدويان ( لم يكن محمد معنا ) تعلمنا منها احدى اغاني الحرب  
لشمر ونجري كالآتي :

(١) لأمل هذه البلدة قصص وملاحم شمريه حول اسليلاه ( الساعيس )  
على عقدة ، واخراج ( هيج ) منها ومن شمرم قصيدة مشهورة عندما  
جاء فيها ، -

قتيلك ( هيج ) حمد داروه ( الساعيس )  
من ( عقدة ) التي ما بزخزاج قنتلها  
والساعيس : حيرة أهل حائل .

ما رينة انا تركية الذلول

تو ريتوا يني شدا دها

أريد انا خنبراً شرف

خنبراً مربعاً أوزادها

و كذا ينقلبان فرسين رشيقين صغيرين ، إلا انها لم يستطيعا

العدو بنفس السرعة التي عدونا بها .

## ابا و عزبي وترفع

ولو كنا في ا تركية ، أو أي مكان اخر عدا بلاد العرب

لكان علينا ان نتفحصها بسخاء بمد رحمة من هذا النوع ، أما

في حائل فشيء من هذا النوع لم يكن ليتوقع . وكان كل من

هذين الثمرين بالغ لشدة ، حسن السلوك ، وروحهم تسومان

على المقدود . كما يقومان بواجبها نحو الأمير ، كشيخ ، وليس

نحونا كغريبين وقاموا به منحصر .

## أجمل أيام هائل

و ا شقة ا عزبي ارتفاع ٣٠٧٨٠ قدما فوق مستوى سطح

البحر ، وحائل على ارتفاع ٣١٥٠٠

١٠ لا أريد . كوب - قه الدالة بركوب . ويركان شدا دها ( رحلها

شني مجلس فيه اراك قد بين وجمل بلية احوال و لرحمة .

٢١ ( أريد هوساً حمراء . طوية قوية . صريمة السبع . الانقضاء عو

المدو . اوزادها ( اوزادها ) وهو بخدارها سرعة

كان هذا أجمل الأيام التي قضيناها في حائل ، وسوف  
نعيش طويلا معنا كذكرى منعشة .

## في وداع ابن رشيد :

وفي اليوم التالي كنا منرحل وكان محمد أثناء غيابنا يقوم  
بإستعدادات الرحيل . فإبتاع جليلين آخرين ومونة شهر من  
التمر والرز ، بالإضافة الى هدية متميزة من بن اليمن ، أرسلها  
إلينا الأمير . وكانت آخر مقابلة مع ابن رشيد متميزة . فلم  
يكن في القصر ، وإنما في بيت بالقرب من بوابة مكة ، من  
حببت إستطيع أن يراقب من نافذة دون أن يلاحظه أحد كل  
ما يجري في نعيم الحبيب أسفل منه . وجدناه وحيداً ، فقد  
زال عنه الآن كل خوف من أن نكون مغتالين ، كان هناك في  
النافذة كطير كاسر ، يحجب بدون شك كم قطعة أخرى من  
الفضة يمكن أن يجمعها من التمر من قبل أن يكونوا بعيدين عن  
محالته . وبين آونة وأخرى كان يميل الى خارج النافذة التي  
كانت جزئياً مغطاة بضلفة ، ويصيح بأحد رجاله الذين كانوا  
يقفون بالحارج مبلغاً إياه رسالة تتعلق بالحجاج . وبدأ أنه  
يستمتع بسلطانه عليهم ، وهي سلطة مطلقة .

وكان بالنسبة لنا ودوداً ، مجدداً إقامة الحجة على صداقته  
واهتمامه ، عارصاً أن يعطينا أي شيء نختاره ، ( هجن )  
للرحلة ، أو أي واحد من أمهارة . وهذا ، وإن كنا نحب



أن نقل العرض الأخير ، ما أبيناه ، بالطبع ، وألفى (ولفرد) خطبة قصيرة بالطريقة العربية قائلا فيها : ان الشيء الوحيد الذي نطلبه هو صداقة الأمير ، متمنياً له طول العمر ورجاء ابن رشيد أن يعتز به وكيد في أوروبا في حالة احتياجه الى أية مساعدة من أي نوع ، وشكر له اللطف الذي تلقيناه على يديه . ثم اقترح الأمير أن نرجى رحيلنا ، ونذهب معه في غزو كان سيبدأ به بعد أيام قليلة ، وهو عرض جذاب كان من الصعب أن نرفضه لو تقدم به في وقت مبكر ، فأبيناه الآن . وفي الواقع كانت رؤوسنا بين فكي الأسد وقتاً طويلاً فيه الكفاية ، وكان هدفنا الوحيد الآن هو أن نخرج من العرين بهدوء واحتماء . ومن أجل ذلك اعتذر (ولفرد) بضيق الوقت ، وأضافنا ان جمالنا كانت في الطريق الى الرحيل ، وقلنا : وداعاً واستاذنا .

## عنصر الأمير حمود :

وكان علينا أن نؤدي زيارة لاعتبارات الصداقة هذه المرة أكثر من اعتبارات الرحمة . فحينما سرنا راكبين خلال المدينة توقفتا عند منزل حمود ، ووجدناه هناك مع كل عائلته . وكانت وداعنا لهم بحق تعبيراً عن الأسف للفراق ، وقدم لنا حمود نصيحة سليمة حول ذهابنا مع الحجاج الى

منهجه على أنها من محاولة الدور إلى مصفرة . فقد زالت  
الأسطر ، كما دال ، على طريق الحج ، وإن لربك ملأى بالماء  
رك رعدة ) . ولذلك فإن رحلتنا ستكون سهلة بسلة  
استعداد ، بينما إن الصور إلى مصفرة سيحتم علينا أن نمر في  
بعض عديم الماء ، بدون أن يكون هناك شيء ليعوض عن  
عن هذه المصوبة

ولكن قد ما ينكر أن نضطر فيه بعد الرحيل ، فاشيء  
أول كما قلت ، كان هو أن نأخذ ، وسوف يكون هناك  
وقت كاف فيها بعد لوضع تفصيل خط سيرنا .

## هدية للطائفة وزوجها:

وكان ماجد هناك وتلقى من (ولمرد) كدكري ، خنجراً  
اسمائياً ذا مقبض دعي ، ومن أجل ذلك أرسل من يأتي بمعبدة  
روداء ، طوقها مصرز بالذهب ، وقدمها هدية إلى ، وكانت هدية  
مناسبة ، فلم يكن لدي شيء من نوعها ، نعم لم يكن لدي  
عبادة . محترمة على الإطلاق ، وكانت هذه ذات مظهر مهيب  
وهدية . إن ماجداً ، على الأقل ، وأنا متأكدة ، بأسف  
لمراقب ، ولو تأخذنا الظروف مرة أخرى إلى حائل ، فسوف  
يكون أحسن حظ لنا أن نجده أو أباه على العرش . إنها  
باعتبار الوارثين الطبيعيين للشيخة ، وإن رشيد لا يبدو كمن  
سيعيش طويلاً .

## خارج المدينة

امتطينا خيولنا بعد هذا ، وفي خمس دقائق اخرى كنا خارج المدينة . ثم ملتفتين الى الورا ، شد كل منا نفساً عميقاً فحائل بكل سحر غرابتها ، وسكانها اللطاف ، أصبحت كسجن باللبنة لنا . وفي وقت ما عندما تخاصمنا مع عمود بدت كثيرة الشبه بقبر .

غادرتا حائل من نفس البوابة التي دخلنا منها ، وبدا كأننا كان قبل سنين ، ولكن بدلاً من أن ندور في انحاء الجبال ، حاذينا سور المدينة ، ثم بسايق النخيل التي هي امتداد لها في نحو ثلاثة أميال ، منحدرين الى وهدة ضيقة ، ثم خرجنا الى السهل مرة أخرى . وعند مجموعة منزلة من شجرات الاثل ، توقفنا لتستمتع بالظل للمرة الاخيرة قبل أن ننضم الى ركب الحجيج الذي كان يبدو كخط طويل من النمل يعبر السهل بيننا وبين سلسلة جبل شمر الرئيسية .

## صفاء الجو في الصحراء

وبدون استثناء ، كان أجمل منظر رأيته في حياتي وسأحاول وصفه ، ويجب أن يكون مفهوماً ، منذ البداية ، ان الجو وهو دائماً صاف في جبل شمر ، كان هذا اليوم ، ذا

صفاء شفاف ، يفوق كل الرغبات في الصعاري العادية أو في المناطق العليا من ( الألب ) أو في القطب الشمالي ، أو في أي مكان آخر باستثناء - ربما - القمر . لأن هذا هو نفس مركز الصحراء على بعد أربعائة ميل من البحر ، وعلى ارتفاع ١٠ آلاف قدم تقريباً من مستوى سطح البحر .

## جمال ضواحي المدينة

ومن أمامنا امتدت واجهة أمامية خشنة لرمال محمرة ، وما غللت الأمطار من صفور جبل أحا ( الجرانيتية ) مع أدغل عظيمة من الاثل هنا وهناك ، أشجار عظيمة ذات فروع مقاس جذورها بين ٢٠ - ٣٠ قدماً . ( قسنا إحدى هذه الاشجار ذات الفروع فوجدنا يحيط جذعها ٣٦ قدماً وارتفاعه عن الارض ٤ أقدام ) وتنعمر هذه الاشجار على روابي صغيرة مبنية مواقع قبوت في الماضي - تماماً مثلما تفعل أشجار السدر في ( سويسكس ) - لأن المدينة قد استقلت من نهاية الراحة هذه إلى حيث تقوم الآن . وعبر هذا الرمل يمتد حزام طويل أخضر من الشجر ، ربما كان فدانين وسنابل الفلة الخضراء متألقة ، وقد ارتفعت إلى المستوى الذي يسمح بحجب ( السواقي ) بحاري الماء . وخلف هذا ميل أو أكثر ، يتحول متلاشياً أفق لصحراء من اللون الأحمر إلى البرتقالي ، حتى يقطعه ما يبدو صفحة مشمة من المياه بمكس

زرقاء السماء العميقة - مراب بالطبع ، ولكنه أجمل وهم  
يمكن تصويره .

وعبر هذا ، وهو ما يبدو خائفاً في الماء ، كان خط جمال  
الحجاج ، وكل واحد منها ينعكس تماماً في السراب الذي تحته  
مع نقط زرقاء ، وحمراء ، وخضراء وقزقلية ، ، مثلة  
المفش أو الخيمة التي يحملها . ويمكن ان خط الموكب كان  
خمس أميال أو أكثر طولاً ، لم نستطع أن نرى آخره . وما  
وراء ذلك ، مرة أخرى ، شمخت قنن جبل (أجا) بلون البياض  
في كتلة مختلطة رائعة ، كأغرب وأجل سلسلة جبال يمكن أن  
تخطر على الخيال - مرأي حبيب 11

## الكتابة وزوجها برزجهان بالعربية !

وبعد ان توقفنا معجبين بكل هذا ، وانتهت رسماً تخطيطياً  
له - فلم يكن هناك من داع للسرعة - امتطينا جيادنا من جديد  
وانطلقنا بدمر متممين - نحن والجياد - بحربنا ، ونفني  
اغنية شعر :

مَا رَيْدَ اَنَا رَكْبَ الدَّلُولِ

كُلُّ رَبْتُوا لِي شَدَادَهَا

أَرِيدَ اَنَا حَمْرًا شَوْفَ

حَمْرًا يَرِيحُ أَوْرَادَهَا

وهزجاً بهذه الأغنية أشر في جيادنا أكثر مما كان يستطيعه

سوط أو مهراز ، وجعل الجمال عندما قربنا من قافلة الحج ،  
تجفل ، ودفع الحجاج الى ان يفرغوا ظانين ان بدو (حرب) في  
طريقهم اليهم مرة أخرى .

## اللقاء بالحجاج :

هكذا سرنا بتبينا محمد حق وصلنا الى طليعة الحجاج والى  
المعلم ذي النونين الاخضر والاحمر الذي يسير امام الموكب .  
وبالقرب من هذا وجدنا جمالنا ، وبعد ذلك بفترة وجيزة تخيمنا  
مهم ، ليس على بعد لا يبلغ عشرة أميال من حائل ، في واد  
صغير ركز فيه العلم .

نصبنا خيامنا على بعد ٢٠٠ ياردة من تخيم الحج ، الذي  
انتصب في احتشاد خوفا من اخطار الصحراء .

أذن المؤذنون لصلاة المغرب ، وهام الناس يؤدون عبادتهم  
خيولنا توضع شعيرها ، وصقرنا ( وهو طائر مدرب اشتربناه  
امس بستة مجذبات من بدوي في حائل ) يجمع اماننا ناظراً  
الى وكرهاته . انه مساء درد ، ولكن آه كم هو نظيف ومريح في  
تخيمنتنا !

## الامير الرتبدي يؤخر سير الحجاج

٢ - فبراير :

بدو أن صف الحجاج فقط غادروا حائل أمس . لقد

كانت هناك صعوبة فيما يتعلق بالجمال - يقول البعض ، ويقول آخرون إن ابن رشيد لن يتركهم يذهبون. ويحتمل أنها مسألة نقود في كلا الحالين . وهكذا ما كدنا نسير حوالي المبلين ، حق اصدر أمير الحج ( عنبر ) وهو عبد اسود لابن رشيد أمراً بالتوقف ، وبقيت الجمال وراكبوها متراسة على قطع مرتفعة من الارض ، لغرض عدم - كما نظن - وعلى أية حال ، فقد استمر الدراويش والحجاج المشاة في سيرهم كما يحبون ، وكذلك فعلنا نحن ، لاننا لا نعتبر انفسنا مقيدين بأية قاعدة من قواعد موكب الحج ، وعند عباده او امر ان يسير جمالنا خارج حدود الجماعة الرئيسية .

لم يكن هناك أي طريق أو درب اليوم ، وواصلنا سيرنا في مكان ما ، امامنا ، عابرين ارضاً صلبة ووردياً هي أقرب الى الوهاد ، لقد اصبحنا الآن - بحثاً عن ماء سمعنا انه يقع - متعودين على الصحراء ، انى حصد اننا ميزنا الماء من بعد كبير ، تخمينين موقعه عن طريق اللون الابيض للارض القريبة منه . ان البياض سببه ترسبات شبه صخرية يكوها الماء حينما يبقى طويلاً في أي مكان وفي هذا المثل يقع في مستودعات طبيعية أو في عدة مستودعات في بطن واد ضحل . وهذه (المستودعات) لا بد انها قد امتلأت في وقت ، ماء اثناء الشتاء بفعل المطر ، وامرنا لنملاً قربنا منها ، وهي لا تزال نظيفة ، لأن الحجاج سريعاً يشربون منها وسيلوثونها . انها ليست سوى برك صغيرة وجدنا ( عواد ) قد وصل الى هناك ، وكان قد ارسل في المقدمة

مع ذلول ليضعن قلوبنا، ولم تكذب اجراءات ملء القرب تفنهي  
حق وصل الدراريش الذين يسرون دائماً على رأس الحجاج .  
ولهم عادة كريمة هي انهم يفتشون في الماء اربلا ، ثم يشربونه  
بعد ذلك ، وهي طبقة لما سمعنا جزء من طقوسهم الدينية .

كانت الريح تهب بعنف طول اليوم بحمّة بقدر كبير من  
الرمال ، ولكنها الآن قد كفت . كان طريقنا منذ غادرتنا  
حائل شرقاً بشمال . ويتجه نحو تل مرتفع ، جبل ( جلديه )  
وهو علم بادي الظهور . ان تخيما اللبنة أمر منه بالامر لأنه  
أبعد عن الحجاج ، ولدينا واد صغير كله لنا ، مع وفرة في  
الوقود الجيد ، وعلف للجمال .

٣ - فبراير :

مع ان النيران اوقدت هذا الصباح في الساعة الرابعة كما لو  
كان استعداداً للرحيل المبكر ، فلم تبدأ اية حركة ، اليوم .  
نصف الحجاج ما زالوا في حائل - كما اخبرونا - ويجب ان  
ينتظروا . ذهب اليوم ( ولغرد ) لبحث عن صديقنا ( علي  
كولي خان ) ، ولكنه لم يجد احداً سواه هو او عبد الرحمن ،  
او أي شخص آخر يعرفه قد وصل .

## مقارنة بين افندي العرب وافندي

### المعجم

ان الحجاج الفرس ، مع انهم غير مقبولين في أشخاصهم



وعاداتهم ( لأنهم يفتقرون الى اللباقة التي هي صعبة عربية )  
وَدُودُونَ بشكل كاف ، ولو أمكن التحدث اليهم ، لكان  
ذلك ممتعا ، غير انهم يبدوون من المقارنة السطحية مع العرب  
أفظاظا وملين . ومعظمهم ذور سخن صافية ، وقد يكون  
شعرهم أشقر وعيونهم زرقاء ، ولكن ملامحهم خشنة ( غليظة ) ،  
وهناك من الفرق الكبير بينهم وبين ( شمرا ) الذين يجرسونهم  
مثل الفرق بين حصان عربية ( هولاندي ) وبين مهر من أمهار  
ابن رشيد . وبالرغم من الاستحمام الذي يقومون به بمناسبة  
وبدون مناسبة طول اليوم ، فانهم يبدوون قذرين ، بشكل لا  
يوصف ، في ملابسهم ذات اللبس اللغني ، كما لم يبد أي عربي  
لم يستحم . وبين آونة وأخرى يتور النزاع بين ( عواد ) والآخرين  
وبينهم كلما اقتربوا من خيامنا بحثا عن وقود ، ومن الواضح  
انه ليس هناك حب مفقود بين الفرس والعرب .

قضيت يومي بشكل مريح في المنزل ، أعيد حشو مرحلي ،  
الذي كان يحتاج الى ذلك بشكل يرتى له .

وقد عاد محمد الى نفسه الاصلية تماما ، بدون تعاضل ، ولا  
تظرف من أي نوع ، ويقول : ان هواه حائل لم يناسبه .  
ويبدو أنه الآن قلق ليمعوا كل أثر لذكرى الماضي ، وقد جعل  
نفسه مقبولا ، يحكى لنا القصص المتعلقة بـ ( السبعة ) وغيولهم  
وكلها ذات عبرة ، ويمضها مل .

## يوم آخر.. حتى يؤذن للهباج بالسفر

١ - فبراير : -

يوم آخر من الانتظار ، والهباج مثلنا عجلون ، ولكن العجلة ليست حنة . ولكي نشغل الوقت ، ذهب ( ولفرد ) بنفسه في عملية مسح ، مع مهره والكلاب السوقية ، سار في خط مستقيم في اتجاه الشمال ، نحو صف من التلال المنخفضة ، التي يمكن رؤيتها من هنا من الارض المرتفعة وهي على بعد ١٢ ميلا . لم يابل أي انسان ما عدا بدويين على ذلول ذاهبين إلى (عطوة؟) حيث توجد بئر - على حد قولها . نظرا اليه والى بندقيته بريبة ، ولم يحبا أن يكونا موضع استجواب . وبعد ذلك وجد الصحراء خالية من الحياة ، متابعات من السهول الرملية المستوية ، وسلاسل خشنه من الصخور الرملية . والتلال ذاتها التي وصلها قبل ان يقفل عاندا كانت ايضا من الصخور الرملية الصفراء ، تقبل إلى السواد في بعض البقع ، ومن قمة السلسلة قدر ان يميز النفود كبحر احمر وقطع المسافة ذهابا وأوبة في ثلاث ساعات عدوا . وكان ذهبه غيدا من حيث انه مكه من ان يعرف موقع عدد تلال رئيسية ، (باطب) و (حلبه) ، وتلال أخرى ، وبضعها على خريطة . لم يخبرني أين كان قاصدا ، وبما ان الامر قد وقع ، فقد عاد قبل أن يمر وقت كاف يحملي أفلق .

وفي الوقت ذاته ، كان عواد وعمه الله يعطيان الصقر درسا

بطعم صنعا من الحلة . ويبدو أن الطائر أليف ، فيذهب إلى عواد عندما يدعو صائحاً ( اشوا آشوا ) ، والتي يفسرها بأنها اختصار لاسمه ، ( رشام ) ، وهي تحريف لكلمة ( راشمون ) والتي تعني ( لأمع كالبرق ) . وبأمل الآن بمساعدة ( رشام ) أن يكون مددنا من اللحم متصلاً ، فإن الأرناب البرية موجودة بوفرة .

جاء روار بعد الظهر ، بعضهم بدو من شمر من عائلة ابن طوالة ، الذين فضلوا أن يحيموا بجانبنا ، كجيران أخف ظلاً عليهم من الفرس . انهم في طريقهم من حائل إلى خيامهم في النفود ، ومعهم رسالة من الأمير أن جملاً أخرى مطبوعة ، ثم يذهبون بعد ذلك مع اخجاج إلى مشهد علي ، وروا حق السماوة على الفرات ، ليشتروا رداً ( ثمن ) وبوا .

مرتين في السنة فقط يستطيع جبل شمر أن يتصل بالعالم الخارجي ، مناسبة عبور الحجاج ذاهبين وعائدين من مكة . انهم حينئذ يجمعون مؤنهم للسنة وأكبر هؤلاء ( الطولة ) رجل في الستين من عمره ، حسن الطماع ، ولطيف ، تناول غذاءه مع محمد والحدم في خيمهم ، ثم جاء للجوس مصابيح ذلك في خيمتنا . اننا حائرون بين أمرين : بين أن نسير مع الحجاج الملتكئين وبين أن نذهب معه غداً . ولكن خيمه تقع - إلى حد ما - يسار طريقنا .

والإضافة إلى ( الطولة ) ، يوجد بعض فقراء البدو مع  
جملهم التي أطخوها في وادينا ، حتى تكون بعيدة عن الأنظار .  
انهم خائفون أن يوهوا منهم حجاج ، وفي البداية كان من الصعب  
أن تفهم سبب هذا الخوف .

وإذا كان الأمر كذلك ، فكان يجب أن يقتربوا منه .  
ولكنهم أوضحوا انهم أملوا أن ينضمروا في حشد ، وأملوا  
أن يندلوا ميزات مصاحته ، بدون أن تثقل جملهم بالأحمال .  
وهم ، مثل غيرهم في طريقهم إلى ( مشهد علي ) لشر ، حنطة .  
هناك اخبار ان الامير قادم غداً من حائل ، وانه سيمسافر  
ثلاثة يام مع موكب الحج ، متجهاً بعد ذلك الى حيث لا يعلم  
السان ، في غزو . سيكون هذا امراً متعباً ، لأننا الآن ،  
وقد ودعناه ، نريد ان نعد عنه .

## رحلة قصيرة

٥ فبراير :

واخيراً نخرج كذا ، ولكن عشرة اميال اخرى فقط ، الى  
واد اكبر ، يدعى انه ميل الجهة بأكملها ، ويدعونه وادي  
( الحنصر ) ، اما لماذا سمي هكذا ؟ لا استطيع القول .  
ونوجد هنا عدد من الآبار ، ويقع كبيرة من اللا لإبل ،  
من الترع الذي يسمى ( ريمت ) ونكثر في هذا المكان

الأرائب البرية ، وقد قعنا ببعض المطاردة مع كلابنا الصوفية ، يساعدها كلب من كلاب السيد ، أخق نفسه بنسا ، ويسميه الخدم ( مرزوق ) ، وهو حيوان غير جذاب ولكنه يتأثر بحماسة شم قوية .

## مكان اثرى ، ذو كتابات وصور

وبعد ساعتين أتينا الى تل عجيب ينتصب وحسبدا في السهل وهو ، مثل سائر الجهات ، الآن ، من الصخر الرملي وسرنا ان نجد مغطى بنقوش ، وصور طيور وحيوانات من نفس النوع الذي شاهده من قبل ، ولكنها بطريقة احسن كثيراً ، وعلى مقاس اكبر <sup>١١</sup> .

والكتابة ، اياً كان اسمها ، جميلة جداً وواضحة ومتناسقة كوضوح وتناسق الحروف الاغريقية او اللاتينية الكبيرة ، وبعض الرسوم لها خصائص الفن الحام ، ولكنها فنية حقاً ،

(١) تخبر من السيد وحام ، ادي أجرى حفريات في ابل . ان هذه النقوش هي بالحروف العبرية القديمة ويبدو أن العبرانيين ، وهم أمة من تجار ، كان من عاداتهم إرسال مسافرين تجارين بعثات من بضائعهم في كل أنحاء آسيا . وحينما يتوقفون على الطريق ، ينقشون اسماءهم . اذا وجدوا صحرة لينة ، ويرسمون صور حيوانات . وقد يكون هذا التفسير هو الصواب . لكن كيف يعمد هؤلاء التجار الى اختيار موضوعات صحراوية تحت لفهم . جمال ، ونعام ، ووعول ، وفروسان برماج . ابي الخيل أن هذه من أعمال العرب . أو من يمثل العرب كأننا من كان ، في عهد مضى ، انها على أي حال من أعمال قوم كانوا يعيشون في البلد . ولكنني لست من علماء الآثار . (الأصل)

وهي لا يتكمن ن تكون عمل مجرد بربريين

ومن الملحوظ ان الحيونات الممتلئة هي بشكل اساسي  
عربية ، الفزال ، والجل ، والتوعسل ، والعمامة . ولاحظت  
ايضا ان شجرة النخ عوجت بطريقة تقليدية ، ولكن لا  
شيء مثل بيت ، او حتى خيمة . والموضوع الرئيسي هو  
سكون من جملين منقذامي المقيين ، هو تكوين لا يستهت  
بخصائصه ، ويصاحبه نقش منتظم الحفر . ويدل على ان  
هذه الاشياء قديمة . لون الخطوط ، والصخرة من اصل رملي  
بحر ، مع ميل الى الاسوداد ، ومن الواضح ان الحروف  
والرسوم عندما كانت جديدة كانت حمراء على ارضية سوداء  
ولكنها الآن قد تغلب عليها مرة اخرى ، وهي عملية لا بد  
انها احتاجت الى قرون لتحدث تأثيراً في هذا المناخ الجاف .  
كما في مقدمة الحجاج عندما اتينا الى هذا التل ( تل  
السبية ؟ ) وانتظرتنا على قمته ، بينما كان الموكب يمر بنا ،  
ساعة أو اكثر . كان منظر غريباً . ومن الارتفاع الذي كنا  
نقف فيه ، استطعنا ان نرى مسافة ثلاثين أو اربعين ميلاً ،  
حق جبل ( أجا ) على السفح الذي تقع عليه حائل .

## موكب الحجاج

وكان الموكب بطول ثلاثة أميال ، مؤلفاً من نحو أربعة  
آلاف رجل ( ولم يكن هذا كل الحجاج ) ، مع عدد كبير  
من المشاة .

## مشاة الحجاج

وفي المقدمة كان الدراويش ، يسرون مسرعين ، يخرون  
تقريبا ، أذس فذرون متوحشون ، ولكمهم لطيفون ،  
ومستعدون لتبادل الحديث . لو كانوا يعرفون العربية ، ثم  
بجموعة من الناس في ملابس محتومة ، يشون بدافع الورع ،  
رجل بعمامة خضراء ضخمة اعتقد أنه افندي ، وشاب نحيف ،  
حسن المنظر ، قد يكون من الكتبة أو مساعد صاحب دكان ،  
يقرا في قرطاس ملفوف بشي . وآخرون يحملون في ايديهم  
زمزميات من الجلد تحتمي على ماء وضوئهم ، الذي يقفون بين  
آونة وأخرى ليقوموا به . وأحيانا يغنون أو يرددون أدعية

كل هؤلاء المتعبين خشون معنا ، لا يردون إذا حينئذ ،  
ويسقطون في الفزع إذا اقتربت منهم الكلاب خشية أن تمسهم  
فتدنسهم . وقف واحد منهم ، اثشاب ذو القوطاس الملفوف ،  
هذا الصباح عند دارنا ليدفئ يديه ، فقد منا له كوبا من القهوة ،  
ولكنه قال : انه قد افطر ، واستدار لينحدث إلى الخدم ،  
رملاته السليخ ، غير ان الخدم أخبروه أن ينصرف ، لأن  
رفض فمجان من القهوة عند العرب يعتبر اهانة ، وتكاد تكون  
معاداة لاعلان حرب ، ان العرب لا يفهمون تعصب الشيعة  
الفرس الديني .

## الموكب . . والعلم الرشيدان :

وخلف هؤلاء المرعين في المقدمة يأتي ( البيرق ) محمولا في وسط جماعة تغطي هجبا عليها حل ، وتنتهي بسرعة . هذه العلاقات الجميلة لها معاطف كالاطلس . وعيون كميون الفزلان ، وحركة رشقة يمجرجعها الوصف حق اخصان العربي ليس له مثل منظر الجمال الكريمة الاصل ، انها تعرف بـ ( النائمة ) لان ثمره قد يذهب في النوم وهو ركب عليها دون أدنى هزة ترجعه .

و ( البيرق ) وهو لواء ابن رشيد ، مربع من الخيزر الأرجواني ذو حافة خضراء بتوسطه شعار أبيض . ويقوم بحمله خادم على هجين طويل ، وعادة يطوى جزئيا أثناء السير ، و ( عنبر ) أمير الحج لزنجي غالبا ما يصاحب هذه المجموعة وانه مهر صغير أبيض بسوسه عبد يسير وراه لم نره راكبا .

وخلف ( البيرق ) يأتي جمع الحجاج ، كل اثنين يركبان جملا أحياء ، وعلى الجمل أحياء صندوقان من كل جهة . يضيان الاثاث . والجمال يملكها البدو ، هم غالبا من شمر ، وكثير منهم من الغير ، أو الشرارات أو ( الحويسات ) ويسيروا وراء جماهم مشيا على الاقدام ، وهم في خصام دائم مع الحجاج ، الا أنه لو وصل الامر إلى الاشتباك فان شرطة ابن رشيد الهجاة تتدخل ، وتنتهي الخصومة بطريقة مختصرة .



## بين الفارسي .. وبين الحمل !

والفارسي ، وهو يركب جملاً أعظم منظر في العالم مشير  
للسخرية . فهو يصر على أن يركب مدلياً رجله على الجانبين  
ويبدر أنه غير قادر على الإطلاق أن يفهم طباع ( اخوان )  
الذي يركبه . وهو يتحدث اليه بصوته النشار بلفظ لا يمكن  
أبدًا لجمال عربي أن يفهمها ، والنكات التي يطلقها المرء على  
الفرس لا تنقطع قط من الصباح حتى المساء .

## وصف المحمل ( الهودج )

وأحسن طبقات الحجاج ، وطبعا جميع النساء عدا الفقيرات ،  
يسافرون على محامل - ملال من القش على كل حمل منها  
اثنان - مظانة ، مثل عربة التاجر ستارة زرقاء او حمراء ،  
شخص او اثنان يملكان ( تختروايات ) ، وهي معدات اكثر  
تكلفة ، ونحتاج الى بغلين - و جملين لملها - واحداً من  
الامام وآخر من الخلف ، وفي أي من هذين الوسيطتين يمكن  
المسافر ان يقعد القرفصاء او يتمدد لينام ، والجمال التي تختار  
لحمل المحامل قوية ، ذات خطوط مستوية ، وبعض هذه ( الهودج )  
المردوجة مهيأة بعناية ورشاقة بالسجاد الفارسية الفاخرة ، ويقود  
الجمال سائق موثوق به ، ويسير الخدم أحياناً على جانبيه (الجمال) ،  
ويحتفظ احد الحجاج برجل يمشي أمامه يحمل ( نارجية )

يسخن منها بواسطة انبوبة طويلة ، وهو حارس في (الهودج)  
ويوجد عدد من الجبول - ربما ستة . ويسمى احدها (خيلان  
حرقان ؟ ) اشتراه منذ يومين حاج عني من بدوي من شمر -  
أحد الحرس . ويبدو ان هذا الحصان كريم الأصل . طيفاً له  
يستطيع الحكم عليه من رأسه وذنبه ، وارباعه ، وبقيّة جسمه  
يخفيه (بغلان ؟ ) أو سرج للحمل - مزير وأخسى ، وعليه  
يركب مالكة الجند . ولم أر شيئاً آخر يستحق الذكر

تتابع النوكب أمامنا بينما كنا حائسين على قل (السبيلة)  
فوق رؤسهم تماماً .

## عجائب من أصل المدينة

عرفنا بعض الناس - حجازيين من المدينة - الذين أتوا  
اليوم إلى خيمتنا وجلسوا بمودة لشرب القهوة معنا . والحجاريون ،  
وهم أهم معدودون عرباً خلصاً ، سود كالزنج قديماً ، دور  
ملاح قبيلة دنيئة ، لا تشبه قط ملاح شمر والمناصر القحّة  
التي شهدناها . وهم يفتقرون أيضاً إلى الكرامة ولهم حصة  
غير حسنة ، في هذا الجزء من بلاد العرب .

## هديت مع شيخ الحرم المدني

وكان هؤلاء أناساً معروفين . ورنيتهم ، (صالح بن

بنجى ؟ ) هو سادون المسجد الكبير في المدينة ، وهو الآن  
 مسافر إلى دارم لجمع الصدقات . وقد أخبرنا أنه ، مع عزمه  
 التام على أن يصدقنا هنا ويشرب قهوتنا لا يستطيع أن  
 ينصعبنا بالذهاب إلى المدينة . لا لأن ليس للإنجليز كانكلير  
 صيت حسن ، ولكن لأنه يخالف القاعدة . ( لم يسمح لفير  
 المسلمين بدخول المدينة ) فإذا جئنا كسطين ، فذلك حسن ،  
 أما كنتارى فقير مكن - أنه هو نفسه سيكون أول من  
 يحاول أن يتم موتنا . لقد وحدوا يهود في السنة الماضية في  
 المدينة فأعدموه ، وغضب الناس جداً لأن السلطان أرسل  
 مهندساً ( افرنجياً ) ليقيم بمع المنطقة ، وأشاع أنه كان مسلماً .  
 وتطبق القاعدة بالنسبة للمدينتين المقدستين ، مكة والمدينة ،  
 وليس لبقية البلاد .

والمسلمون من رعايا الملكة ( فكتوريا ملكة إنجلترا ) الذين  
 يأتون من الهند يستقبلون دائماً امتحاناً حسناً ؛ حتى ولو كانوا  
 شيعية ) ، وكذلك منكون لو أسلنا .

والفرس ، وإن علمهم الحجازيون يتسامح ، مكروهون  
 كفرس ، ورئاسة ، وكثيراً ما يضربون في المدينة . وهو ،  
 ( أي صالح ) كان ذاهباً ليجمع منهم نفوداً ، وكانهم أغبياء  
 إلى الدرجة التي بمطوبه إياها ، إلا أنه لم يحرص على مرافقتهم .  
 أنه حالاً سبافر معنا . وقد شتقي في هذه الجولة خلال  
 فارس . فنيء واحد لم يستطيع فهمه عن حكومة البريطانيين ،

هو ما هي مصالحها الدخوية في تدخلها في تجارة الرقيق ؟  
 قضاها مع القسوة، ولكنه أصر على ألا قسوة فيها ومأل:  
 : من الذي رأى ربحاً تمام معاملته ؟ لم يستطع أن يقول  
 إلا رأيته ذلك في بلاد العرب ، وحققاً به الشيء مشهور أن  
 العبيد عند العرب بالأعداد المائتين أكثر من كونهم خدماً  
 وكان عبيد أن نوصي أن العبيد أميئت معاملتهم في اقطار  
 أخرى ، ولكن ما أن ( صالح ) ظل غير مقتنع ، فانت  
 منقطعاً فقط إلى خلع إلى أن انتهى إلى ملاحظة عامة ،  
 وهي أن هذا التدخل في تجارة الرقيق هو ( شغل حكومة ) ،  
 وليس من شؤنا ، وبما أنه مطلع اطلاعاً لا بأمر به على ما  
 كان يجري في العالم فقد سمع عن الحرب الروسية ، ولو أنه لم  
 سمع كل الظروف المتعلقة بانتهائها ، وانشارل عن ( فيروز )  
 التي أشار إليها على أن السلطان أعطها كذا بحشيش الملكة  
 التكميل ، وكانت آخر كلماته ( الكلام بصراحة أحسن ،  
 هذا أنا صدقكم ، لكن ، نذكروا ، ليس في المدينة ، الأمر  
 يتعلق بالدين ) .

## من ( هائل ) إلى ( الفرات )

« تعالى ، باعيرها ، فلنذهب إلى الفرات » .

ميجور

٦ فبراير : ( ١٨٧٩ م ) .

نحن متعبون من تمكيد الحجاج ، وفوق ذلك ، لا نخرج من

أن نرى ابن الرشيد الذي يتوقع وصوله اليوم ، مرة أخرى .  
 انها قاعدة طيبة لا تتجاوز اقامتك الترحيب بك ، وأن تذهب  
 عندما تكون قد قلت كلمة الوداع ، وهكذا ، عندما لم نجد  
 أية شارة للتحرك في معسكر الحجاج هذا الصباح ، قررنا أن  
 نسير بدوهم . اننا لم نذهب بعيداً بعد ، حقاً ، فمن الأرض  
 العالية حيث نقيم نستطيع أن نرى دخان المعسكر يرتفع في  
 طرف السهل ، ويرجد كلاً وفير هنا .

## (بقعاء) أو (طيبة اسم)

ولدينا منظر رقيق واسع الى الجنوب والعرب جبل  
 وحلدية ، في اتجاه الجنوب ما ، وجبل « أجا » الى الغرب  
 بجنوب ، وحائل على بعد اربعين ميلاً تقريباً ، ولى الشمال  
 النفود ، وخلفنا من الشرق الى السلسلة التي فوق نخيلا ،  
 نستطيع ان نتصفح سبعة اوسعة اميال ، مع  
 وحة ( بقعاء ) او ( طيبة اسم ) - طاب اسمها - حول  
 شواطئها . لقد كان الهل يسمى دائماً ( بقعاء ) ، هكذا آخرنا ،  
 حق سنوات قليلة ، حب ظن ان الاسم كان سيء الحظ ، أو غير ،  
 ولو انني لا استطيع ان افهم تماماً لماذا ، لأن الكلمة تعني  
 المكان حيث يمكن ان يجمع الماء .

## لحم ارانب يريه . . على ضوء القمر

طيرنا صقراً اليوم ، وبعد مرة او مرتين من خيبة الأمل

قبض لنا على ارنب بري . ان الوديان مليئة بالارانب البرية ،  
ولكن الكلاب لا تستطيع رؤيتها في الاجات العالية ، وكان  
هذا هو الوحيد الذي انطلق في المكشوف . خيمنا في وقت  
مكر ، وانما لننعم بالعزلة . سيكون القمر مكتنفاً الليلة ،  
وانه ليدفع الى التفكير ، كم من ضوئه قد ذهب مدى التأخير ،  
ان القمر ذو قائدة قليلة للسفر بعد ان يكتمل .

٢ فبراير ( ١٨٨٠م )

مع ننا لم نحرك خيمنا اليوم ، فقد ركبنا طويلاً ، وبلغنا  
دميدا حتى قرية ( طيبة اسم ) ، التي هي جديرة بالمشاهدة ،  
انها مكان عريب ، يشبه ( جبة ) فيما يتعلق بالموقع . حقاً ،  
يبدو محتملاً ان معظم مدن نجد تشترك في هذا الملح ، ذلك  
ان تقع في تحاويف ينصرف اليها نحوها ، كما انه في موقع  
كهذا يمكن ان تحفر الابار بدون جهد كبير ، مثل جبة ،  
فطيبة اسم سبخة ، ولكن الاخيرة في جلتها واحة اكثر  
اهمية ، لأن بساتين النخيل تصل تقريبا الى كل ما حوالى  
البحيرة ، ولو انها ليست متصلة تماماً ، فمن المهم ان لها امتداد  
يبلغ اربعة او خمسة اميال . وتبدو البيوت متناثرة في مجموعات  
على امتداد هذا الطول ، وليس هناك مدينة خاصة <sup>(١)</sup> .

(١) كانت طيبة اسم هي المكان الذي هو اليه عدد من سعود منذ عشر  
سنين حين أخرجه أخوه من المنار . ومنها أرسل تلك الرسالة القادرة ان  
مدحت بشا في بغداد التي أتت بالترك الى الاحياء وحطمت الامبراطورية  
الرومانية وهناك وجدت بقع من رمل النفود مع عادر النفود الأخضر . (الأصل)

## ( جيولوجية ) اقليم الجبل

( ان جيولوجية ) الاقليم هي أكثر ما يتبر لاهتمام ففي  
طرف السبخة ينشق الصخر الرملي من حروف عربية رائعة ،  
ليس أكثر من ٥٠ قدماً ارتفاعاً ) ولكنها ذات شكل مهيب  
بعضها ، وقد اتخذ شكل القطر ( نبات اشروم ) يكشف  
أن السبخة كانت حتماً في زمن ما بحيرة هامة ، بدلا من الشبه  
جاف لبحيرة كما هي الان . فمنا أكبر هذه ، فوجدناها  
اربعين قدماً طولاً باتساع ٢٥ قدماً في اعلاها ، يحدع ذي خمسة  
امدام فقط ، والكتلة كلها ترسو على قاعدة عالية . ووجدت  
الصخور الاخرى كما لو كانت قد بردت فجاء وهي في حالة  
غليان وحارة حمراء ، وتجمعت الفقاعات عندما صمدت  
كانت هناك الواح عريضة من الصخر ذات لون وردي مثل  
القشدة بالفراولة ( كريم فراولة ) أكثر من صبب القشدة فيها  
ولما تمزج بعد ، مرققة بيون أحمر فاتح وأبيض . وهما اللسان داما  
عليها ، مع تجمعات من النخيل الوحشي ، ونباتات الطرفاء مع  
بركة أو بركتين من الماء المر .

## واحدة ( بقعاء )

والسبخة ، ولو أنها جافة تماماً ، بدت مثل بحيرة مكذا  
كان السراب كاملاً من الماء الاررق الضافي بدون توج تمكس

التخيل والميوت على الشط المقابل . دونا الى بعض من هذه ، فوجدنا ساقين حبة ، ومرارح حبة مع بقع من الشمير الاحمر ثم في الخارج ، كانت هذه ثروي من آثار عبقها حوالي ١٥ قدماً ذات ماء طيب ، متع الناس منه من اجل أمهارنا القسقى . مررنا ولكننا لم نذهب داخل قصر المبدن الكبير الذي يملكه ابن رشيد ، حيث كان بضعة (دررن او هكذا) من دروايش الحج يتكلمون حوله - سألونا عن الاحبار ما اذا كان الامير قد جاء ، وما اذا كان الحاج ما زالوا منتظرين . ولم يكن معظم هؤلاء من دروايش الحرم ، ولو انهم شعبة ، بل من بغداد ومشهد على ناس من العنصر التركي .

## ابن الابل . . رسالة من الامير

وفي طريق عودتنا ، مررنا بجماعة من بسو شر ، يأتون بجمعهم للقب من النفود ، وهو قريب من هذا قدموا لنا بعضاً من اللبن لشرب ، اول ما دق هذا العام . كانت هناك سدة مهم . قابلت ايضاً رجلاً وحيداً على غايل ربيعته . واندنى محمد ملاحظة عن هذا الحيوان كانت نوعاً من عارية عن الشاء وعند ذلك وضع المالك في اودراه عظيم انه كانت اذنت غدهان . احسن ملالة لمجانس في بلاد العرب ، وان محمد لو قدم له مائة حبة لم داعها ، وانها كانت الرحلة التي كان ابن رشيد يفتي في مهات تحتاج الى سرعه ثم هب منعداً



في خطوات ، رغم انها بدت شيئا لا يستحق الملاحظة ، فانها  
سرعان ما اخفته عن الانظار .

ذهب عواد وابراهيم القصير عاندين الى معسكر الحجاج من  
اجل الماء ، وعادرا يحملون اخباراً تقول : ان الامير وصل بالفعل  
ورسالة منه ، مؤداها ان ادا ذهبنا الى آبار ( الشيبة ) فسوف  
يقابلنا هناك



## القسم الأخير : عن الخيل

( هذا هو الفصل الثاني عشر . نصح فيه الكتاتبة  
مشاهداتها عن الخيل في نجد -

وموضوع الخيل كان هو الدافع الأول للقيام بالرحلة )  
وقد أنشأت الكتاتبة اصطبلًا ( مزرعة ) في لندن ، لتربية  
الحبوك العربية . لا يزال موجوداً ) .

## شجرة خيل ابن رشيد

« ولم اجد فيها هذه الاشكال التي توقعت ان  
اجدها في موطن زيد الخيل » - غراماني<sup>(١)</sup>

وعدت بفصل عن الخيل التي رأينا في حائل ، وقد يكون  
حسناً أن أفي به هنا .

ان مزرعة ابن رشيد لقريبة الخيل هي الآن أشهر من در  
على علم في جزيرة العرب ، وقد احتلت في تقدير الجمهور مكان  
مزرعة قبصل بن سمود التي رآها المستر بلجريف منذ سنة  
عشر عاماً في الرياض ، والتي وصفها في فقرات تصويرية أصبحت  
منذ ذلك الحين موضع اقتباس .

ويكمن السبب في انتقال التفوق هذا من العارض الى جيل  
شمر في التغييرات السياسية التي حدثت منذ ١٨٦٥ ، والتي

---

(١) كانوا غراماني رحالة اوروبي جاء في حائل سنة ١٨٦٦ هـ للبحث  
عن الخيول الأصيلة ( أنظر طرفاً من أخباره في كتاب « اكتشاف جزيرة  
العرب » ص ٢٨٨ ) ولقد اقبل من الفرس الطائي المعروف .

أخرجت رعدة واسط بلاد العرب من أيدي آل سعود  
ورضعنها في أيدي أمراء حائل .

وليس محمد بن رشيد الآن أقوى شيخ البدو فحسب ، بل  
أعنى أمير في بلاد العرب ، وهذه الصفة لديه من الوسائل أفضل  
 مما لدى الآخرين لاقتناء أحسن خيول نجد ، وما كان هو  
ليحمل هذه .

ان امتلاك أمهار أصيلة هو بين العرب دائماً رمز للقوة ،  
وبفقدان مركزهم المتفوق في نجد ، فقد آل سعود سيطرتهم على  
السوق ، ومالت حظيرتهم لتربية الخيل الى التضاؤل ، وان  
نزاع الاخوين عداثة وسعود ، ابني فيصل ، عند موت أبيهما ،  
وانتصاراتها وحروبها المتبادلة في العاصمة ، والتدمير الذي  
أنزله الترك بهما ، كل ذلك حطّم مؤسسة اعتمدت على الثروة  
والأمن والطمانينة من أجل صيانتها ، وفي اللحظة الحاضرة اذا  
صح ما نتحدث به انتقارير الشائمة ، لا يكاد الجزء الذي بقي في  
الحظيرة القديمة بوازي الحس وانتقلت البقية الى أيدي أخرى .

## خيل آل سعود :

أما ان حظيرة فيصل لتربية الخيل في أيامها كانت أحسن  
حظيرة في بلاد العرب فذلك محتمل ، وقد تكون - لعدم

وجود جميع الآن هناك - مرة مساوية ، الا أن هناك سماً  
صغيراً ، فيما يبدو ، لافتراض انها اختلفت في أي شيء فيها  
عدا الدرجة عما رأينا نحن بأنفسنا ، او ان الحيوانات المكونة  
له كانت متميزة عن تلك التي لا تزال تمتلكها مختلف قبائل  
البدو في نجد . على العكس ، كل تحريقاتنا ( ولم ندخر مناسبة  
لطرح اسئلة ) قبل الى أن تبين ان من خطأ ان نفترض أن  
الحيل التي يحتفظ بها أمير نوايا كانت من سلالة خاصة ،  
حفوظ عليها في مدن العارض منذ أرملة مفروقة في القدم ،  
أو انها كانت مختلفة بأي شكل عن تلك التي تربى في أي  
مكان آخر ، في أواسط بلاد العرب . كانت ، كما أكد له  
مراراً ، مجموعة جلبت من قبائل شتى من (الفود) - مجموعة  
رفيعة ، بدون شك ، الا أنها مع ذلك مجموعة ، كل بدوي  
سألناه ضحك من فكرة كونها سلالة نجدية خاصة ، توجد  
فقط في العارض . في معرض الاجابة على أسئلتنا ، اخبرنا ان  
مسموئين من الرياض في أيام فيصل كانوا دائماً في بحث عن  
الأمهار حيثما أمكنهم وجودها ، وان الأمير كثيراً ما قام  
بنزول ضد هذه القبيلة أو تلك ، دون أي غرض آخر غير  
حيازة حيوان معين من سلالة معينة . والقبيلة التي حصل منها على  
أحسن السلالات : ( حمداني السمرى ) او ( كميلان الكرش )  
كانت (مططير) أحياناً تسمى ( الدوشان ) ، بينما أمده بنو  
خالد ، والظفير ، وشمر ، وحتى عنزة بعينات في مناسبات .  
وما يزال عبد الله بن سعود ، خليفته ، يحتفظ بقليل منها .

## انتقال الخيل الى آل رشيد

ولكن معظم المجموعة قد تشتت ، انتقل الكثير من أحسنها إلى ايدي ( متعب ) و ( بندر ) ملفي محمد بن رشيد ويتبع محمد نفسه بدقة نفس النظام ، باستثناء انه لا يأخذ بالقوة ، بل بالثمن ، فهو يقوم بعمليات الشراء من جميع القبائل المحيطة ، ولو انه يربى في المدينة ، فجموعته باستمرار تجد مدداً من الخارج . ولو لم تكن هذه هي الحال ، فسرعان ما كانت ستدهور ، لأن الخيل التي تربى في المدينة في بلاد العرب ، وهي نظم في الاصطبل ، ولا تجد اي نوع من التمرين ، نادراً ما تكون صالحة للامور العظيمة .

## س١٠ عن تربية الخيل

ان هناك فكرة خاطئة في ان الواحات ، مثل واحات جبل شمر والعارض ، هي مواقع موافقة بصفة خاصة لتربية الخيل ، وان انقفار الرملية خارجها لا تحتوي على مراعي . ولكن العكس تماماً هو واقع الحال فالواحات التي تقوم فيها المدن لا تنتج شيئاً غير التمر ، ومنتجات البساتين ، كلا وليس هناك نصل واحد من الحشيش ، أو حتى عذق واحد من كلاً الابل فيما يحاورها .

وأهل المدن يحتفون بحروافث باستثناء قلل من الجمال  
 نستعمل لتج اياه من الآبار ، والأحجار تجدهم أو هناك .  
 حتى هذه يجب ان تعلق م حنطة أو قمراً ، وهذا ما لا  
 يطبقه إلا الأغنياء . إن حطب ثوب مقصور على لأمراء فقط ،  
 وحتى أغنياء المدن يتوهمون سفارهم من قرية إلى أخرى  
 على أقدامهم . وفي الرحلات الطويلة يستخدم لجنائب يؤتى بها  
 من الصحراء ، فإذا الغرض ، وهي إما يملكها البدو أو يتركها  
 أهل المدن لديهم مشاطرة . ومن جهة أخرى ، يحتوي النفود  
 على كلاً وغير ، ليس فقط من أهل لابل ، بل أيضاً من أجل  
 الأعمام والحطب ، وفي النفود تربى كل هذه .

وإن رشيد يذهب كل ربيع مع معظم مواشيه إلى الصحراء  
 وية كها خلال حظه من الصيف مع القبائل ، يحتفظ فقط ببعض  
 الحيوانات للاستعمال في المدينة ، وأمر لا يمكن الإصرار عليه  
 يشنة : أن هضبة نجد العليا ، حيث توجد المدن والقرى ، قفر  
 مسخري يكاد يكون خالياً تماماً من النباتات ، بينما يقدم الأفراد  
 مدد من السكلا لا ينفد . وإنما يحدد من القبيلة الرعوية لهذا (أي  
 النفود) الحاجة إلى الماء فقط ، فالتنطقة المسكونة محدودة  
 بالضرورة بهائرة نصف قطرها ٢٠ ميلاً حول كل بئر والآبار  
 نادرة . هذه الحقائق ، أظن ، لما تعرف حتى لأن معرفة كافية  
 لتقدر .

## وصف خيل ابن رشيد

اما بالنسبة لمجموعة ابن رشيد في حائل ، فقد نظرنا اليها اكثر من ثلاث أو أربع مرات في الاصطلات ، ورأيناها في الخارج مرة في يوم عيد ، حينما هيء كل منها ليبدو أحسن ما يكون . وتتألف الاصطلات من أربعة أفنية مكشوفة متصل بعضها ببعض ، فيها تقف الحيوانات ، وكل منها مربوط الى مدود مربع من اللبن . وهي ليست مستورة بأية طريقة ولكنها تلبس قطائف طويلة ثقيلة مثبتة الى صدورهما . وتقل الى الارض بواحد أو أكثر من أطرافها ، وليس عليها الجم . ومن حيث أن الفصل كان شتاء ، فقد كانت في أقسى حالة ممكنة .

## مظهر لا ينم عن مخبر

وكانت اولى انطباعاتنا ، كما ذكرت ، خيبة أمل . وهي إن الخيل عندما تكون في حائل لا يحري عليها تدريب منتظم ، وتبقى كما يبدو أسابيع مجتمعة مربوطة هكذا ، الا دقائق قليلة في المساء عندما تؤخذ تشرب . وتغلف في القالب شعيراً جافاً في الربيع فقط ، لأسابيع قليلة ، فأكل حنطة خضراء تزرع لهذا الغرض ، وبعد ذلك تؤخذ الى النفود في غزوات . وأنه لأمر مدهش انها تستطيع القيام بأعمالها تحت ظروف كهذه . كان أول فناء ، يدخله المرء في مروره خلال الاصطلات ،



بضم - عندما رأيناه - بين ٢٥ الى ٣٠ مهراً. وكان في الثاني ٢٥ أخرى ، موضوعة تحت طرف معين من أجل استخدامها في حال الضرورة ، ولكن حتى هذه تلقى قليلا جدا من التعرير. وكما نقف هناك في الفناء ، محولة وشعثاء ، ليس لها الا قليل من تلك الروح التي يتوقع المرء أن يجدها في الخيصل الكريمة الأصل ، والمرء بحاجة الى قدر كبير من الخيال لينظر اليها باعتبارها حقاً من تلك السلالة العربية التي ليس ما يفوقها . ولقد وقفا في غصا ، وخطا شائع جداً ، ان نحكم على الخيل بحالتها ، لأن هذه ، في حالة امتطائها وانطلاقها ، تغيرت هيئتها في النمو

ويمكن ان اقدم هنا وصفاً لحيوات معينة ، كتب بعد احدي رباراتنا للحظيرة ، وهذا قد يقدم فكرة عنها افضل من أية ملاحظات عامة . في مذكراتي اجد ما يلي :

## من أنواع الخيل

### ١ - كحيلة الكروش :

شقران ، ذات ثلاث قوائم بيض ( مطلق البعين ) ، ١٤ « قبضة » (١) او ١١ « ، ولكنها قوية جداً ، رأسها أبسط من معظم ما هنا - سوف يعتبر رأساً خيلاً في إنجلترا - هزيلة وضيقة نوعاً ما . لها عنق ثقيل جداً ، إلا ان كتفها رقيق

(١) مقياس طول ١٠ سم .

حداً ، كاهلهم عال ، حوافر كالصلب ، وحررة خشة حتماً ،  
شعر كثير في الكعوب ، عندما يرام المزمع في الخطيرة بيل  
الى القول ان ذات نفية اكثر منها ذات مران ، ولو انها  
مؤثرة ، وعندما يكون المزمع على ظهرها ، يجب ان يكون  
المزمع عديلاً ان لم ينجح ، انها درس محمد المنقذ ، وهي من  
افضل سلالة في نجد ، حصل محمد على هذه السلالة من امصلات  
ابن سعود من رياض ، ولكن في الاصل جاءت من مطير .

## ٢ - حمدانية سمراء :

كثيت ، من مجموعة ابن سعود ايضاً ، رأس رشيق ، عدير  
انه لا ميزة اخرى هناك ملحوظة ، هذا المهر من نفس  
سلالة مهران شريفة ، لكن اقل منها في الدرجة

## ٣ - صفلاوية شفي :

غبراء ، في غاية البساطة ، كما تبدو لأول رحلة ، واهنة  
الاطراف ، ذات رأس لا يثير الاعجاب بآية حال ، الا انها  
ذات كتفين رفيعين . وهذه الصفلاوية ذات جمعة كبيرة جداً ،  
وتولى اهتماماً خاصاً ، لأخيرة من بقي من فصيلتها ، الخلف  
الوحيد للفرس الشهيرة التي اشتراها عمار دشا ، الذي ارسل  
عربة تجرها البغال من مصر الى نجد لأخذها ، لأنها كانت  
عجوزاً ، وغير قادرة على السفر سيراً ، والقصة معروفة تماماً  
هنا ، ورويت لنا بالضبط كما سمعناها في الشمال ، بزيادة ان

مهرة ابن رشيد هذه هي المثلة الوحيدة للعلالة الباقية في جزيرة العرب<sup>(١)</sup>.

#### ٤ - كحيلة عجوز :

مهرة سوداء ، هادئة ، ١٤١٢ قنضة ، احدى قوائمها بيضاء ، رائعة في كل جزء منها ، الكثف ، والجانبان ، وكل جسمها ، ارشق رأس واسع عين في كل الموجود هنا . لها حركة مثالية ، رأسها وذيلها مرتفعان إلى درجة الجمال ، تذكر بهر ( بضيان من مرشد ) ولكن رأسها أرفع .

انها ملك حمود الذي هو فخور بها ، ويخبرنا أنها جاءت من جبرة شمر وانها لما جاءت لنا ان نجد لها مهر من بلاد ما بين النهرين ، ولكنه يروى لنا ان نادل الخيل بين شمر الجنوبيين وشمر الشماليين ليس بادرة بأية حال .

#### ٥ - كحيلة عجوز :

بلون بني غامق ، لا يبيض فيها عدا برصة واحدة في ما يعبر الخافر مباشرة ، رأس جميل ، ومظهر يدل على الاصابة ، ربما كانت افضل بالنسبة للعدو هنا ، ولو انها افضل قوة من

---

(١) يدل ان صلاوية عباس باشا ألحيت فلوب في مصر . احدهما مات والآخر أهدى ال ملك ايطاليا القرو . رندى ملك ايطاليا الخال خيل من نسله (الأصل).

حصان الأمير الكعبت ومن مهر حمود . ومن الصمب أن  
تختار بين الثلاثة .

أحسن حصان بين الثمانية جياذ .

سويان صباح : ذو قوة كبيرة ، رأس كبير وممتاز ، انه  
يذكرنا بمهر فارس جبر الذي هو من نفس السلالة ، من المحتمل  
أن بينها صلة نسب قوية ، فله نفس الاطراف ، المقدمة كاملة ،  
المؤخرة قوية ولو أنها أقل تميزا . وهو ، على أية حال ، من  
نتائج نجد .

مقلدي جدران :

أغير ، من ابن نديري من جسة عنزة ، عينة بانسة لتلك  
السلالة العظيمة ، ولكن السدو يحترمونه لأنه هو الغالب  
هنا ، ولو أنهم ليس لديهم في نجد مقلوبة جدران الخالصة .

## خيـل ( عنزة ) و خيـل نجد

وانه أمر مثير للاهتمام ان نجد هذا الحصان يحظى بالتقدير  
هنا ، لان الواقع يبرهن على أن خيل ( عنزة ) تحتل مركزا  
كبيرا في النفوس في نجد . وكلما ازدادت رؤية المرء هنا لخيـل  
نجد ، ازداد اقتناعا بتفوق خيـل ( عنزة ) من ناحية السرعة .  
ومع ان كل انسان هنا فخور بالخيـل النجدية ، ، فإنه يبدو  
كأمر معترف به ، أن خيـل عنزة تبرزها في هذه الساحة .

« ان مهرينا ( المعزيين ) ينظر اليها كآيتين في السرعة ،  
وبمقارنة ما نرى هنا ، بما رأينا في العام الماضي في الشمال ،  
قاول مهي . يخطر على بالنا أنت هذه خيل صغيرة « يوفي » ،  
وتلك خيل حقة . وان الفرق الحقيقي هو ليس كثيرا في  
الارتفاع ، ولو انه من المحتم أن هناك ثلاث بوصات في المتوسط ،  
كما هو في الشكل ، الذي يولد هذا الانطباع . فخيول نجد  
كقاعدة ، عنافها في احتمالها أقصر ، وكذلك أجسامها ، وتقتصر  
كثيرا عن خيل عنزة . ثم - ولو أن أكتافها بدوت شك  
صالحة وكواهلها أعلى من تلك التي براها المرء في الشمال - فإن  
مؤخرتها قصيرة ، ولو لم يكن وضع الذيل بشكل فريد  
ورائع ، لكنت بالتأكيد تفتقر الى ميزة . يبدو أن اطرافها  
طيبة الى حد بعيد ، ولكننا لم نر في أي منها ذلك الخط  
الرائع في الرجل الخلفية حتى الركبة الذي يجذب انتباهك  
في خيل عنزة الأصيلة .

أما بالنسبة لحواقرها فمن الصعب أن نصدر حكما ، فإن  
طول الوقوف من غير تدريب ، قد جعل حواقر أمهار الأمير  
تتمو نموا كبيرا . أما أعرافها وأذيالها ، فإن نحن بما كان المرء  
يتوقع .

« وفي رؤوسها ، على أية حال ، يوجد بالتأكيد تفوق عام  
على أمهار عنزة ، على الأقل في النقط التي يكبرها العرب  
غالباً ولقد جذبت انتباهنا عندما رأيناها مباشرة ، بالفرق » .

## وصف دقيق للجسام الخيل

ومن حيث أنه يمكنني ان افترض باطمئنان الى ان قليلين هم الأشخاص خارج بلاد العرب لديهم فكرة عما هي الصفات المعترة هناك مناسبة في رأس حصان ، فسوف أقدم هنا وصفا لها :

يجب ، قبل كل شيء ، ان يكون الرأس كبيرا ، لا صغيرا فالرأس الصغير بكرمه العرب بصفة خاصة ، ولكن يجب ان يكون اخيجم جميعه في الاجزاء العليا من الجمجمة . ويجب ان يكون هناك مسافة كبيرة بين الاذنين والعينين ، وبين العين الواحدة والاخرى ، ولو انه ليس بين الاذنين .

ويجب ، فوق ذلك ، ان تكون الجبهة وكل الجزء الذي بين العينين وما تحتهما محدبا ، وأن تكون العينان ذاتهما تقفان نوعا ما ويحوط ، . ولكن يجب ألا يكون هناك امتلاء حول تنوء العظام ، وكل عظم يجب ان يكون حسدا ، فالجبهة المسطحة ليست محبوبة .

ويجب ان يكون ما حول العينين خاليا من الشعر ، حتي تظهر الادمة السوداء ، وما حول العينين تماما يجب ان يكون بصفة خاصة أسود وصعبلا وعظم الخد يجب ان يكون عميقا ونحيفا ، وعظم الفك ذ علامة واضحة .

ثم يجب ان يضيق الوجه فجأة وينحدر الى أسفل حتى  
ينتهي تقريباً الى طرف دقيق . ولكن ليس على أية حدة الى  
نلك الدرجة كما يجد المرء في حصان السباق الانكليزي ، الذي  
يبدو ان القطاع الجانبي لوجهه « بروفيل » ، وينتهي بالأنف ،  
ولكن الى طرف الشفة . والأنف في حالة السكون .

يجب ان تكون منبسطة مع الوجه ، يبدو فيها ما هو  
اكبر قليلاً من شق طولي . وطيفة ومجمدة .

وكذلك يجب ان يكون الفم ، الذي يجب ان تكون  
الشفة السفلى اطول من العليا . « مثل شفة الجمل » كما يقول  
المدور . ويجب ان تكون الادان ، خاصة في المهر ، طويلتين ،  
رفيعتين ومرسومتين باقافة ، كأذني عرل .

ويجب أن يلاحظ أن الرأس والذيل هما النقطتان اللتان  
ينظر اليهما العرب بعين الاعتبار ، عند الحكم على حصان ، كما  
أنهم يفتنون انهم يستطيعونهما أن يكتفوا آكد العلامات على  
سلالة .

وذبول خيل لجد غربية كرووسها ، وأساسية بالنسبة لجمالها .  
ومها اختلفت الصفات الاخرى ، فكل حصان في حائل  
يتخذ ذنبه نفس الوضع . وفي حالة السكون يكون أشبه بذيل  
حصان متايل ، لا كما وصف بأنه . « منتصب في قوس كامل » ،  
وفي أثناء الحركة يرتفع الذيل عالياً في الجو ، ويبدو كما لو  
كان يستحيل ان ينخفض تحت أية ظروف

وصرح محمد بن عروج بوضوح أن هذه الظاهرة كانت بفعل  
الفن ، جزئياً على الأقل .

وأكد لنا أن الفلو قبل أن يصير عمره ساعة بمقد ذيله الى  
الخلف على عصا ، ويحدث الالتواء نتيجة دائمة . ولكن هذا  
يبدو محتمل ، وهو على أية حال قل أن يؤثر على وضع الذيل  
عند العدو .

## ألوان الخيل الرشيديّة

وفيا يتعلق بلون المائة من الخيل في اسطبلات حائل ،  
فكان هناك حوالي الأربعين غراء أو بيضاء على الأصح ،  
وثلاثون كميّتا ، وعشرون شفراء ، والبقية ذات لون بني لم نر  
أية منها ذات لون أسود حقيقي ، وبالطبع لا توجد هناك  
سمراوات أو بلفاء ، أو شهباء ، لأن هذه ليست ألوان عربية .  
سألت الأمير أحد الأيام : أي الألوان تفضل في اسكترام ؟ ،  
وعندما أخبرناه أنه اللون الكميّت أو الأشقر ، وافق معنا  
تماماً . كل العرب تقريباً يفضلون الكميّت ذا النقط السوداء ،  
ولو أن النقط المحض مع الادمّة السوداء والخوافر السوداء  
محبوب أيضاً . وفي الكميّت أو الأشقر ، ثلاث أطراف بيض  
والطرف الأمامي أسود ، أمر لا اعترض عليه . إلا أن  
الاعتبار كقاعدة ، لا يؤخذ في الاعتبار كثيراً في حائل ،



لأن السلافة هناك كما هو الحال في أي مكان آخر في بلاد العرب هي الكل في الكل .

## سوء التربية في اصطبلات ابن رشيد

« وفي جانب الحيوانات الكلمة النمو يضم فناء ابن رشيد ثلاثين أو أربعين فلوا ، وحولها ، مخلوقات جميلة ولكنها تعاني سببا ومائة بشكل مربع . والافلاذ المولودة في الصحراء بائة بما فيه الكفاية ، أما هذه المولودة في المدينة فلها مظهر عليل يس . ولكونها مربوطة من قدمها طول اليوم ، يبدو أنها قد خارت عزيمتها تماما ، ولا تن أي شيء من المسرح الذي يجب أن يكون فيها في مثل هذا السن

وأن استئناسها ، « كاستئناس لدوحس والوحوش » بصدملك ان نراه . ويخبرنا الامير انه يرسل كل ربيع مائة حول في الكويت على الخيل الفارسي تحت مسؤولية واحد من عبيده ، يسبها في ( بومباي ) بما يعادل مائة جنية لكل واحد منها . انها الاب طبعاً في أسوأ من حيثها ، ولكن امامها ما ينتظرها ، بضعة أشهر من الرعي في النفود قبل ان تظهر في السوق » .

« على العموم ، كلاً ما مصاب بخيبة أمل نوعاً ما به نراه هنا من كل الامهار في استبل الامير ، لا أظن أن أكثر من ثلاثة أو

أربعة تستطيع أن تبرز أية ميزة بين الجاموس ، ونحن في الواقع منزعجان فقد يقترح الأمير أن يبادلنا بشقراننا د رأس الفنداري ، التي يبدي كل انسان إعجابا عظيمها . وان فعل فسوف لا نستطيع ، ولا نستحسن ، ان نرفض .

## عن خيل ( نجد ) وندرستها : —

وفها يتعلق بخيل نجد بصفة عامة ، فالملاحظات الآتية مبنية على ما رأينا وسمعنا في حائل ، وفي أماكن أخرى من بلاد العرب .

فأولاً ، أياً كانت الحال فيها مضى ، فالخيل من أي نوع أصبحت الآن نادرة بصفة متزايدة في نجد . فقد يسافر المرء مسافة شاسعة في شبه الجزيرة بدون ان يتقابل حصاناً واحداً أو حتى بدون ان يرى آثار أقدام حصان . وفي أثناء سيرنا في النفود وفي طريق عودتنا إلى الفرات ، أخبرنا بعضنا كل آخر للانسان أو الحيوان صادفناه ، بيد أنه من وقت مفادرتنا ( الرولة ) حتى قرب ( مشهد علي ) ، لم تبهرن عشررون من هذه على ان تكون آثار خيل . والرياح بلا شك تطمس آثار الأقدام بسرعة ، ولكنها لا تستطيع ان تفعل ذلك كاملاً ، لو كان هناك عدد كبير من الحيوانات . وأخبرنا ( الكثيرون ) وهي قبيلة نجدية صليحة وفرع من ( بني خالد ) أخبرونا شيء من الاعتزاز أنهم يستطيعون ان يجهزوا عشرين فارساً ، وحتى

( مطير ) ، المشهورة بأنها اعظم من يربي الخيل الاصبه في نجد ، يقال انها تملك فقط ٤٠٠ مهر . ان الخيل هي ترف بالنسبة لبدو شبه الجزيرة وليست كما هي بالنسبة لأولئك الشماليين - ضرورة من ضرورات حياتهم اليومية . ان أسفارهم وغاراتهم وحروبهم كلها يقومون بها على الجمال ، لا على ظهور الخيل ، وعلى الاكثر يتمطي الشيخ مهرة في لحظة المعركة . ان الافتقار الى الماء في نجد سبب كاف لهذا . فالخيل هناك يحتفظ بها للمرض اكثر منه للاستعمال الفعلي ، وينظر اليها كشيء ثمين الى حد بعيد ليعرض لتخاطر غير ضرورية .

## قلعة الكمر في نجد ..

ثانياً : كل ما هنالك من خيل في ، تربي النفود . والهضاب الداخلية لا تحتوي على أي مريعى ملائم باستثناء أماكن قليلة جداً ، بينما يقدم النفود حشيشاً ، أخضر ولبناً ، على مدار السنة . و ( مطير ) ، و ( بنو خالد ) ، و ( الظفير ) ، و ( شمر ) هي الآن القائل المتبعة الرئيسية للخيل في نجد ، ولكن ( عنزة ) تعتبر انها تملك أحسن السلالات

وقد اختفت ( عنزة ) من نجد . لقد سرعت في الهجرة شمالاً منذ حوالي مائتي عام ، وقد استمرت منذ ذلك الحين ، تنتقل في هجرات متوالية ، حتى هجروا جميعاً منازلهم الأصلية .

ومن المحتمل ان الاسم الضخم الذي تحظى به - بدور شك - خيل نجد في الشرق كان الفضل فيه أساساً لمؤلاه العنزيين الذين نجحوا في تقارن هذه . كانت ( بشر عنزة ) تقيم نيموار خبير ، على الطرف الغربي لتفكود . و ( الرولة ) في جنوب الجرف ، و ( المهارات ) في أقصى الشرق .

ومن المحتمل ان هذه من بينها كانت تمون الخيل النجدية في الأزمنة الماضية الى سورية ، وبغداد ، وفارس . ومن الجائز ان بعض بطون القبيلة شقت طريقها الى الجنوب ، لأن آل معود أنفسهم من عنزة . ولذلك فمن المحتمل ان احسن ملاكات الخيل كانت ، آنذاك ، كما هو الآن في أبنهم . وإلى يومنا هذا تميز ( عنزة ) في الشمال نسل الامهار التي أحضروها معهم من نجد بكونها ( نجدية ) ، بينما يسمون نسل الامهار التي غنموها من قبائل الشمال ( شمالية ) .

## تدريب الخيل في « نجد »

ويبدو ان ادارة الخيل وتعليمها تختلف قليلاً في نجد عنها في أي مكان آخر بين العرب . الا اننا فوجئنا ان نجد الشكينة نستعمل في ( حائل ) محل الرمن البدوي . وفي البداية خيل الينا ان هذا كان تقليداً للطريقة التركية ، غير ان الأكثر احتمالاً أن تكون عادة قديمة لعرب المدن . حقا ان بدو الصحراء الكبرى ، لبسوا أقل من الترك في استعمال حلقه

الشكيمة ، ورثا كانت بعد كل شيء من مخترعات جزيرة العرب وسببها كما هي بالنسبة للفم ، فانها بالتأكيد نافعة في الركوب اختيالا ، الذي يتغنى فيه في حائل لعبة الجريد ( والمعارك الصورية ) . أما بين بدو نجد فالرسن فقط هو المستعمل .

## سباق الخيل

وعن أي شيء كالسباق ، فلم نسمع ان نسمع عنه شيئا . ومحاولات السرعة لم تمتد طرازا ، كما كانت فيما مضى ، والبراعة في الدوران وفي التثني هي الوحيدة التي لها قيمة . اما ان بعض تقاليد التمرين لا تزال توحد بين العرب ، فان الوصف الآتي لتربية فلو يثبت ذلك ، هذا الوصف قدم لنا في معرض الرد على وصفنا للسباق الانكليزي وطيول السباق ، وقد يمثل ممارسة تقليدية ، في جزيرة العرب ، تعود في قدمها الى أيام محمد ( ص ) .

### وصفة عربية لتربية فلو .

قال محدثنا : اذا احببت ان تجعل فلوا يحركي امرج من لداته ، فتذكر القواعد الآتية :

« أثناء الشهر الأول من حياته دعه يكتف بلبن امه ، فيكون كافيا له . ثم أنصف الى هذا ، اثناء الأشهر الخمسة حليباً طبيعياً من حليب الماعز ، بالقدر الذي يشربه ، ومدة

سنة أشهر اخرى اعطه حليب نياق ، والى جانب ذلك أعطه  
كبيلا من البر منقعا في الماء مدة ربع ساعة ، ويقدم اليه في  
مخللة .

« وفي العام الأول من عمره سيكون الفلأ قد فطم عن  
اللبن ، ويجب ان نطعم برأ وحشيشا ، برأ ناشفا في مخللة ،  
وحشيشا أخضر إذا وجد .

« وفي العام الثاني يجب ان يعمل ، والا فيكون غير ذي  
قيمة . فاطمعه الآن شعيراً كحصان كامل النمو ، اما في الصيف  
فاعطه أيضاً ويبدأ كل يوم عند الظهر . اصنع التريد هكذا :-  
خذ مدأ من الدقيق واخبطه في الماء جيداً بيديك ، حتى  
يبعدو الماء كالحليب ، ثم رشحه ، تاركاً رواسب الطعنين ،  
وقدم ما هو سائل الى الفلأ ليشربه .

« احرص منذ اللحظة التي يولد فيها على ان تتركه يقف في  
الشمس ، فالظل يضر بالخيول ، ولكن دعه يشرب ماء كثيراً  
عندما تشتد حرارة النهار .

« ثم يجب ان ينطى الفلأ ، ويأخذه مالكه معه الى كل  
مكان ، حتى يشاهد كل شيء ويتعلم الشجاعة . ويجب أن  
يظل دائماً تحت التدريب . ولا يبقى أبداً مدة طويلة في  
الحظيرة . ويجب ان يؤخذ في رحلة ، لأن العمل يقوي  
عضلاته .

« وفي عامه الثالث يجب ان يمرن على العدو . وعندئذ إذا  
كان أصيلاً حقاً ، فلن يسبق . يا الله ! » .

# فهرس

الصفحة

الموضوع

٨ - ٥	كلمة عن الرحلة
٤٨ - ١٢	القسم الأول : قَرَبَات المِلْح
١٣	بلدة كاف وسكانها
١٤	في ضيافة شيخ البلدة
١٦	من تاريخ كاف
١٧	تجارة كاف والزري
١٩ - ١٨	بلدة الزري - وصف البلدة وآثارها
١٨	وادي السرحان
٢١	بين القريات والجوف
٢٢	على ضفة وادي السرحان
٢٤	آبار قراقر
٢٥	صيد من الجراد والأرانب
٢٦	آبار الموجة

- ٢٨ في بطن وادي السرحان  
٢٩ سير بخوف وحذر  
٣٠ على أنغام 'مُنَن' شراري  
٣٢ طامام قليل ..  
٣٤ من حكايات محمد الدليل  
٣٥ برد ومروض  
٣٦ التبك وبشر الجراوي  
٣٧ هجوم على الكاتبة وزوجها  
٣٩ في حماية ابن شعلان  
٤٠ حسن معاملة الأعداء  
٤٢ من آثار الهجوم  
٤٤ الحماد : بين رادي السرحان والجوف  
٤٦ حديث عن الشرارات  
٤٧ الوصول الى الجوف

# ٤٩ - ٩٦ القسم الثاني : بلاد الجوف

- ٥٠ حوض الجوف كان بحراً  
٥١ بلدة الجوف وصفها  
٥٢ أخلاق السكان  
٥٣ في ضيافة أحد أقرباء الدليل  
٥٤ دعوة من الحاكم الرشدي  
٥٥ في قصر الحاكم



- ٥٦ من تاريخ الجوف الحديث
- ٥٨ ابن رشيد يدفع للترك اناوة
- ٥٨ استقرار الأمن في نجد
- ٥٩ سكان بلاد الجوف
- ٥٩ الحاكم جوهر وجنده
- ٦٠ مائدة غير شبيهة ثم سهرة ممتعة
- ٦٢ دعوة لزبارة سكاكا
- ٦٣ شيخ الجوف السابق
- ٦٣ قهوة وثمنر ...
- ٦٥ صناعات الجوف
- ٦٥ قلعة (مارد)
- ٦٦ صلاة بالقوة
- ٦٧ معاملة لطيفة وهدية ( الزنجية )
- ٦٧ بين سكاكا والجوف
- ٦٩ وصف بلدة سكاكا
- ٧٠ في ضيافة آل عروج
- ٧١ حديث عن تلك الأميرة
- ٧٢ شيء من تاريخها
- ٧٣ نساء لأميرة
- ٧٦ البحث عن زوجة للدليل
- ٧٧ الكاتبة تصبح خاطبة
- ٧٨ في سبيل اختيار الزوجة

- ٨٠ أحاديث مع الفتاة المفضلة  
٨١ استبدال ( لبتا ) بـ ( راشيل )  
٨٢ مجلس لبحث الموضوع  
٨٣ اصرار على خطبة ( مطرة )  
٨٤ موافقة . وهدايا للفتاة  
٨٥ مسامرة حول المهر  
٨٦ حفلة الخطبة  
٨٧ ( جوهر ) نائب الحاكم  
٨٨ مشايخ العرب . و . السلطان ، و . المسكوف ، ا  
٩٠ هدية .. بمدى تصريح بالسفر الى حائل  
٩١ (جوهر) يقيم مأدبة غداء  
٩٢ مناخ الجوف وجوها  
٩٣ كتابة أثرية  
٩٤ استعداد للسفر

### القسم الثالث : النفود بين الجوف وجبّة ٩٧-١٤٦

- ٩٩ في وداع آل عروج  
١٠٠ في انتظار الهدايا  
١٠١ ثم انطلقنا في طريقنا ا ..  
١٠٢ عود الى محمد وعروسه  
١٠٣ (قارة) احدى قرى الجوف  
١٠٤ وصف جيولوجي للجوف وما حوله

١٠٧	النفود وخصائصه الطبيعية
١٠٨	نبات النفود
١٠٩	الحياة في النفود
١١٠	المنخفضات في النفود
١١١	تمليل تجويفات النفود
١١١	حول خصائص بعض القبائل
١١٧	حليب الإبل
١١٧	على آبار الشقي (٢)
١١٨	حديث عن بُنَيَّة بن شعلان
١١٩	مشاهدة ( حوار ) : ولد ناقة صغير
١٢٠	جدد في السير وتوفير للماء
١٢١	راضي الدليل الجديد
١٢٢	عظام .. وبقايا أجسام
١٢٣	طريق « ابو زيد الهلالي »
١٢٣	حكاية « بني هلال »
١٢٦	صعوبة السير في النفود
١٢٧	حيوانات النفود وحشرات
١٢٩	بقر الوحش « المها »
١٢٩	الاهتداء الى الطريق
١٣٠	من قصص الدليل راضي
١٣٢	بارقة أمل
١٣٣	فراشة تستحم بالشمس !

- ١٣٤ شيخ النفوذ
- ١٣٥ قارورة من رمل النفوذ
- ١٣٥ الأرطى والغضا
- ١٣٦ حديث عن الرفاق
- ١٣٧ وآخر عن المطايا
- ١٣٨ الإبل وأمانها
- ١٣٩ بدأوا يصلون لله !!
- ١٤٠ خطر العواصف الرملية
- ١٤١ ليلة هادئة . ويوم شاق
- ١٤٢ منياً على الأقدام . رحلة للجمال
- ١٤٤ بدت معالم نجبة
- ١٤٥ وهذه تلال نجد أ
- ١٤٥ ونسى في الجمال . . وجراد
- ١٤٦ الوصول الى جبنة
- ١٤٧ - ١٨٢ القسم الرابع من نجبة الى حائل
- ١٤٩ جبنة القرية الجميلة
- ١٥٠ وصف البلدة وبنائها
- ١٥١ خبر نجد من الحشرات المؤذية
- ١٥١ السكان وأخلاقهم
- ١٥٢ في ضيافة أمير جبنة
- ١٥٣ الدليل محمد . .

- ١٥٥ اطفال غير مؤدبين  
 ١٥٥ تصرف بسبب القلق  
 ١٥٦ من تاريخ آل رشيد  
 ١٥٧ عبّيد الرشيد  
 ١٥٩ طلال بن عبد الله  
 ١٦٠ متعب بن عبد الله  
 ١٦٠ بين محمد بن رشيد وبندر بن طلال  
 ١٦١ كيف استولى محمد على الحكم ؟  
 ١٦٣ قسوة ومشية وكرم  
 ١٦٤ بندر بن طلال  
 ١٦٥ نايف بن طلال  
 ١٦٦ نسيم نجد ، وتمر الجبل ، وثار الأرطى ١١  
 ١٦٧ قربنا من حائل  
 ١٦٩ منظر رائع يذكر بأسيابنا  
 ١٦٩ موقع مدينة حائل  
 ١٧١ محمد واسطورة آل عروج  
 ١٧٢ تفكير في مقابلة الأمير !  
 ١٧٣ سهرة ممتعة في النفود  
 ١٧٤ انواع من اللعب  
 ١٧٦ الوصول الى ( قنا )  
 ١٧٦ ذكريات رائعة  
 ١٧٧ لا بلد يشبه جبل شمر

- ١٧٧ وصف قرية ( قنا )
- ١٧٨ التربة . والنباب . وحمل . سيناء .
- ١٧٨ روعة معالم جبل شمر
- ١٨٠ جماعة من شمر ورجل من شمر
- ١٨١ كان صباحاً جميلاً .
- ١٨١ القبطنة والوحيد من قرى حائل
- ١٨٢ - ٢٠١ التكمم الخاص . في بلاد ابن رشيد
- ١٨٥ وصف مدينة حائل
- ١٨٥ في قصر محمد بن رشيد
- ١٨٧ وصف ابن رشيد
- ١٨٧ ابن رشيد في مجلس حكمه
- ١٨٨ بيت للضيافة
- ١٨٩ جوله في القصر
- ١٨٩ في الحديقة
- ١٩٠ اصطبل الخيل
- ١٩٠ المطبخ
- ١٩١ من صفات ابن رشيد
- ١٩٢ الأمير محمود
- ١٩٢ في زيارة الحرم
- ١٩٥ تحليل لفظة ابن رشيد
- ١٩٧ في بيت الأميرين حمود وسليمان

٢٠٠	عربي يرطن بالانجليزية !
٢٠١	صانع من حائل
٢٠١	اطرف حادثة !
٢٠٣ - ٢٢٤	القسم السادس : حكم ابن رشيد
٢٠٥	طبيعة السكان
٢٠٦	طبيعة الصحراء
٢٠٧	المناطق الريفية
٢٠٨	الحكم القبلي واثار البيئة
٢٠٩	بلاد نجد لم تخضع لأجنبي
٢١٠	دعوة الشيخ ابن عبد الوهاب
٢١٠	قيام الدولة السعودية
٢١١	تأسيس حكومة ابن رشيد
٢١٢	عبدالله بن رشيد وثروته
٢١٣	الحالة السياسية والادارية
٢١٤	سياسة آل رشيد
٢١٥	الجند والمحافظة على الأمن
٢١٦	النظام والقانون وصفحة ٢٢١
٢١٦	الضرائب والاقاوات
٢١٧	الدخل والمصروفات
٢١٩	الازدهار في جبل شمر
٢١٩	لا يحكم العرب إلا العرب !.

٢٢٠	عجز الترك عن حكم الصحراء
٢٢٠	الاستقرار والأمن
٢٢١	فوضى وراثته الحكم
٢٢٢	توقع نهاية ابن رشيد
٢٢٦ ٢٢٥	القسر السابع ، طريق العودة من حائل
٢٢٧	حديث عن الدليل
٢٢٨	تكدر من الأمير فصحاء
٢٣٠	زيارة تخيم الحجاج
٢٣١	صفاء الجو في نجد
٢٣٢	معركة مصطنعة
٢٣٤	مع رئيس حجاج المعجم
٢٣٥	حديث عن العرب
٢٣٦	زيارة بلدة عقدة
٢٣٦	وصف بلدة عقدة
٢٣٩	حيوان الوبر
٢٣٩	أغنية حربية لشعر
٢٤٠	إبالة عربي وترقيع
٢٤٠	أجمل أيام حائل
٢٤١	في وداع ابن رشيد
٢٤٢	عند الأمير محمود
٢٤٣	هدية للكنانة وزوجها



- ٢٤٤ خارج المدينة  
 ٢٤٤ صفاء الجو في الصحراء  
 ٢٤٥ جمال ضواحي المدينة  
 ٢٤٦ الكتائب وزوجها يهزجان بالعربية  
 ٢٤٧ اللعاق بالحجاج  
 ٢٤٧ الأمير يؤخر سير الحجاج  
 ٢٤٩ مقارنة بين العرب والعجم  
 ٢٥١ يوم آخر للأذن بالسر  
 ٢٥٣ رحلة قصيرة  
 ٢٥٤ مكان أتري فيه صور وكتابات  
 ٢٥٥ مركب الحجاج  
 ٢٥٦ مشاة الحجاج  
 ٢٥٧ المركب والعلم الرشديان  
 ٢٥٨ بين الفارسي وبين الجمل  
 ٢٥٨ وصف اليهودج ( الحمل )  
 ٢٥٩ حجاج من أهل المدينة  
 ٢٥٩ حديث مع شيخ الحرم المدني  
 ٢٦١ من حائل إلى الفرات  
 ٢٦٢ بلدة ( بقعاء ) أو ( طيبة اسم )  
 ٢٦٢ لحم أرانب على ضوء القمر  
 ٢٦٤ جيولوجية إقليم الجبل  
 ٢٦٤ واحة ( بقعاء )

٢٦٥	ابن الإبل ، رسالة من الأمير
٢٦٧ - ٢٨٨	القسم الأخير : عن الخيل
٢٦٩	شهرة خيل ابن رشيد
٢٧٠	خيل آل سعود
٢٧٢	انتقال الخيل الى آل رشيد
٢٧٢	عن تربية الخيل
٢٧٤	وصف خيل ابن رشيد
٢٧٤	مظهر لا ينم عن مخبر
٢٧٥	من أنواع الخيل
٢٧٨	خيل ( عترة ) وخيل نجد
٢٨٠	وصف دقيق لأجسام الخيل
٢٨٢	ألوان الخيل الرشيدية
٢٨٣	سوء التربية في اصطبلات ابن رشيد
٢٨٤	عن خيل ( نجد ) وندرتهما
٢٨٥	قلة الكلا في نجد
٢٨٦	تمرين الخيل في نجد
٢٨٧	سباق الخيل

ملاحظة: لم نتضح بعض الأعلام لمواضع وغيرها فكتبت  
بحسب نطق الحروف الإنجليزية ووضع بحوارها علامة  
ستفهام (؟).

صدر حديثاً :

# كتاب الجوهريين

العتيقتين المائعتين

الصفراء والبيضاء

تأليف

لساد الصمد الحسين أحمد الصمداني

١٤٠٠/٣٤٥ هـ تقريباً

أعدّه للنشر

بإرضاع بعض غوامض وأعداد فهارس وإضافة بحث عن

التعدين والمعادن في جزيرة العرب

حمد الجاسر

ويقع الكتاب في ٤٩٣ صفحة ، بطباعة جيدة الحروف والورق

يطلب من إدارة مجلة "العرب" - الرياض - ص. ب. ١٣٧ رمز بريدي ١١٤١١